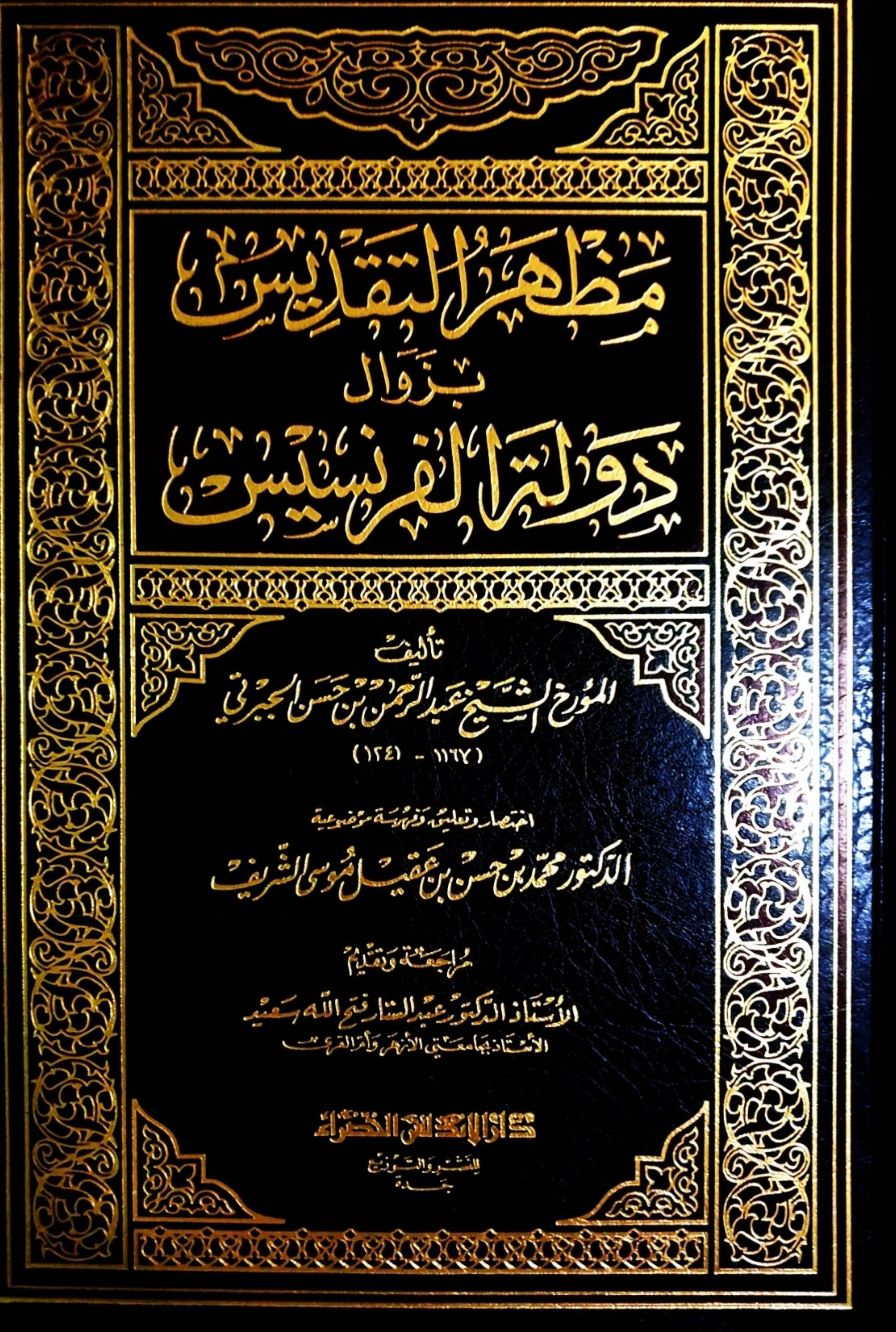


مظهر التقديس
بزوال
دولة الفرنسيس
تأليف
المؤرخ الشيخ عبد الرحمن بن حسن الجبرتي
(١١٦٧ - ١٢٤١)
اختصار وتعليق وفهرسة موضوعية
الدكتور محمد بن حسن بن عقيل موسى الشريف
مراجعة وتقديم
الأستاذ الدكتور عبد الستار فتح الله سعيد
الأستاذ بجامعتي الأزهر وأم القرى
دار الأندلس الخضراء
للنشر والتوزيع
جدة

مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس


بسم الله الرحمن الرحيم

مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس

تأليف

المؤرخ الشيخ عبد الرحمن بن حسن الجبرتي

(١١٦٧ - ١٢٤١)

اختصار وتعليق وفهرسة موضوعية

الدكتور محمد بن حسن بن عقيل موسى الشريف

مراجعة وتقديم

الأستاذ الدكتور عبد الستار فتح الله سعيد

الأستاذ بجامعتي الأزهر وأم القرى

دار الأندلس الخضراء

الطبعَة الثّانيَة

١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

دار الاندلس الخضراء



جدة / هاتف : ٠٢/٦٨١٠٥٧٧
/ فاكس : ٠٢/٦٨١٠٥٧٨
الرياض / هاتف : ٠١/٢٤٨١٧٠٥
/ فاكس : ٠١/٢٤٨١٩٠٥
التوزيع / ٠٥٥٤٤٨١٩٠٥ .. ٠٥٤٤٠٤١٠١٢



المكتبات : حي السلامة
هاتف - فاكس : ٦٨٢٥٢٠٩
حي الثغر - شارع باخشب
هاتف ٦٨١٥٠٢٧ - فاكس: ٦٨١٠٥٧٨



البريد الإلكتروني
alandalos1@gawab com
ص.ب : ٤٢٣٤٠ جدة ٢١٥٤١

تقديم

الأستاذ الدكتور: عبدالستار فتح الله سعيد

الأستاذ بجامعتي الأزهر وأم القرى

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه وبعد:

فهذا كتاب جليل ينبعث في أوانه، شاهداً على زمانه، ومذكراً بما كان من جهاد أمتنا لأعداء دينها وحريتها، ومسجلاً على الغزاة الفجرة من الفرنسيس همجيتهم ووحشيتهم التي كانت امتداداً لأحقاد أجدادهم على الإسلام والمسلمين منذ الحروب الصليبية القديمة!!

لقد حملت الأمة الإسلامية للبشرية رسالة ربها، وكانت بحق أمة التنوير والتحرير، إذ أخرج الله بها الناس من الظلمات إلى النور، وحررهم من مهانة الخرافات وعبادة الأوثان، والخنوع للطواغيت والجبابرة العتاة، وكانت حضارة الإسلام نموذجاً لهذه الهداية الربانية في كل أقطار الأرض، ويكفي شاهداً ذلك النموذج الذي قدمناه لأوربا في الأندلس ديناً وعلماً وحضارةً، فلم يزالوا به حتى دمروه، وردوا الناس على أعقابهم إلى شرور وفتن ماحقة، بل صدّروا هذه الفتن إلى بلادنا بواسطة الحروب الصليبية، التي ردها الله مدحورة بعد جهاد مرير من أمة الإسلام!!

ولقد كانت الحملة الفرنسية على مصر امتداداً لهذا العداء الفاحش، وقد حملت معها كل موبقات وسفالات الأمم الهمجية التي تدعي الحضارة والمدنية زوراً وإفكاً!!

ورحم الله الشيخ عبدالرحمن الجبرتي الذي سجل لنا في كتابه كل هذه الوقائع الناطقة بهمجية ووحشية فرنسا، والشاهدة بأن شعارات «ثورتها الكبرى» لم تكن رسالة تحرير أوتنوير كما يزعمون، وإنما هي ألفاظ جوفاء، وشعارات فارغة من كل مضمون ديني، أو أخلاقي، أو إنساني حضاري، وإلا فأي تحرير أو تنوير في تخريب المدن العامرة تخريباً همجياً عشوائياً كما حدث لمدينة القاهرة؟!

وأي تحرير أوتنوير في إغلاق المساجد، وإتلاف المكتبات، وسرقة المخطوطات، وإحراق المزارع والبساتين، وخلع جميع الأشجار، ثم قتل الألوف المؤلفة (نحو نصف الشعب المصري) من الرجال والنساء والأطفال والشيوخ بلا ذنب أو جريرة إلا أنهم دافعوا عن وطنهم ضد الغزو الأجنبي الكافر؟! هذا فضلاً عن نشر الفسوق والرذائل كما فصل المؤلف رحمه الله ذلك في هذا الكتاب الخطير!!

كانت أمتنا قد ابتليت بداء وبيل فرض عليها ألواناً من الجمود الحضاري، وكان على رأس ذلك الاستبداد السياسي الغشوم، الذي استنزف قواها، وتركها حائرة خائرة تهاب أن تواجه الظلم والفساد، وانتهز الطواغيت المردة من حكامها هذه الفرصة فاعتصروا دماءها، وأنفقوها في الملذات والشهوات، وبناء الدور والقصور التي تركوها وانهزموا عنها عند أول لقاء مع الهمج القادمين من وراء البحار.

وقد أدركت الأمة ـ بفطرتها الإسلامية ـ الخطر الماحق حين دخل الكفار بلادنا، لذلك هبت الأمة جميعاً في وجه الخطر الداهم،

وقاومته بكل ما تملك أو تستطيع، حتى كان الناس جميعاً يخرجون من بيوتهم للمقاومة، ويسجل الجبرتي ذلك بأبلغ عبارة حين يقول:

«ولم ينم أحد في بيته سوى الضعيف، والجبان، والخائن»!!

جزى الله المؤرخ العظيم على ما سجله لنا وحفظه من الوقائع، وجزى أخانا الدكتور محمد بن موسى الذي يقوم الآن على خدمة هذا الكتاب، وإخراجه للناس في هذه الأيام بالذات، التي يزعم فيها أغرار الفكر والثقافة بأن الحملة الفرنسية كانت طليعة التنوير في بلادنا، ويدعون للاحتفال بمرور مائتي سنة عليها، وهذا لغو عابث لا تقوله إلا قردة مقلِّدة، أو ببغاوات مُرَدِّدة، لم تقرأ تاريخ أمتها، ولم تفهم رسالتها الهادية، ولذلك يأتي هذا الكتاب ـ في أوانه ـ من شاهد معاصر للأحداث بأن هذه الأمة المجاهدة لم تنخدع قديماً بدعاوى الأفاك «نابليون بونابرت» حين ادّعى الإسلام، ولن تنخدع ـ حديثاً ـ بزخارف الأدعياء المعاصرين الذين أشربوا في قلوبهم العجل الأوربي والذين يصدق فيهم قول شاعرنا القديم:

مـن يهـن يسهـل الهـوان عليـه

مــا لجــرح بميــت إيــلام

ورحم الله أمير الشعراء شوقي حين وصف أمثالهم:

حالي سمعت كما سمعت وراعني

أن الـرميـة تحتفـي بـالـرامـي

وهذا الكتاب: «**مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس**» يأتي الآن تذكرة غالية من قلب تاريخنا وجهاد أمتنا بأن الإسلام العظيم هو قدر هذه الأمة وشرفها، ولا حياة لها ولا نهوض، ولا استقرار ولا

استمرار إلا بهذا الدين العظيم بكماله وتمامه، خاصة في هذا الصراع الدامي الرهيب المحتدم الآن بين الأمم والدول!!

ولا يفوتنا أن نذكر بما قدمه لنا الدكتور محمد بن موسى منذ مدة قريبة من كتاب **«الروضتين في أخبار الدولتين: النورية والصلاحية»**، وهو يرسم للأمة الإسلامية المجاهدة النموذج الإسلامي لاستعادة القدس وفلسطين من يد أعدى أعدائنا اليهود، كما استعدناه من قبل من أيدي الصليبيين الفجرة على يد الحاكمين الصالحين: نور الدين زنكي، وصلاح الدين الأيوبي.

نفع الله تعالى العباد والبلاد بهذه الكتب الجليلة، وبهذا الجهد الطيب، وجمع قلوب الأمة الإسلامية على طريق حياتها ونجاتها، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

القاهرة في ٢٥ من جمادى الأول ١٤١٩هـ

١٦من أيلول (سبتمبر) ١٩٩٨م

كتبه

الفقير إلى الله تعالى

عبدالستار فتح الله سعيد

المقدّمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

إن تواريخ الأمم عبرة لأجيالها، وأضواء حاضرها ومستقبلها، وتجارب مهمة ورثها للخلف أسلافُها، وكلما كان تاريخ أمة من الأمم مليئاً بالأحداث العظيمة كان ذلك أدعى لكمال الاستفادة وجميل الاتعاظ.

وإن كتب التاريخ التي صنفت في الأزمنة الماضية يجب أن تحظى بالعناية الواجبة؛ لما فيها من ذكر أسباب الفشل أو النجاح، وتعداد العبر والعظات، ولما فيها من تهيئة الأمم للانتقال إلى مستقبل أفضل وأجود.

وهذا الكتاب: **«مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس»** يمثل تلك الأهمية المذكورة، وهو سجل كامل لمدة تاريخية فائتة لها في الحاضر أعظم التأثير والاتصال، وهو مذكر للأمة الإسلامية بضرر الكفار وسوء تأثيرهم، وشدة مناوأتهم المؤمنين، حيث غزا الجيش الفرنسيّ الاستخرابيّ بلاد مصر على حين غفلة من أهلها، وضعف من الدولة العثمانية التي كانت قد مضى عليها زمان وأحداث جسام أدت إلى ضعفها وتفككها فأخذت في الانحطاط والتدهور من جوانب كثيرة، وصار الأعداء يتربصون بها الدوائر، وينتقصون أرضها من أطرافها بل من قلبها، فأجلب الفرنسيون بخيلهم ورَجلهم، وعاثوا في مصر فساداً

وإفساداً، وضربوا على أهلها صنوفاً من الذلة والعذاب والهوان ما كانوا يعهدونها قبل ذلك.

وقد تحرك الشعب المسلم وبذل غاية وسعه، وثار وقاوم الغزاة بكل الوسائل سلمياً وحربياً، وضحى بالغالي والنفيس لكنه لم يستطع أن يحسم المعركة وحده، كما سيطالع القارىء إن شاء الله تعالى في صُلب الكتاب.

نبذة عن كتاب
«مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس»

ألف المصنف الشيخ الجبرتي كتابه «مظهر التقديس» أثناء وجود الحملة الفرنسية في مصر، وسطر فيه غالب ما جرى من أمور مهمة على هيئة يوميات ضمت ما جرى من الأحداث، ثم إنه بعد رحيل الحملة من مصر جعل المصنف هذا الكتاب جزءاً من كتابه الكبير «عجائب الآثار في التراجم والأخبار» وأضاف إليه زيادات ونقحه.

وقد كان هناك بعض الاختلاف بين منهج الجبرتي في «عجائب الآثار» ومنهجه في «مظهر التقديس» إذ قد كتب «عجائب الآثار» بعد رحيل الحملة الفرنسية بمدة، فنظر بمنظار الموضوعية لكثير من الأحداث التي جرت في زمان الحملة، وقارن في «عجائب الآثار» بين زمان الحملة وزمان من جاء بعدها من المماليك والعثمانيين، وأنحى باللائمة على كثير من المظالم التي حدثت من قبَل محمد علي والي مصر بعد الحملة الفرنسية، وأثنى على بعض جوانب التقدم العلميّ عند الفرنسيين مما لم يكن قد صنعه في كتابه «مظهر التقديس».

ويرجع بعض المؤرخين المحدثين ذلك إلى أن الجبرتيّ قد صانع العثمانيين في كتابه «مظهر التقديس» الذي أهداه إليهم، أو أنه خشي أن يُتهم بمصانعة الفرنسيين الذين عينوه عضواً في ديوانهم فأسرف في

ذمهم، والحقيقة أن الجبرتي لم يكن ليصانع أحداً على هذا النحو فهو المؤرخ الثقة لكنه صنف كتابه «عجائب الآثار» بعد رحيل الحملة بزمن كان كافياً لينظر إلى الحملة وآثارها بنفس هادئة فسطر ما رآه وعلمه من محاسن قليلة خالطت تلك الحملة، أما في «مظهر التقديس» فقد سطره بنَفَس متألم لما يراه من صنيع الفرنسيين ببني جنسه ودينه فغضب فكتب وسطر ما رآه، ولم يكن في الكتابة الأولى متجاوزاً ظالماً، كما أنه لم يكن في «عجائب الآثار» متساهلاً مبهوراً بالفرنسيين لكن لاختلاف زمن الكتابين أثر واضح في أسلوب ومنهج التأريخ، والله أعلم[١].

وقد ذكرت بعض الجوانب المهمة التي ذكرها الجبرتي في «عجائب الآثار» ولم يذكرها في «مظهر التقديس» ذكرتها في مكانها من الكتاب في الهوامش حتى تكتمل الصورة الموضوعية للكتاب على وجه مفيد يرضي القارىء ويجمع الأطراف، ويسعف الباحث، ويحقق الفائدة المرجوّة من دراسة التاريخ إن شاء الله تعالى.

---

(١) انظر الدراسة المقارنة بين «عجائب الآثار» و «مظهر التقديس» للدكتور محمد السروجيّ.

عملي في تهذيب الكتاب واختصاره

الكتاب وثيقة تاريخية مهمة، كما سبق ذكره، يجب الاعتناء بنشره نشرة قويمة؛ لأنه يكاد يكون الكتاب الوحيد المؤرِّخ للحملة الفرنسية استقلالاً عن غيرها من الأحداث، من وجهة نظر عربية إسلامية، وقد نشر ثلاث مرات[1]، وكانت النشرة الثالثة بتحقيق الأستاذين حسن جوهر وعمر الدسوقي سنة ١٣٨٩هـ.

وقد ترجم الكتاب إلى اللغة التركية سنة ١٢٢٠ في حياة المصنف[2]، وترجم إلى الفرنسية بعد ذلك بمدة طويلة[3].

هذا وقد بذل المحققان جهداً لا بأس به في النشر والتعليق لكن الكتاب يظل مفتقراً إلى جهد كي تتم الاستفادة منه، وذلك لأنه مليء بالاستطرادات التي ليس لها صلة مباشرة بموضوع الكتاب، وقد تجلب الملل إلى القارىء وتصرفه عن متابعة الكتاب، وفيه مواضع تحتاج إلى نظر وتحرير، وفيه مباحث مفتقرة إلى إكمال وتعليق، فرأيت أن أهذب الكتاب وأنقحه على النحو الآتي:

---

(١) طبعة سنة ١٩٥٨ في جزأين في ١٨٩ مجموعة «اخترنا لك»، وطبعة سنة ١٩٦١ بوزارة الإرشاد في مصر.
هذا وقد اطلعت ـ بعد إعداد الكتاب للطباعة ـ على نشرة جديدة قويمة بتعليق الأستاذ أحمد عبده ونشر مكتبة الآداب بمصر سنة ١٤١٩، وقد استفدت من بعض الفوائد الواردة في هذه النشرة وأثبتها في مكانها من هذا الكتاب.

(٢) «مؤرخو مصر الإسلامية»: ١٨٩.

(٣) «الأعلام» للزركلي: ٣/ ٣٠٤.

أولاً: الكتاب مكتوب بلهجة قريبة من العامية تساهلاً من الجبرتي ومسايرة منه للهجة السائدة، فأورث ذلك جمل الكتاب بعض ركاكة، وعدداً ليس بقليل من الأخطاء اللغوية، فحاولت إصلاح ما ينبغي إصلاحه من الأخطاء والأساليب الضعيفة بالقدر الذي يتيسر معه قراءة الكتاب قراءة سليمة، مع المحافظة على الأصل قدر الإمكان، ومع ذلك لم أستطع تغيير كل ما في الكتاب من هذا لشيوعها وكثرتها، فبقي كثير من الأساليب، وأبقيت كثيراً من الأخطاء والأساليب التي لا يضر بقاؤها شاهدةِ على المستوى اللغوي السائد آنذاك.

ثانياً: لذلك عمدت إلى جمل كثيرة ـ لا يؤثر على النص سقوطها ـ فحذفتها، وإلى استطرادات لا علاقة لها بالسياق التاريخيّ فأسقطتها، وإلى عبارات مُلبسة أو تحتمل أكثر من وجه فحررتها وهذبتها.

ثالثاً: كان كتاب الجبرتي موضوعاً على نحو مختصر، حيث إنه قد ترك تفصيل أحداث ذات شأن، وقد يكون ذلك اعتماداً على شهرتها، أو لأسباب أخرى دفعته إلى ذلك، وقد يغفل لذلك بعض الأحداث إغفالاً تاماً، فلأجل هذا رأيت أن أكثر من التعليق على المواضع التي وردت في كتابه ناقصة مبتورة أو لم ترد أصلاً في سياقها الذي ينبغي أن تورد فيه، واستعنت بعدد من المصادر الموثوقة المعينة على هذا الأمر.

رابعاً: ترجمت لعدد من الأعلام الواردة التي يجهلها أكثر أبناء العصر.

خامساً: خرجت الأحاديث والآثار وحققتها، وهي قليلة.

سادساً: ضبطت الكلمات المحتاجة إلى ضبط، وشرحت الغريب منها، وعرّفت بالمصطلحات المملوكية والعثمانية الكثيرة التي وردت

في الكتاب، وكان ذلك أول ورودها، فمن فاته الاطلاع على التعريف فليراجع الفهرست الخاص بها آخر الكتاب.

سابعاً: أعدت كتابة النص على قواعد الإملاء الحديثة ليحسن فهم المكتوب، وينضبط الكشف عنه، وبدأت الفقرات المهمة بأرقام تتعلق بفهرست الفوائد آخر الكتاب.

ثامناً: أبقيت بعض التعليقات النافعة التي خدم بها المحققان الكتاب، وصدرت كلامهما بقولي: قال المحقق، فما كان خالياً من ذلك التصدير فهو من صنعي.

تاسعاً: وضعت عناوين لكل فصل وقضية مهمة وردت في كتاب الجبرتي.

عاشراً: وضعت عدداً من الفهارس الكاشفة، ووضعت فهرساً للفوائد رتبته على نحو موضوعي يُرجى معه أن يكون حاوياً كل ما في الكتاب من فوائد وعبر وعظات على وجه علمي دقيق، إن شاء الله تعالى، ووضعت في ذيل كل فائدة رقم الفقرة حتى يسهل الرجوع إليها في ثنايا الكتاب.

هذا وأسأل الله تعالى أن يتقبل عملي ويجعله في موازين حسناتي، وأن ينفع به دينه وعباده المسلمين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلاة وسلاماً على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين.

كتبه

الفقير إلى الله

محمد بن حسن بن عقيل موسى الشريف

ص.ب: ٤٢٣٤٠ جدة: ٢١٥٤١

ترجمة

مصنف الكتاب: الشيخ الجبرتيّ[1]

عبدالرحمن بن حسن بن إبراهيم، وهو حبشي الأصل، مصري المولد والنشأة والموطن، جاء أسلافه مصر من جَبَرْت: إحدى مقاطعات الحبشة.

وكان أبوه الشيخ حسن عالماً من علماء الأزهر، وكان فوق إلمامه بالعلوم الدينية، ملماً بالعلوم الهندسية، معنياً ببعض أجهزتها كالإسطرلاب[2]، كما كان مهتماً بضبط الموازين، وكان موسعاً عليه في الرزق، ومغرماً بجمع الكتب والمخطوطات، وكانت مكتبته لذلك مجمع العلماء وطلاب العلم.

ولد عبدالرحمن الجبرتي في القاهرة في سنة ١١٦٧ هجرية. وقد نشأ في بيئة علمية ـ كما ذكرنا ـ فشب على حُب العلم والعلماء حتى أصبح من كبارهم وقام بالتدريس في الأزهر، وقد جُبل منذ الصغر على تسجيل ما يرى وما يسمع وما يحس، غير متأثر فيما يسجل بآراء أهل عصره، والدَهْماء منهم بخاصة والذين اتهموه بميله إلى الفرنسيين عندما قرأوا ما كتبه عنهم[3]، على الرغم من أنه انتقد بعض أعمالهم

---

(١) هذبت ما ترجمه به المحققان وأضفت عليه زيادات من كتب أخرى.

(٢) الإسطرلاب: آلة لقياس هيئة الأفلاك وحركاتها.

(٣) يشير إلى ماجاء في تاريخه «عجائب الآثار» من ثناء على بعض أحوال الفرنسيين =

انتقاداً مراً، الأمر الذي جعل الفرنسيين يصفونه بأنه شيخ متعصب[١].

وقد عين الفرنسيون الجبرتيّ عضواً في (الديوان) في عهد القائد الفرنسي منو كما سيأتي في صلب الكتاب، إن شاء الله تعالى[٢].

ولم يكن للجبرتي أسلوب خاص يلتزمه في كتاباته، فبينا تراه يرسل القول إرسالاً مستعملاً اللغة الشعبية حين تفجأه الحوادث أو تتوارد عليه الأخبار فيسارع إلى تسجيلها، وقد تسلمه السرعة إلى أخطاء نحوية أو لغوية فلا ينتبه لها، أو قل لا يعبأ بها، إذ تراه يلتزم السجع، ويتخير الألفاظ الجزلة، فتبدو في كتابته الصنعة والتكلف عندما يكتب حياة عَلَم من أعلام التاريخ أو الأدب أو العلم.

وقد ساعده في كتابة عدد من جوانب كتابه «مظهر التقديس» صديق له أديب يسمى حسن العطّار[٣]، خاصة فيما أورده من مقطوعات أدبية شعرية ونثرية.

وقد عُدّ الجبرتي خاتمة المؤرخين الكبار في مصر، وقد اقتفى أثر المؤرخين قبله في كتابة التاريخ على هيئة الحوليات أي السنين والشهور والأيام، ولم يأت بعده من نهج نهجه.

ويظهر من كتاباته تمسكه واعتزازه بدولة الخلافة العثمانية،

= في إدارتهم للبلاد، وعلى ما رآه من مخترعات وتجارب كيميائية ورياضية علق عليها في كتابه: ٣/ ٣٦ بقوله: «ولهم فيه أمور وأحوال وتراكيب غريبة ينتج منها نتائج لا تعيها عقول أمثالنا» يريد ما شاهده منهم في دار الصنايع كما يسميها.

(١) جعله نابليون من كتاب الديوان: انظر «الأعلام»: ٣/ ٣٠٤.

(٢) انظر فقرة [٢٧١].

(٣) ستأتي ترجمته وبيان بعض كتاباته في صلب الكتاب، إن شاء الله تعالى، انظر فقرة [٩].

وسخطه على المماليك الظلمة، وتبرمه الشديد من ظلم محمد علي وشدة بأسه وسطوته.

وتوفي عبدالرحمن الجبرتي في القاهرة سنة ١٢٤١هـ[1].

ويزعم بعض المؤرخين أنه مات مقتولاً، وأن قاتله محمد علي الذي سلط عليه من تربص له واغتاله سنة ١٨٢٢م.

ويزعم آخرون أن المقتول ابنه خليل، وأن الجبرتي بكاه حتى فقد بصره، ويؤيد هذا القول أن أحد الرحالين الإيطاليين زار الجبرتي في ديسمبر سنة ١٨٢٢ بداره في بولاق، فوجده أعمى وملازماً بيته لا يبرحه.

ولقد كانت علة نقمة محمد علي عليه نقده الشديد له[2] في كتابه عجائب الآثار في التراجم والأخبار، لسلوك محمد علي مع المصريين الذين اختاروه والياً عليهم، فجزاهم جزاء سنمّار، بظلمه لهم وقسوته عليهم[3].

---

(١) جاء في الأعلام أنه توفي سنة ١٢٣٧.

(٢) قال المحقق: لقد كانت كتبه محظور طبعها وتداولها في عهده وعهد خلفائه.

(٣) قال المحقق: راجع ما كتبه عنه في كتابه المشهور «عجائب الآثار في التراجم والأخبار» الجزء السادس والسابع.

تمهيد

نتحدث في هذا التمهيد بإيجاز عن الغزو الصليبي لمصر، ونجاح هذا الغزو لأول مرة علي يد الجيش الفرنسي، وما أدى إليه هذا الغزو من نتائج مدمرة، وآثار خبيثة:

أولًا: الغزو الصليبي القديم لمصر:

لم يكن هذا الغزو الصليبي لمصر هو الغزو الأول بل سبقه حَمَلات صليبية كثيرة كان أشهرها حملة لويس التاسع الذي جاء مغروراً منتفخاً بجيشه وعناده فهزمه المسلمون شر هزيمة وأسروه في دار ابن لقمان بالمنصورة في واقعة عظيمة مشرفة.

ولقد عمد الصليبيون بعد تلك الهزيمة إلى محاولة غزو المسلمين في عقيدتهم وشريعتهم حتى يتمكنوا منهم ويحكموا عليهم السيطرة، مما عرف بعد ذلك بالغزو الفكري، والكلام في هذه المسألة طويل متشعب.

ثانياً: النظام السياسي في مصر قبل الحملة الفرنسية:

كانت مصر محكومة حكماً مباشراً من قبل العثمانيين منذ دخولهم القاهرة سنة ٩٢٢هـ، وكانت الحكومة تتألف من الباشا وهو الذي يحضر من القسطنطينية لينوب عن السلطان في الحكم، وله كَتْخُدا وهو

الوكيل عنه في الحكم. وعند الباشا مجموعة من الجنود والموظفين الذين يساعدونه في تنظيم عمله، وكان في مصر ديوانان للحكم: ديوان يتألف من رؤساء الفرق العسكرية العثمانية «الأوجاقات»، وضباطها الأغوات، وأمير الحج، ورؤساء المذاهب الأربعة والقاضي، وديوان صغير يتكون من كَتْخُدا الباشا والدفتردار.

وقد أصبح الباشا في القرن الثامن عشر خاصة وما بعده مسلوب السلطة الفعلية بسبب ذينك الديوانين[١]، هذا عدا والي مصر المعين من قبل المماليك وهو خاضع لسلطة الباشا، لكن لما ضعفت سلطة الباشا بعد ذلك بسبب ضعف الدولة ضعفت مكانته في مصر وأصبح ألعوبة في يد أمراء المماليك الذين تفننوا في عزله، بل صار لهم استقلال واضح عن الدولة العثمانية وإن كان ذلك الاستقلال غير معلن[٢].

وقد ساءت حالة البلاد بسبب تلك السلطة الثلاثية: المماليك، والديوان المسيطر عليه العسكريون، والباشا العثماني المعين من قبل الدولة العثمانية، فدخلت البلاد دوامة من الظلم والفقر، والمساوىء في الإدارة والحكم فجاءت الحملة الفرنسية فسقطت البلاد أمامها بسهولة كما سيطالع القارىء الكريم في صلب الكتاب، إن شاء الله تعالى.

---

(١) قال الكونت دي شوازيل جوفييه سفير فرنسا لدى الدولة العثمانية:
«لم تعد مصر خاضعة للأتراك فالباشا لم يعد له أي نفوذ، إنها مملكة بلا مالك»: مقدمة نشرة «مظهر التقديس» التي علق عليها الأستاذ أحمد عبده: ٥٧.

(٢) انظر الدراسة التي وضعها الدكتور محمود مصطفى بعنوان «الجبرتي ومعاصروه من أمراء المماليك» وهي مطبوعة ضمن الندوة التي أقامتها الجمعية المصرية للدراسات التاريخية عن الجبرتي وعصره.

هذا عن السلطة السياسية، لكن مكمن القوة الحقيقي كان في يد مشايخ الأزهر الذين كانت لهم المكانة الاجتماعية العظيمة، وكانت الطوائف المذكورة الثلاث تكن لهم أعظم الاحترام، وتخطب ودهم وتخشى غضبهم، وظلوا كذلك أغلب مدة الحملة الفرنسية، حتى جاء محمد علي فعمد إلى تفتيت تلك القوة وتحطيمها كما هو مسطور معلوم.

ثالثاً: أهداف الحملة الفرنسية:

كان من الأهداف المعلنة للحملة الفرنسية هو نشر الحضارة الفرنسية ـ زعموا ـ في ربوع الشرق وبوابته مصر، وكانت فرنسا قد خرجت قريباً من حرب أهلية دامية انتقلت على إثرها من النظام الملكي إلى النظام الجمهوري:

«والعجب أن فرنسا ـ يوم خرجت منها الحملة إلى مصر ـ هي فرنسا الثورة الكبرى التي لم يكن قد مضى على تأسيسها سوى سبع سنوات، وهي فرنسا «إعلان حقوق الإنسان»، والمواطن الذي قنّن أفكار «فولتير» و «مونتسيكيو» و «روسو» فكفل حريات التملك والرأي والعقيدة باعتبارها حريات طبيعية، وضمن حق الشعوب في اختيار من يحكمها ومحاسبته، وحقها في مقاومة الاستبداد والظلم، وأقر مبدأ الفصل بين السلطات، والمساواة أمام القانون وشخصية العقوبة، وحظر الاعتقال بلا محاكمة، والاتهام بلا قانون، والعقوبة بلا دفاع، وأدان العقوبات الجماعية والتعذيب الوحشي»[1].

---

(١) «المدافع لا تقرأ القرآن»: صلاح عيسى مقالة لمجلة «العربي»: عدد ٤٧٤: محرم ١٤١٩.

فالعجب من دولة هذه مبادئها المعلنة أن تعمل الأعمال المنافية لها بالكلية ـ كما سيرى القارىء، إن شاء الله تعالى، في صلب الكتاب ـ بل فاقت بأعمالها الوحشية أشد الشعوب تخلفاً ومجافاةً لإعلان حقوق الإنسان الفرنسي الشهير.

والحقيقة أن الحملة الفرنسية جاءت لتحقيق عدة أهداف لاتمت بصلة لحقوق الإنسان منها:

١ ـ العامل الاقتصادي المادي:

كان من أهم أهداف فرنسا وأعظمها في حسها السياسي والعسكريّ مناوأة انجلترا التي كانت أقوى وأخطر أطراف العداء ضد فرنسا، بحيث يتم «الاستيلاء على مصر لقطع طريق التجارة البريطانية مع الهند، ويُستغل موقعها الجغرافي الفريد بأن يجعل منها مركزاً فرنسياً لطرق التجارة الدولية بحفر قناة تصل بين البحرين الأبيض والأحمر، وينتهي بالاستيلاء على الهند ذاتها..»[١].

هذا وقد كان السبب الظاهر المباشر للحملة الفرنسية هو استجابة الحكومة الفرنسية لشكاوي كثير من تجارها المتضايقين من سوء معاملة المماليك لهم، كما سيأتي في صلب الكتاب، إن شاء الله تعالى.

---

(١) المصدر السابق.
وأرسل نابليون إلى حكومة الإدارة الفرنسية قائلاً:
«لابد أن نستولي على مصر، إن الامبراطورية العثمانية الشاسعة التي تموت كل يوم تحفزنا على أن نفكر مبكراً باتخاذ التدابير اللازمة للمحافظة على تجارتها في المشرق»: مقدمة نشرة «مظهر التقديس» بتعليق الأستاذ أحمد عبده: ٥٧.

٢ـ تجنيد الأقليات النصرانية في مصر:

«إننا نشكو اليوم ـ على النطاق العربيّ والإسلامي ـ من اختراق الغرب لأمننا الوطنيّ والقوميّ والحضاريّ من خلال ثغرة الأقليات الدينية والقومية، ومحاولاته تحويل هذه الأقليات إلى أوراق ضغط على الحكومات الوطنية، وإلى عقبات أمام مشاريع التغيير والنهوض - القومية منها والإسلامية بل والوطنية أحياناً ـ ولقد كان لنابليون وحملته الفرنسية الريادة في هذا الاختراق.

لقد أعلن بونابرت ـ وهو في طريقه إلى غزو مصر ـ عن نيته تجنيد عشرين ألفاً من أبناء الأقليات في الشرق للاستعانة بهم كقبضة ضاربة، وقفّاز محليّ ومواطىء أقدام لحملته الاستعمارية وحلمه الامبراطوريّ، وبعد احتلاله لمصر بدأ التنفيذ لهذا المخطط الخطير والكريه، فأغرى نفراً من أراذل النصارى من الأقباط والطوائف الأخرى ـ وبخاصة أتباع المذاهب النصرانية الغربية ـ بالخروج على إجماع الأمة ـ المسلمين منها والنصارى ـ فكونوا فيلقاً قبطياً التحق بجيش الحملة الفرنسية وحارب الشعب المصري مع قوات الاحتلال، وقاد هذا الفيلق «المعلم يعقوب حنا ـ وهو الذي سماه الجبرتيّ «يعقوب اللعين»[1] ـ وفيلقاً ثانياً من النصارى الأروام قاده «برطلمين يني الروميّ» الذي اشتهر لدى العامة بـ«فرط الرمان».

وكما يقول الجبرتيّ ـ مؤرخ العصر وحجته ـ فإن فيلق المعلم يعقوب قد ضم من شباب القبط بالصعيد نحو الألفين، وشارك هذا الفيلق مع الجيش الفرنسيّ الذي قاده «ديزيه» في فتح صعيد مصر»[2].

---

(١) ستأتي أخباره في صلب الكتاب، وانظر فهرست الفوائد.

(٢) «السجل الأسود لحملة نابليون»: مقالة للدكتور محمد عمارة، نشرت في مجلة =

٣- تكوين حزب موال لفرنسا من أبناء البلاد المسلمين:

وهذه أمنية راودت كل مستخرب «مستعمر»، وهي أن ينشىء من أهل البلاد عُباداً له من دون الله؛ يعظمونه ويجلونه ويرون فيه خير منقذ لبلادهم من التخلف والهوان، وما شذ الفرنسيون عن إخوانهم المخربين فقد جهدوا أن يُنشئوا في مصر حزباً موالياً فرنسي القلب والعقل واللسان، وهذا ما تحقق لهم بعد أمد طويل، ولم يتسنّ لهم إنشاؤه أيام الحملة لعظم المقاومة الجهادية، إلا ما كان من أمر تجنيدهم لبعض الأقليات النصرانية، لكن هؤلاء المخربين لا يريدون النصارى إنما يريدون أبناء البلاد المسلمين لتتم بها الخديعة.

وقد أرسل نابليون رسالة عجيبة إلى قائده من بعده في مصر: كليبر، يقول فيها:

«اجتهد في جمع ٥٠٠ أو ٦٠٠ شخص من المماليك حتى متى لاحت السفن الفرنسية[1] تقبض عليهم في القاهرة أو الأرياف وتُسفّرهم إلى فرنسا وإذا لم تجد عدداً كافياً من المماليك فاستعض عنهم برهائنَ من العرب ومشايخ البلدان، فإذا ما وصل هؤلاء إلى فرنسا يُحجزون مدة سنة أو سنتين يشاهدون في أثنائها عظمة الأمة [الفرنسية] ويعتادون على تقاليدنا ولغتنا، ولمّا يعودون إلى مصر يكون لنا منهم حزب يضمّ إليه غيرهم»[2].

وهي رسالة واضحة لا تحتاج إلى تعليق.

= «المجتمع» عدد ١٢٩٧ في ١٤١٩/١/٧هـ.

(١) كان نابليون يعد كليبر قائده في مصر بنجدته بسفن فرنسية لكنها لم تأت أبداً، ولله الحمد.

(٢) «رسالة في الطريق إلى ثقافتنا»: ١٠٨.

٤ـ التمهيد للمشروع الصهيوني:

دعت فرنسا اليهود ليكون لهم مواطىء قدم في فلسطين، ففي أثناء حصار نابليون عكا سنة ١٧٩٩ أصدر نداءه الشهير إلى الطوائف اليهودية ـ التي نعمت زماناً طويلاً بالحكم الإسلاميّ ـ داعياً إياها كي تتحالف مع جيشه الغازي ومشروعه الاستعماريّ؛ وذلك مقابل تمكينهم من أرض فلسطين، وكان مما قاله لهم ضمن كلام كثير جدير بالتأمل:

«ياورثة فلسطين الشرعيين: إن الأمة الفرنسية تدعوكم إلى إرثكم بضمانها وتأييدها ضد كل الدخلاء»[١].

يقول هذا المخادع ذلك القول بينما يدعي كذباً وزوراً الإيمان والإسلام، كما سيأتي أول الكتاب.

٥ـ تدمير بواكير النهضة المصرية الإسلامية:

«كانت هناك يقظة مصرية مبكرة ناشئة، وكان نذير الاستشراق ـ يومئذ ـ يحذر المسيحية الشمالية من هذه اليقظة المخوفة العواقب[٢]. . . وقيض الله لفرنسا قائداً أوروبياً محنكاً مظفراً، شديد البأس، خوّاضاً لغمرات الموت، ضرّسته الحروب في أوروبا حتى صار اسمه مثيراً للرعب في القلوب بأنه قائد لا يقهر، هو الصليبي الميكافيليّ المغامر

---

(١) «السجل الأسود لحملة نابليون»: مقالة للدكتور محمد عمارة: بمجلة «المجتمع» عدد ١٢٩٧ في ١٤١٩/١/٧هـ.

(٢) الكلام للأستاذ محمود شاكر، وقد ضرب مثلاً على هذه اليقظة بخمسة أشخاص منهم الجبرتي الكبير والد الشيخ عبدالرحمن مصنف هذا الكتاب ووصفه بالرياضي المهندس، وذكر أن المستشرقين كانوا يأتون إلى منزله ويطلبون العلم على يديه، ومنهم الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله، انظر «رسالة في الطريق إلى ثقافتنا»: ٨٩.

المفتون الفاجر: نابليون... فلما فرغ من حروبه في أوروبة منصوراً نصراً مؤزراً أصاخ سمعه لنذير الإشراق ولنصحه وإرشاده، فقدّر أن الحين قد حان ليكون أول قائد أوروبيّ استطاع بقوته التي لا تُقهر أن يخترق قلب دار الإسلام من الشمال، وأن يداهم اليقظة التي أرّقت منام الاستشراق...»[1].

ثم رحلت فرنسا عن مصر «وجلت عن بلاد واسعة عريضة تركتها بَلْقعاً تَصْفر فيه الريح، وانكشفت عن عاصمة عتيقة تركتها خراباً. كان خراباً شاملاً وتدميراً لمدينة زاهرة من أجمل مدن العالم يومئذ بعمارتها وفنونها، وبركها ومنتزهاتها، أقدم على تدميرها تدميراً كاملاً بربريٌّ جاهل مُسْتخف في زي متحضر، ولكن صار هذا التدمير ـ في عين حياتنا الأدبية الفاسدة ـ هو رسولَ الحضارة الذي جاء ليخرجنا من ظلمات الجهل إلى عصر النور والتنوير!! لا تضحك ولا تبك ولكن أطْرق إطراقة الخزي والمهانة والعار...

ولكنهم لم يرحلوا عن القاهرة المخربة، وعن الشعب الذي استنزفوا ثروته بالضرائب والإتاوات مدة ثلاث سنوات حتى سرق المستشرقون المصاحبون للحملة الفرنسية ـ ومستشرقون آخرون من كل جنس ـ سرقوا كل نفيس من الكتب، وكانت القاهرة ـ يومئذ ـ من أغنى بلاد العالم بالكتب، ودليل السرقة قائم بين أعيننا إلى اليوم... دليل السرقة قائم في جميع مكتبات أوروبا صغيرها وكبيرها ... وكان همهم الأكبر ـ يومئذ ـ هو السطو على كتب علوم الحضارة أولاً ثم على كتب التاريخ ثم على كتب الآداب كلها بلا تمييز، ورحم الله

---

(١) المصدر السابق: ٨٩ ـ ٩٠.

الشيخ الجبرتي فإنه أرّخ لدمار القاهرة ولكنه ـ بغفلته ـ لم يؤرخ لنا تاريخ هذا السطو على كتب المساجد والمدارس وبيوت العلماء والأمراء والمماليك المصرية، إلا في مواضع متفرقة قليلة بلا بيان واضح. . . ورحم الله الشيخ الجبرتيّ ما كان أشد غفلته عن أمور كثيرة لم يذكرها واضحة بما فيها مكتبة أبيه «الجبرتيّ الكبير» ماذا فعلوا بها؟ وذلك لأنه كان مشغولاً عنها. . .[1].

«ولم يكن هذا السطو الجائح على كتب دار الإسلام في القاهرة ـ والذي تولى كِبْرَه مستشرقو الحملة الفرنسية وأعوانهم من اليهود ومستشرقي سائر البلاد المسيحية الشمالية ـ لم يكن هذا سطواً منه لمجرد رغبة الاستشراق في أداء عمله، من استمداد لثقافة أممه من علم دار الإسلام المسطور في الكتب ولشدة حاجة يقظتهم ونهضتهم ـ يومئذ ـ إلى هذا العلم، لا بل كانت الغاية الأولى المقدسة على كل غاية هي تجريد دار الإسلام في القاهرة من أسباب اليقظة التي جاءت الحملة الفرنسية لوأدها في مهدها، وللقضاء عليها قبل أن تتفاقم. . .»[2].

٦ـ إشاعة الفساد في البلاد وتدمير أخلاقها ودينها:

لقد أحضر الفرنسيون معهم عدداً من البغايا والراقصات والمغنيات اللواتي فعلن فعلهن في طبقة من المجتمع المصري وأثرن فيها ـ كما سيطالع القارى في صُلب الكتاب، إن شاء الله تعالى ـ لكنها كانت طبقة محدودة من طبقات المجتمع المصريّ، ولله الحمد، هذا عدا عن بناء كثير من حانات الخمور بل تحويل عدد من المساجد إلى خمارات.

---

(١) المصدر السابق: ٩٦ ـ ٩٨.

(٢) المصدر السابق: ٩٨ ـ ٩٩.

ولقد واصل نابليون نهجه المدمر هذا حتى بعد عودته إلى فرنسا، فقد أرسل رسالة إلى قائده كليبر في مصر يقول فيها:

«كنتَ قد طلبتَ مراراً جَوقة تمثيلية[1]، وسأهتم اهتماماً خاصاً بإرسالها لك لأنها ضرورية للجيش، وللبدء في تغيير تقاليد البلاد...»[2].

تلك كانت بعض أهداف الحملة الحقيقية لا كما يصوره الغافلون أو المنافقون.

رابعاً: تفنيد ما زعم من محاسن الحملة الفرنسية:

قد بقي الفرنسيون في مصر ثلاث سنوات عجاف سيطروا فيها على المقدرات السياسية والاقتصادية، وفرضوا أسلوبهم في إدارة البلاد لكنهم لم ينجحوا أبداً في السيطرة على القلوب والمشاعر، ولا أن يجعلوا الشعب المصري يحبهم أو يلتف حولهم بقلبه ومشاعره، بل إن العكس هو الذي حصل، إذ كان الشعب يتلهف على قدوم النجدات الإسلامية سواء من العثمانيين أو من غيرهم، وكان يظهر السرور العظيم لكل حادث يسوء الفرنسيين أو يؤثر على قوتهم.

هذا وقد احتال الفرنسيون بكل حيلة، وعملوا ما في وسعهم لفرض احتلالهم على الناس وجعله أمراً واقعاً حتى أن نابليون ادّعى الإسلام ونصرةَ الدين، ومحبة النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ توسلاً منه لإحكام السيطرة على المصريين، وتودد إليهم تودداً مشوباً بمشاعر الحقد والعداء التي لم تخف على الشعب الذكيّ، كل ذلك لم يُرَغب

---

(١) أي فرقة تمثيلية.

(٢) المصدر السابق: ١٠٨.

المصريين في الغازي الدخيل ولم يلتفّوا عليه ولا التفتوا إليه، وهذا من حسنات الشعوب الإسلامية التي إن استطاع الغازي أن يملك أرضها بُرهة من الزمان فإنه لم يستطع أبداً امتلاك عقولها وقلوبها، لذا لجأ الكفار بعد ذلك إلى الغزو الفكري الذي يمهد لهم مكاناً في قلوب المسلمين وعقولهم، بحيث يُفسح لهم مكاناً رحباً في بلادهم بعد ذلك.

ولقد تشدق كثير من المغرورين والجهلة وأنصاف المثقفين ـ بَلْهَ المنافقين والعملاء ـ بمحاسن الحملة الفرنسية، وما جرّته على الشعب المصري من حضارة وتقدم، وتصدى لهذه الأفكار أناس عرفوا الزيف ونقدوه، ولم يغرهم البهرج والتزين الإعلامي المخطط، فقاموا بفضح تلك الأفكار الدخيلة والشناعات الرذيلة.

وإليك – أخي القارىء – بعض الحقائق العلمية التي تفنّد شبهات كثير من الخادعين أو المخدوعين القائلين بحصول فائدة كبيرة من قدوم الحملة الفرنسية إلى مصر:

١ ـ قيل أن من فوائد الحملة قيام بعض العلماء الفرنسيين المصاحبين لها ببحوث علمية مهمة، «والسؤال الذي يَرد هو: هل كانت هذه البحوث ذات اتصال بالمصريين؟ هل علّموا نفراً من أبنائها شيئاً من أوليات هذه البحوث؟ والجواب بالنفي القاطع»[١].

«أما المجمع العلمي المصريّ الذي يزعم الفرنكفونيون[٢] أن

(١) مجلة «الهلال» عدد ذي الحجة سنة ١٤١٨: ص٢٥. والكلام للأستاذ الدكتور محمد رجب البيوميّ لخصه من بحوث متعددة قيمة للقومي المعروف الأستاذ ساطع الحصري.

(٢) هم الذين تربوا من الشعوب المحتلة تربية فرنسية باللغة والعادات فصاروا محبي الثقافة الفرنيسة وأتباعها الخلص.

نابليون قد أسسه فإنه هو الآخر خرافة من الخرافات، فالبعثة العلمية الفرنسية - التي صحبت جيش الحملة البونابرتية - قد جاءت لتدرس الواقع المصريّ حتى يستطيع الغزاة حكمه، ولتدرس الشخصية المصرية حتى يسهل على المستعمرين السيطرة عليها، ثم انسحبت هذه البعثة مع جيش الاحتلال (١٨٠١م)، ولا علاقة لهذه البعثة الفرنسية - التي واصلت أبحاثها بعد الجلاء في فرنسا - لا علاقة لها بالمجمع العلمي المصري على الإطلاق؛ فالمجمع العلمي المصري هو مجمع وطنيّ قام في سنة ١٨٥٩. . . أي بعد ما يقرب من ستين عاماً على جلاء الحملة الفرنسية والبعثة العلمية الفرنسية التي صحبتها. . .»[١].

ومن أعظم ما يردده أولئك النفر من العملاء والمخدوعين ما قام به علماء الحملة الفرنسية من تصنيف كتاب جامع ضخم عن مصر وجغرافيتها وطبائع أهلها وحرفهم، وهو مجهود ضخم مهم لا شك لكن ينبغي الإشادة به في ضوء التذكير أنه إنما وضع أصلاً لخدمة الفرنسيين وتمكينهم من توطيد أقدامهم في مصر عن طريق معرفة كل أمر وشأن كبير وصغير فيها، فالمشروع مشروع استعماريّ كريه بلا شك وإن كان يحمل أضواء التنوير والتقدم كماجرت العادة!!

وبعثة العلماء الفرنسيين «ما لبثت أن اندمجت في السياق وأصبحت أحد أسلحة الجيش، وتحول كثيرون من العلماء والفنانين والأكاديمين إلى عسكريين لا يحملون رتباً ولا يشاركون بشكل مباشر في القتال ولكنهم يقومون بدور مهم في خدمة المجهود الحربي، سواء

---

(١) «السجل الأسود لحملة نابليون على مصر»: مقالة للدكتور محمد عمارة في مجلة «المجتمع»: عدد ١٢٩٧.

كان يتصل بشكل مباشر بتخصصاتهم كالمهندسين ورسامي الخرائط الذين كلفوا تصميم ثكنات للجيش وإقامة أفران لصنع القنابل وابتكروا آلات لإطفاء الحرائق، أو كان لا يتصل بها كالقيام بالأعمال المالية والإدارية والإشراف على شؤون التموين، ووضع الخطط لزيادة موارد الحكومة المالية، وابتكار الوسائل الملائمة لفرض الغرامات على أغنياء المصريين وللتوصل إلى كنوزهم المخبوءة لمصادرتها لمصلحة الجمهورية، وهو انقلاب في مكانة العلماء جعلهم هدفاً لسخرية جنود الحملة فتعارفوا فيما بينهم على تسميتهم بالحمير. . .»[١].

٢ـ قيل إن من أعظم أعمالهم جلب المطبعة إلى مصر[٢]، «والحقيقة أن هذه المطبعة كانت خاصة بالفرنسيين وحدهم لطبع المنشورات، وإصدار الأوامر والتنبيهات التي يجب مراعاتها، ولم يطبع رجال الحملة كتاباً واحداً يفيد القارىء المصريّ، ويزعم زاعم أن المطبعة بقيت بعد خروج الحملة وصارت أساساً لمطبعة بولاق فيما بعد، وهو خطأ صريح؛ لأن مطبعة بولاق جُلبت إلى مصر في عهد محمد علي من إيطاليا على يد شاب عربيّ هو «نيقولا مسابكي ـ من أهل بيروت ـ إذ المطبعة الأولى قد حُملت مع النازحين[٣]، كما حملوا كل الآلات العلمية وما يُرجى الانتفاع به. . .».

ثم ذكر الباحث أن الكتب العربية قد طبعت قبل قدوم الحملة بقرنين ودلّل على هذا[٤].

---

(١) «المدافع لا تقرأ القرآن»: مقالة للأستاذ صلاح عيسى بمجلة «العربي»: عدد رقم ٤٧٤ : محرم ١٤١٩.

(٢) مجلة «الهلال»: عدد ذي الحجة سنة ١٤١٨ : ص٢٥، والكلام للأستاذ الدكتور محمد رجب البيومي لخصه من بحوث متعددة للأستاذ ساطع الحصري.

(٣) أي الفرنسيين الذين طردوا من مصر.

(٤) المصدر السابق: ص٢٦.

٣ـ قيل إن الحملة الفرنسية حلّت رموز اللغة الهيروغليفية القديمة باكتشافها حجر رشيد[١] الأثري. والجواب هو أن «الباحث الشهير شامبليون ولد في سنة ١٧٩٠، وكان في الثامنة من عمرة عند نزول الحملة الفرنسية إلى مصر، وقد رحلت بعد ثلاث سنوات دون أن تعلم شيئاً عن حقيقة هذا الحجر، ثم زار شامبليون مصر سنة ١٨٢٨ أي بعد مرور ربع قرن من رحيل الحملة ـ غير مأسوف عليها ـ فوجد الحجر في رشيد، ولم يتوصل إلى قراءته بمجرد رؤيته بل بعد دراسات مضنية تناولت خصائص لغات مختلفة مع مقارنة اللغة الهيروغليفية باللغة القبطية، ثم الرجوع إلى آثار قديمة في لغات أخرى حتى اهتدى إلى حلّ الرموز الحجريّة، فما علاقة الحملة إذاً بحجر رشيد، وقد رحلت قبل العثور عليه بربع قرن؟. . .»[٢].

٤ـ «ويذكر المتحدثون عن آثار الحملة الإيجابية أن لها جوانب مهمة أعظمها إنشاء الدواوين، وإشراك الأهلية في شؤون البلاد، وتعويدهم على الحياة النيابية، كذا يقولون. . .

ماذا كانت السلطة المخولة لهذه الدواوين؟ وكيف كان يعيّن أعضاؤها؟ وهل خدمت هذه الدواوين البلاد حقيقة؟ وهل استمرت وواصلت أعمالها؟. . . إن مهمة هذه الدواوين كانت تنفيذاً لأوامر الفرنسيين تحت مراقبة مندوبيهم وفقاً للتعليمات الصادرة من الحاكم، والغرض الأصلي من أعضاء الديوان هو الاستفادة من نفوذهم على الشعب لتهدأ ثورتهم بعد التأكد أولاً من أن أعضاء الديوان يدينون

---

(١) بلدة مصرية تقع في شمال شرقي مصر عند التقاء النيل بالبحر الأبيض.
(٢) المصدر السابق: ٢٧ ـ ٢٨.

بالولاء للمحتلين[1]، فكيف يقال إن في إنشاء هذه الدواوين تعويداً على الحياة النيابية، وهي بذلك من عوامل النهضة المصرية»[2].

وقد قيل غير ذلك من الأقوال الكثيرة عن فوائد الحملة هي نابعة عن جهل أو غفلة أو عمالة، ولقد رُد عليها ردود قاطعة[3].

خامساً: أسباب الهزيمة أمام الحملة الفرنسية:

قد تضافرت عدة عوامل أدت إلى هزيمة المصريين وحالت دون طرد الغزاة فوراً، منها:

١ـ ضعف المماليك عدداً وعُدة، مقارنة بالقوة الفرنسية المتقدمة نوعاً ما آنذاك.

٢ـ العشوائية في القتال، والجهل التام بأساليب الحرب الحديثة، وعدم تقدير قوة الغازي تقديراً سليماً.

٣ـ ظلم المماليك ـ حكام مصر ـ للشعب، وإنهاك قواه بالضرائب المتنوعة، وعدم الالتفات إلى إدخال مقومات الحضارة ـ التي شاعت في الدول المتقدمة ـ إلى مصر، كل ذلك أدى إلى ضعف المقاومة وتغلب الغزاة البغاة.

٤ـ ضعف الدولة العثمانية، وتأخر وصول نجدتها تأخراً أدى إلى

---

(١) هذا الكلام ليس بالضرورة أن يكون صحيحاً، فقد يتظاهر عدد من مشايخ الديوان بالولاء للحكومة الفرنسية تغليباً للمصلحة، وحقناً للدماء، وتهدئة للشعب الذي كان يعاقبه الفرنسيون معاقبة عظيمة كلما ثار عليهم أو اعترض كما سيظهر أثناء الكتاب، وانظر فهرست الفوائد ففيه كلام عن هذا الديوان.

(٢) المصدر السابق، ص٢٨.

(٣) المصدر السابق: ٢٨ ـ ٣١.

ورسوخ أقدام الغازي الفرنسيّ في مصر، ثم إن العثمانيين لما تحالفوا مع الإنجليز تمكنوا من طرد الفرنسيين فيما بعد.

٥ـ فقد النصرة الإسلامية:

غفلت أكثر الشعوب العربية والإسلامية المجاورة لمصر والبعيدة عنها، حيث لم تفزع لمساعدة ذلك الشعب الجريح وإسعافه ولعل خضوع أكثر تلك البلاد للسلطة العثمانية حال دون تقديم المساعدة المباشرة اعتماداً على سلطة الدولة العثمانية وتفويضاً للأمور إليها، على أنه كانت هناك بعض المحاولات شبه الفردية من الحجازيين خاصة كما سيطالع القارىء في ثنايا الكتاب، إن شاء الله تعالى.

٦ـ إرهاق الفرنسيين الأهالي، وجعلهم في حَلْقة مفرغة من الهم والانشغال، والتوصل إلى ذلك بأمرين:

الأول: إفقارهم وتجريد أموالهم:

قد فرض الفرنسيون الضرائب الباهظة على أهل البلد، وعاقبوهم أشد المعاقبة إن لم يستطيعوا دفعها، وإن حاول الشعب المسلم الأبيٌّ الثورة على المحتالين وإعلان الجهاد ضدهم ضوعفت الضرائب عليهم مضاعفات فاحشة، فأدى ذلك إلى إفقار الشعب وإذلاله، ولا تسأل عن الممارسات ـ البعيدة عن حقوق الإنسان ـ التي كان الفرنسيون يمارسونها أثناء جبايتهم الضرائب، ولقد سلطوا أفراداً من نصارى الأقباط أو نصارى الأروام[1] ليجتبوا كثيراً من تلك الضرائب.

الآخر: استعمال العنف مع الأهالي:

---

(١) أي نصارى العرب والمستعربين من غير المصريين.

كان نابليون يوصي قواده في أقاليم مصر أن يوغلوا في سفك دم المسلمين، وأن يتشبهوا به؛ إذ كان يقتل في القاهرة كل يوم خمسة أو ستة، ويأمر أن يطاف برؤوسهم في شوارع القاهرة ويقول: هذه الطريقة الوحيدة لإخضاع هؤلاء الناس، وعليكم أن توجهوا عنايتكم لتجريد البلاد قاطبة من السلاح[1].

ولتصور ذلك فليُعلم أن الفرنسيين قتلوا (ثلث مليون مصريّ، في وقت كان تعداد مصر لا يتجاوز ٢٤٦٠٠٠٠ نسمة، وهدموا الكثير من القرى التي ثارت جميعها ضد جيش الاحتلال والعديد من أحياء المدن التي تنافست في المقاومة للغزاة)[2].

٧ـ الخبرة الفرنسية الطويلة بديار الإسلام عموماً ومصر خصوصاً:

وذلك مكنهم من معرفة كل صغيرة وكبيرة في البلاد، وكان ذلك قبل دخولهم مصر بمدة مديدة، عن طريق جماعة متكاثرة من التجار والقناصل والسفراء والسائحين والداخلين في الإسلام ظاهراً وزوراً وبهتاناً بحيث «توافدوا على مصر في كل زيّ: زي طلبة العلم والمعرفة، وزي السائح المتجول في ربوعها شمالاً وجنوباً، وأخطرهم شأناً من لبس منهم زيّ أهل الإسلام وجاور في الأزهر، ولازم حضور دروس المشايخ الكبار، وصلى مع أهل الإسلام، وصام بصيامهم، وخالط جماهير طلبة الأزهر مسلماً لا يرتاب فيه أحد، ولا يعرف أحد حقيقته أو أصل بلاده التي جاء منها، وإنما هو مسلم كسائر المسلمين

---

(١) «رسالة في الطريق إلى ثقافتنا»: ١٠٠.

(٢) «السجل الأسود لحملة نابليون»: مقالة للدكتور محمد عمارة في مجلة «المجتمع»: عدد ١٢٩٧ : ٧/١/١٤١٩هـ.

الذين يجاورون في الأزهر من كل جنس ولون، وكثير من هؤلاء من أقام في دار الإسلام إقامة طويلة متمادية. كالمستشرق الداهية المحنك المستتر الخفيِّ الوَطْء «فانتور» الذي قضى أربعين سنة يتجول في ارض الإسلام، والتحق بعدئذ بالحملة الفرنسية فكان شيطانَ نابليون ومستشاره وخليله ونجيَّه الذي لا يفارقه في الحل والترحال، وكان كما قال الجبرتي لبيباً متبحراً يعرف اللغات التركية والعربية والرومية، والطلياني والفرنسي.

ومع أن الجبرتيّ لم يحدثنا عنهم قط في تاريخه قبل الحملة الفرنسية ـ لأنه كان غافلاً كل الغفلة ـ إلا أنه حدثنا عنهم زمن الحملة الفرنسية فقال:

«وكثير من الكتب الإسلامية مترجم بلغتهم. . . ورأيت بعضهم يحفظ سوراً من القرآن، ولهم تطلّع زائد للعلوم وأكثرها الرياضة ومعرفة اللغات، واجتهاد كبير في معرفة اللغة والمنطق، ويدأبون في ذلك الليل والنهار.

وهذا الذي حدثنا عنه الجبرتيّ بعد الحملة لا يتم لأحد إلا بعد أن يكون قد أطال الإقامة في دار الإسلام، وبعد التلقي الطويل عن المشايخ الكبار والصغار، ويعد الاندماج الكامل بأهل الإسلام، وإغفال الجبرتي الحديث عن أحد منهم قبل الحملة دليل على أن ذلك كله قد تم في خفاء وتستر لم يُتح لمثل الجبرتيّ أن ينتبه لهم، أو أن يعرف من أمر وجودهم في مصر شيئاً يحمله على التنبه. . .

ولم تكن إقامة المستشرقين في دار الإسلام في مصر لمجرد طلب العلم والمعرفة، بل كانوا يتجولون ويراقبون عمل الجاليات التي

حشدوها وتولوا تغذيتها وتربيتها على ما في قلوبهم من حمل هموم المسيحية الشمالية، وأيضاً كانت إقامتهم لمراقبة يقظة دار الإسلام التي أفزعتهم حتى أرسلوا نذيرهم الحاكم المروع للمسيحية الشمالية، وأيضاً لتكون خبرتهم بجماهير الأمة مجتمعة وبطوائفها المختلفة خبرة متغلغلة تفضي إلى خبرة بأفراد رجال بأعيانهم واحداً واحداً، معروفاً عندهم باسمه ومكانه وحركته، وبمواطن ضعفه وقوته، وبمكامن الهوى الميّال الذي يستجيب، والإدارة المصممة التي تمنع من الاستجابة، فهي خبرة مدروسة منظمة واضحة المعالم في ذهن الاستشراق»[1].

(١) «رسالة في الطريق إلى ثقافتنا»: ١٢٤ ـ ١٢٦.

مقدمة المصنف

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه ثقتي ورجائي

حمداً لمن جعل كلمة الذين كفروا السفلى، وكلمة الله هي العليا، وجعل الدولة العثمانية بهجة الدين والدنيا، وصلاة وسلاماً على من نُصر بالرعب والصَّبا[١]، وعلى آله وأصحابه الدّاحضين لشوكة كل قامع متمرد، والفائزين لبذل نفيس نفوسهم بكل نصر بديع متجدد.

أما بعد:

فإن وقوع وقائع الأيام وخطوبها، وحوادث الحادثات وكروبها، لم تزل من حين خلق الله العالم متتالية، وفي ضمن الليالي والأيام متوارية، وهي متنوعة إلى أنواع، وقد أودع الله في بعض خالص النفوس البشرية، والأرواح المجردة عن العلائق الجسمية، والشهوات النفسية معرفة بعض تلك الحوادث، إما بإلهام أو باكتساب ونظر في علم الأحكام، فبالنجم يهتدون، وبالنظر في ملكوت السموات والأرض يستدلون فيعرفون، من غير أن ينسب لتلك الآثار تأثيرات، وإنما هي أسباب عادية وعلامات.

---

(١) أي الريح؛ إشارة لما صنعه الله تعالى بالأحزاب من ضربهم بالريح الشديدة.

وإن من أعظم الدلائل على مارُميت به مصر، وحل به لأهلها تنوع البؤس والإصر[1] بحلول كفرة الفرنسيس، ووقوع هذا العذاب البئيس، حصول الخسوف الكليّ في شهر ذي الحجة[2].

[١] وقد كان هؤلآء الأقوام وأمثالهم، فمن لهم في الخروج مشارك، ولرَوْم الإفساد متربص متدارك، كل يريد الحلول بأرضها والتفيء بظلال خصْبها وروضها، فيرجع بخفيٍّ حُنَيْن، وتنقلبا أمنيته مَنِيّة وحَيْن[3]، ولَم تزل محميّة عن تطرق أيدي المفسدين، مصانة عن أنَ يطرق حِماها عصابة المعتدين، لا يطمع خارجيّ في الحلول بساحتها، ولا تحدثه نفسه بالتغلب على رئاستها، رهبة من سطوة حماتها، وأسُود غيْضاتها[4] الذين كانوا من قديم الزمان كالشَّجا[5] في حلق العدو، والحسام المجرّد في وجوههم، بحيث سلبهم الراحة والهدوّ، لا يتوجهون لجيش إلا هزموه، ولا يحاربهم متغلب إلاّ غلبوه، هؤلآء التاتار قد استولوا على كل الأرض، وأنزلوا دولة كل مَلك من شامخ عال إلى خفْض، كثيراً ما قهرتهم جند القاهرة، وباءوا عنَد توجههم إليها بصفة خاسرة، بحيث لَم تقم لهم بعد تلك الهزيمة

---

(١) قال المحقق الإصر: الذنب والثقل.

(٢) أي السابق على الغزو الفرنسي الذي كان في محرم عام ١٢١٣هـ تقريباً. كما سيأتي.

ومن المعلوم في شرعنا أن الشمس والقمر آيتان من آيات الله تعالى لا ينكسفان ولا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته، ولا لأجل أمر عظيم حادث في الكون، إنما لله الحكمة البالغة، وهو العليم الخبير مسبب الخسوف والكسوف لحكمة يعلمها هو سبحانه.

(٣) أي موت وهلاك.

(٤) قال المحقق: الغيضة: الأجمة، ومجتمع الشجر في مغيض ماء.

(٥) قال المحقق: الشجا: ما اعترض في الحلق من عظم ونحوه.

دولة، ولا تحقق منهم بعد تلك الغلبة صولة[1]، وذلك وقت أن كان جند أهل هذا القطر مستيقظين لسداد الثغور بأبطال الرجال.

[٢] وإن الدولة العثمانية أبقاها الله وأشادها، ووضع على أساس العظمة والعز عمادها، كانت وسّدَت أمور مصر لمن بها من الحكام، اعتماداً على شهرة شجاعتهم وحمايتهم السائرة بين الخاص والعام، [وأولئك الحكام] أيضاً اعتمدوا على سالف الشهرة، وركنوا إلى الدهر ولم يأمنوا غدره، فخربوا الثغور، وأشادوا القصور، واستبدلوا بأبطال الرجال ربات الخدور والحجال[2]، وبشجعان الفرسان حسان الغلمان، وتسابقوا مع الخيلاء والزَّهْو إلى ميدان كل خلاعة ولهو، لا يردون إلاّ موردَ مسرَّة، ولا يبالون بما أغفلوه من أسباب المضرة، غفل الدهر عنهم فناموا، وظفروا بأمانيهم فترددوا في جهالتهم وهاموا، حتى قلقت مصر منهم واستقالت، وللدولة العثمانية ـ أبقاها الله ـ شكت وقالت:

فليت لي بهم قوماً إذا ركبوا
شنوا الإغارةَ فرساناً وركباناً[3]

وما دروا أن العدو لهم بمرصاد، وأنه لا بد للدهر من يقظة يسترد بها ما وهب ويزداد، وما هكذا تحفظ البلاد، وتساس الرعايا والأجناد.

---

(١) أي غلبة ونصر.

(٢) قال المحقق: الحجال: جمع حجل وهو الخلخال.

(٣) قال المحقق: هذا البيت قائله قريط بن أنيف أحد بني العنبر من شعراء الحماسة، وهو شاعر إسلامي.
فرساناً: راكبي الخيول، وركباناً: راكبي الإبل.

قال صاحبنا الآتي ذكره[1]:

إنمـــا هـــذه البــلادُ لأقـــوام

حَمَـوهـا بـالصـارم المسلـول

وأرى دولـة الممـاليـك مـالـت

لضـروب اللـذات بـالتحصيـل

واغتنوا عن تجريد سيف ورمح

بقـــوام لَـــدن وطَـــرْف كحيـــل

[٣] ولما لم يقتفوا آثارَ مَن مضى من الدول، وأضاعوا ما تُعب في تأسيس قواعده الأول، تطرق الخلل لهذا القطر العظيم من كل جهة، وأضحت وجوه محاسنه بما ابتدعوه مشوّهة، فأصبح الغني بالمصادرات فقيراً، وعز بالتقرب إليهم من سفْلة السُّعاة كلُّ حقير، ورغبوا عن الفضائل فدَرَست[2]، ومالوا إلى سفاسف الأمور فراج سوقها وربحت، فقلت الفضلاء، وكثرت الجهال، وارتفع مقدار كل غبي في كل حال.

[٤] ولقد كانت مصر مجمع الفضلاء، ومركز النبلاء، وقطب دائرة الفصحاء، ومَنْشأ لبلغاء الكتاب والشعراء، جمعت ما تفرق في غيرها من المحاسن، وورد أهلها من موارد اللذّات شراباً غير آسن[3]، بها تخترع الصنائع البديعة، ويستنبط كل نادرة رفيعة.

---

(١) هو حسن بن محمد العطّار، وستأتي ترجمته.

(٢) أي انطمست وزالت.

(٣) قال المحقق: الماء الآسن: الراكد المتغير اللون والطعم والرائحة.

[٥] فلمّا دهت الفرنسيس ثغرها الخالي، ووقفت منه على طَلَلٍ[١] بالي، سهل عليهم الحال فاقتحموه، ودخلوا من باب الإقليم بدونَ أن يفتحوه، وتقاعدت العساكر المصرية عن التسارع لاستنقاذ الثغر، فعظم البلاء، وأخذ العدو يطوي بساط الأرض، حتى إذا التقى الجمعان، لم يسع القوم إلا الفرار في الفلاة، فكم تركوا من جنات وعيون وزروع، وأصبحوا مشتتين في أقطار الأرض لا يقر لهم لب ولا رُوع[٢]، وأناخت دولة الكفار بكَلْكَلها[٣] على هذا القطر العظيم، وانتشروا في أرجائه انتشار السم في جسد السليم.

[٦] فياله من خطب فظيع وحادث جَلَل شنيع، انمحقت به محاسنُ مصر الفريدة، وتخلخلت قواعد مملكتها العتيدة، فأصبحت مقهورة بعد أن كانت هي القاهرة، ومطموسة المحاسن بعد أن كانت محاسنها لكل قطر باهرة:

بلـــدةٌ أوقـــاتهـــا سَحَـــرٌ
وصَبـــاً فـــي ذيلـــه بَلَـــلُ

ونسيـــم عَـــرْفـــه أرَجٌ
وريـــاضٌ غُصْنهـــا ثَمـــلُ

ووجـــوهٌ كلهـــا غُـــرَر
وكـــلامٌ كلـــه مُثُـــل

(١) قال المحقق: الطلل: ما بقي من الآثار.
(٢) قال المحقق: الروع: القلب.
(٣) الكَلْكل: الصدر.

وماذا يبلغ إطرائي أو يستوعب عقد ثنائي بعد ذكر الله لها في آيات عديدة من كتابه، وتوصية النبي على أهلها لمعظم أصحابه، ولم تزل أحاديث فضائلها على ألسنة المتقدمين والمتأخرين تُتلى، وغرر محاسنها تتجدد في كل وقت فلا تبيد ولا تبلى، قد ملأت تلك الأحاديث أسفاراً، وعمرت تلك المحاسن بلاداً وأقطاراً، سحبت تلك المحاسنُ ذيل النسيان على غُوطة دمشق، وسُغْد[1] سمرقند، وشعْب بوَّان[2] وجرى حديث نيلها المكرَّر على كل لسَان، حتى كأن لم يكن ثَمَّ ذكر لسَيْحان وجَيْحان[3]، هذا وكم للناس في وصف منتزهاتها، وساحات مسراتها ، ما يجري في النفوس مجرى السُّلاَف[4] ويكون لرياض الأدب أبهى قطاف، كقول موسى بن عيسى الهاشمي[5]، أمير مصر يصف جزيرة الحبش، وقد خرج إلى الميدان الذي بطرف المقابر، فقال لمن معه: أتتأملون ما أرى؟

فقالوا: وما الذي يرى الأمير؟

فقال: أرى ميدان رهان، وجنان نخل، وبستان شجر، ومنازل

---

(١) قال المحقق: سُغْد سمرقند: بساتين نزهة وأماكن مثمرة بسمرقند.

(٢) قال المحقق: الشعب الطريق في الجبل، أو سيل الماء في الرياض، وشعب بوان بفارس(إحدى الجنان الأربع الدنيوية).

(٣) قال المحقق: المشهور: سيحون وجيحون نهران يصبان في بحر(آرال) بالاتحاد السوفيتي، وتقع على أحدهما(سيحون) مدينة طشقند وعلى الآخر(جيحون) مدينة بخارى.

(٤) أي الخمر.

(٥) أمير من آل العباس، كان جواداً عاقلاً، ولي الحرمين للمنصور والمهدي مدة طويلة ثم ولي له اليمن، وولي مصر للرشيد سنة ١٧١ وبقي فيها سنة ونصفاً ثم صرف عنها إلى ولاية الكوفة فدمشق، ثم أعيد إلى ولاية مصر مراراً، ثم صرف عنها وتوفي ببغداد سنة ١٨٣ رحمه الله تعالى. انظر «الأعلام»: ٣٢٦/٧.

سُكنى، وذِرْوةَ جبل، وجَبَّانة أموات، ونهراً عَجَّاجاً، وأرض زرع، ومراعي ماشية، ومَرتَع خيل، وساحل بحر، وصايد نهر، وقانص وَحْش، ومَلَّاح سفينة، وحادي إبل، ومفازَة رمل، وسهلاً، وجبلاً، فهذه ثمانية عشر منتزهاً في أقل من ميل.

[٧] ولقد كادت تعم الَرزية، وتصير القَضيةُ أندلسية[١]، لولا عناية من أيَّده الله بالنصر والتمكين وهو الملكُ الأعظم، والسلطان الأفخم غياثُ المسلمين، وملاذ المؤمنين، مالك رقاب الأمم، ملجأ العرب والعجم، حافظ ناموس الشريعة الغراء، بقوة سطوته، باسط بساط العدل والإحسان على كامل رعيته، مولانا السلطان الغازي سليم[٢]، له اللهم أدم ملكه، واجعل الدنيا بأسرها ملكهْ، ولا تدعْ له عدوّاً إلا قصمته، ولا مخالفاً إلا أهلكته، فتوجهت انتصاراً للإسلام عزيمته، وتسامت لاستنقاذ مصر من أيدي أولئك الأشرار همته، فوجه إليها بوجوه دولته وعساكر حمايته من كل رئيس بصير بأمور العواقب، مدبر الأمور على أوفق رأي صائب، فطن بقوانين السياسة، خبير بمراسيم الرياسة:

هم القوم إن قالوا أصابوا وإن دُعوا
أجـابـوا وإن أعطَوْا أصـابـوا وأجـزلـوا

---

(١) قال المحقق: أي تضيع البلاد في يد الفرنج كما ضاعت الأندلس.

(٢) هو سليم خان الثالث بن مصطفى الثالث. ولد سنة ١١٧٥، وتوفي سنة ١٢٠٣ وجوّ السياسة مكفهرّ والدولة في خطر عظيم لاتحاد الروس والنمساويين عليها، لكن الله خفف عن الدولة العثمانية بالثورة الفرنسية فانشغل النمساويون بها وصالحوا الدولة العثمانية، ثم صالح الروس العثمانيين بعد ذلك وجرت عدة فتن داخلية في عهد هذا السلطان الذي عزل بعد ذلك سنة ١٢٢٢، ثم مات سنة ١٢٢٣. وأقيم بعده مصطفى الرابع. انظر: «تاريخ الدولة العلية العثمانية»: ٣٦٣ ـ ٣٩٣.

لا يستطيـع الفـاعلـون فعـالهـم

وإن أحسنـوا فيمـا أتَـوْه وأجملـوا

عصابة بذلوا نفوسهم في تشييد الدين وتأييده، واقتناء الذكر الحسن وتخليده:

قـوم إذا لـم يُقْبَـلِ الحـقُّ منهـمُ

ويُمضَـوه عـاذوا بـالسيـوف القـواضـب

أولئك النجوم الطوالع، والغيوث الهوامع، تزينت بهم سماء الممالك، وأنارت بهم للرشاد مسالك، ومولانا الوزير - أيده الله - شمس تلك السماء، وأساس افتخار أولئك الرؤساء، صاحب السيف والقلم، مَعْدِن العلم والحكم، رافع علم الإسلام، مشيد الشريعة والأحكام:

إن عُـد أيـامُ اللقـاء فـإنمـا

يـومـاه يـومُ نـدى ويـومُ طِعـان

يكسـو الأسـرةَ والمنـابـرَ بهجـةً

ويـزَينهـا بفصـاحـة وبيـان

تمضـي أسنَّتُـه ويُسْفـر وجهـه

فـي الحـرب عنـد تغيـر الألـوان

وهو تاج المجاهدين الذين عليهم الحق قد أثنى، ووعدهم في مقابلة بيع نفوسهم في مرضاته بالحسنى، له المنة العظمى على المسلمين، باستنقاذهم من أسر الكفرة المعتدين، ورد النَّومَ إلى

أجفانهم، والأمنَ إلى أوطانهم، بعد أن سُلبوا نوماً وأمناً، واستبدلوا بالعز والسرور ذُلاً وحزناً.

إذا الـوزيـر لنـا جـادت يـداه نَـدىً

لـم يُحْمـد الأجـودان البحـرُ والمَطـر

وإن أضــاءت لنــا أنــوارُ غُــرَّتــه

تَضَــاءل النيــران الشمــسُ والقمــر

من لم يَبِتْ حذراً من خوف سَطْوته

لم يدر ما المزعجان السيفُ والحَذَر

ينـال بـالظـن مـا يَعْـي العَيـانُ بـه

والشَّــاهــدان عليــه العَيــنُ والأثَــرُ

كـأنــه زمـامُ الملــك فــي يــده

يـرى عـواقـب مـا يـأتـي ومـا يَـذَرُ

[٨] ثم من الاتفاقات التي يتفطن لها الأديب، وينقاد لحكمتها اللبيب، أن مصر إذا تشوهت محاسنها، وغُصَّت بشرار الدول مساكنها، لا يكون تطهيرها من أرجاسها وإعادة ما ذهب من بهجتها وإيناسها، إلاَّ بمن تسمى بهذا الاسم الشريف، أعني يوسف، فهو الذي بهذه المنقبة يُنْعت ويوصف، وهذا من السر البديع، الذي أودعه الله في المسمىً به، وارتباط الخصوصية بينه وبين إصلاح حال مصر، وإنه إذا حل بها دولة خاسرة في الغالب لا تُزال إلا بمن اسمه يوسف، ووجود الخصوصيات والارتباط بالمناسبة الطبيعية، والأسرار الفلكيةُ،

أمر شوهد منه بعضُه مالا يصلح معه أن ينكر باقيه؛ فإن الله قد جعل في كل شيء من المخلوقات خصوصيات في نفسه، وخصوصيات يقع الارتباط بها بينه وبين بعض الأشياء المشاكلة[١] له، حتى الألفاظ كما هو معلوم، لكن تلك الخصوصيات لا يطلَع عليها إلاَّ من أحاط بكل شيء علماً، وقد أطلعنا الله على بعضها، منها الخصوصية في هذا الاسم والشاهد على ذلك أن أول يوسف أصلح حال مصر، وبنى فيها إقليماً كبيراً، وهو إقليم الفيوم؛ ووضع مقياساً للنيل، وحفر الخليج المسمى الآن ببحر يوسف، ونصب الجسور، ودبر المعاش للناس في الجَدْب المتوالي سبع سنين، ولولا ذلك التدبير لهلكوا، وهو يوسف الصديق عليه السلام.

ويوسف صلاح الدين هو الذي استنقذها من الفواطم، وأزال البدعة، وأظهر السنة، وبنى قلعة الجبل، وجدد دولة الأكراد، التي هي من خير الدول.

وكذلك لما قدم المغفور له السلطان سليم الأكبر[٢] إلى مصر كان وزيره يوسف باشا، فتوفي قبل دخوله إلى مصر، فحزن السلطان عليه حزناً شديداً، حتى قال ما نصنع بمصر من غير يوسف.

ومولانا الوزير - أبقاه الله - هو ثالث مَن ملك مصر، ممن تسمى

---

(١) أي المماثلة.

(٢) هو سليم الأول الغازي ـ الملقب بـ«ياوز» أي القاطع ـ ابن السلطان بايزيد خان الثاني. تنازل له والده عن السلطنة سنة ٩١٨. حارب العجم في إيران وانتصر عليهم وتملك مدينة تبريز، وفتح مصر والشام، وأسقط دولة المماليك سنة ٩٢٢، وكان ميالاً إلى سفك الدماء. وتوفي سنة٩٢٦ وعمره ٥١ سنة، وتولى بعده ابنه السلطان سليمان القانونيّ. وانظر«تاريخ الدولة العلية العثمانية»: ١٨٨ـ١٩٧.

بهذا الاسم وانفرد بهذه الخصوصية لأنه أزال دولة الكفار، وجدد دولة الأخيار، وعادت به بهجة مصر بعد انمحاقها، وأشرقت شمس طلعته على آفاقها، بعد الفساد حالها، وردّ إليها بعد التشوه جمالها.

ولما استقر بمصر ركابه الشريف، وأعاد المسلمين بعد انخفاض رتبتهم لمقامهم المنيف، واستفادت بمقدمه البلاد، وابتهج بالسرور جميع العباد، فعاد لمصر بعد الهرم شبابُها، ورتعت في ميادين المسرة صحابها، وطلعت شمسها المنيرة بعد الظلام، وردَّ إليها ما استلبته من محاسنها الأيام:

وللنجـم مـن بعـد الـرجـوع استقـامـةٌ
وللبـــدر مـــن بعـــد الغـــروب طلـــوع

كان ذلك ـ ولله الحمد ـ مصداقَ قوله تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1].

ونعم العاقبة لمصر بحلول ركاب مولانا الوزير فيها، وطلوع نجوم عساكره في آفاق نواحيها، فابتهجت بهم مصر وأضاءت، وتاهت على سائر الأقاليم وباهت.

ولقد كنت سطرت ما وقع وحصل من الوقائع من ابتداء تملك الفرنسيس لأرض مصر، إلى أن دخلها مولانا الوزير في أوراق غير منظومة في سلك الاجتماع والاتفاق، وكثيراً ما كان يخطر ببالي ـ وإن لم يكن ذلك من شأن أمثالي ـ أن أجمع افتراقها وأكسبها بالترصيف اتساقها، ليكون ذلك تاريخاً مُطْلعاً اللّبيبَ على عجائب الأخبار، وغرائب الآثار، تذكرة بعدنا لكل جيل، وإحاطةً بهذا الخطب الجليل.

---

(١) قال المحقق: الآية ١٢٨: سورة الأعراف.

[٩] وكان ممن اعتنى أيضاً بجمع تلك الأخبار، ونقل غرائب هاتيك الآثار قطب الفضلاء، تاج النبلاء، ذو الذكاء المتوقد، والفهم المسترشد، الناظم الناثر، الآخذ من العلوم العقلية والأدبية بحظ وافر، صاحبنا العلامة حسن بن محمد الشهير بالعطار[١]، نظمنا الله وإياه في سلك الأخيار، فضممت ما نمقه مع بعض من منظومه ومنثوره بحسب المناسبة إلى هذا السِّفر لينتظم معنا في سلك حُسْن الذّكر، وسميناه **«مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس»**، وإنا لنرجو ممن اطلع عليه، وحل بمحل القبول لديه، أن لا ينسانا من صالح دعواته، وأن يُغْضي عما عثر عليه من هفواته.

شهر محرم سنة ١٢١٣

نزول الفرنسيين على الإسكندرية

[١٠] وأول شرح القضية أنه في يوم الأحد العاشر من شهر محرم الحرام افتتاح سنة ١٢١٣ ثلاثة عشر ومائتين وألف، وردت مصر مكاتبات على يد السعاة من ثغر الإسكندرية، مضمونها: أن في يوم

---

(١) قال المحقق: ولد بالقاهرة سنة ١١٨٠هـ(١٧٦٦م)، وكان أبوه عطاراً، فاشتغل، بتجارة أبيه ثم أحب العلم، حتى صار شيخاً للأزهر، وفي أيامه دخل الفرنسيون مصر، فاتصل بهم وأفاد منهم بعض الفنون الشائعة ببلادهم، ورحل إلى بلاد كثيرة منها الشام وهو أول من رأس تحرير الوقائع المصرية، وكان مع علمه كاتباً وشاعراً، بل يعد أبلغ أهل عصره، توفي وهو شيخ للأزهر سنة ١٢٥٠هـ(١٨٣٥م). راجع ترجمته«بالخطط التوفيقية» ج٤، ص٤٨، وفي «الأدب الحديث» ج١، لعمر الدسوقي، «وكنز الجوهر في تاريخ الأزهر» لسليمان الزياتي.

الخميس، ثامن الشهر المذكور حضر إلى الثغر عشر مراكب من مراكب الإنكليز ووقفت على البعد بحيث يرونهم أهل الثغر، وبعد قليل حضر خمسة عشر مركباً أخرى فانتظر أهل الثغر ما يريدون، وإذا بقايق صغير[1] واصل من عندهم، وفيه عشرة أنفار فوصلوا البر واجتمعوا بكبار البلد، والرئيس إذ ذاك فيها والمشار إليه بالإبرام والنقض السيد محمد كريم[2] فكلموهم واستخبروهم عن غرضهم، فأخبروا أنهم إنكليز حضروا للتفتيش عن الفرنسيس، لأنهم خرجوا بعمارة عظيمة[3]، يريدون جهة من الجهات، ولا ندري أين قصدهم فربما دهموكم، فلا تقدروا على دفعهم، ولا تتمكنوا من منعهم، فلم يقبل السيد محمد كريم منهم هذا القول، وظن أنها مكيدة، وجاوبوهم بكلام غليظ، فقالت رسل الإنكليز لهم: نحن نقف في البحر بمراكبنا محافظين على الثغر، لكن تمدونا بماء وزاد بثمنه، فلم يجيبوهم لذلك، وقالوا: هذه بلاد السلطان، وليس للفرنسيس ولا لغيرهم عليها سبيل فاذهبوا عنا، فعندما عادت رسل الإنكليز، وأقلعوا في البحر، ليمتاروا[4] من غير الإسكندرية، وليقضي الله أمراً كان مفعولاً.

---

(١) قارب.

(٢) من أهل الإسكندرية. كان في أول أمره قبانياً، وتقدم به نشاطه فتقلد أمر الديوان والجمارك بالثغر، ونفذت كلمة وأحكامه وتصدر لغالب الأمور. ولما نزلت الحملة الفرنسية في الإسكندرية يقودها نابليون قاومها محمد فاعتقله الجنرال كليبر، وأرسله إلى القاهرة لينظر نابليون في أمره وطلبت منه أموال للإفراج عنه إن قدمها في خلال اثنتي عشرة ساعة وإلا قتل، ومضت المدة ولم يأت بالمال، فأركبوه حماراً يحيط به جمع من العساكر، وطافوا به بطبولهم، ثم قتلوه رمياً بالرصاص، وقطعوا رأسه، وعلقوه ومعه مناد ينادي: هذا جزاء من يخالف الفرنسيس، وكان ذلك سنة١٢٠٣ رحمه الله تعالى وتقبله شهيداً. انظر: «الأعلام»: ٧/ ١٤.

(٣) أي السفن حربية كثيرة.

(٤) أي ليطلبوا الميرة، وهي الطعام.

وهذا تصرف غير حكيم من والي البلد خاصة أن الإنجليز سيقفون في البحر =

[١١] ثم إن أهل الثغر أرسلوا إلى كاشف البحيرة ليجمع العربان ويحضر لمحافظة الثغر، فلما قرئت هذه المكاتبات بمصر، وقع بها اللغط الكثير بين الناس، وتحدثوا بذلك فيما بينهم، وكثرت القالة، ولاحت لوائح الأراجيف.

ثم ورد في ثالث يوم بعد ورود المكاتيب الأول مكاتبات مضمونها أن المراكب التي وردت الثغر عادة راجعة، فاطمأن الناس، وبطل القيل والقال.

[١٢] وأما الأمراء فلم يهتموا بشيء من ذلك[1]، ولم يكترثوه اعتماداً على قوتهم، وزعمهم أنه إذا جاءت جميع الفرنج لا يقفون في مقابلتهم، وأنهم يحطمونهم بسنابك الخيول، ويحصدون رؤوسهم ببوارق السيوف.

[١٣] فلما كان يوم الأربعاء العشرون من الشهر المذكور وردت

بعيداً عن المدينة فلا خوف هنا من الخديعة.

(١) أي أمراء المماليك مراد بيك وإبراهيم بك، إذ كانا في غفلة شديدة وغرور عظيم؛ فقد حذر قنصل النمسا مراد بيك من احتمال غزو فرنسيّ فكان رد مراد ضاحكاً: «ماذا تريد من إخافتنا من الفرنسيين؟ أليسوا أشباه الخواجات الذين نراهم بيننا؟ إنه ليكفيني إذا نزلوا إلى سواحل مصر في مائة ألف من رجالهم أن أبعث للقائهم بعض صغار المماليك ليقطعوا رؤوسهم». أرأيت - أخي القارىء - هذا الغرور المهلك، والعجب أن القنصل النمساوي ـ نكايةً في فرنسا التي كانت تحارب بلاده - ألحّ على هذا القائد الغبي المغرور فجامله بأن أرسل إلى الإسكندرية قنطارين من البارود. انظر: «ودخلت الخيل الأزهر»: ١٥٨.
والعجب أن الفرنسيين كانوا على مستوى عال من التدريب وقوة العُدة والعدد ـ كما سيأتي في الهامش القادم ـ فلم يقابلهم المماليك إلا بستة آلاف مقاتل فقط وبسلاح بدائيّ، هذا في القاهرة، أما في الإسكندرية فلم يكد يقابلهم أي قوة مملوكية، ولم يقاتلهم إلا الشعب المسكين، وانظر: المصدر السابق: ١٥٩ ـ ١٦٠.

مكاتبات من الثغر ومن رشيد ودمنهور بأنه في يوم الاثنين ثامن عشرة، جاءت مراكب الفرنسيس كثيرة، فأرسوا في البحر[1]، وأرسلوا جماعة يطلبون القنصل وبعض أهل البلد، فنزلوا لهم.

وفي الليل تحولت مراكب جهة العجمي، وأنزلوا آلات الحرب والعساكر، فلم يشعر أهل الثغر في وقت الصباح، إلا والعساكر كالجراد المنتشر حول البلد، فعندها خرج أهل الثغر وما انضم إليهم من كاشف البحيرة والعربان المجتمعين معه، فلم يستطيعوا مدافعتهم،

---

(١) كان نابليون قد سار من ميناء طولون الفرنسيّ الجنوبيّ بجيش قوامه ٣٦ ألف مقاتل أغلبهم من العساكر المدربين في الحروب التي جرت بين فرنسا وإيطاليا، وبعشرة آلاف مقاتل بحريّ، وسار بثلاثين سفينة حربية كبيرة وقرابة خمسمائة مركب، وحمل معه ١٢٢ عالماً في مختلف العلوم والفنون ليدرسوا كيفية الاستفادة من القطر المصري وإخضاعه، وهذه قوة هائلة بمقاييس ذلك العصر بل بكل المقاييس. ثم إنه نزل على الإسكندرية فاحتلها، وترك بها كليبر قائداً عليها، وسار هو إلى القاهرة فقابله مراد بيك أمير المماليك عند مدينة شبرا خيت بالبحيرة فهزمه نابليون، ثم اتجه إلى إنبابة أمام القاهرة، وحصلت بينه وبين إبراهيم بيك ومراد بيك وأمراء المماليك واقعة الأهرام في ٧ صفر سنة ١٢١٣ فهُزم المماليك أمام المدافع الفرنسية، كما سيأتي في الصفحات القادمة إن شاء الله تعالى.
انظر: «تاريخ الدولة العلية العثمانية»: ٣٧٢ وما بعدها.
وكان نابليون ومن معه من الجيش قد خرجوا خفية حتى أن كليبر ـ خليفة نابليون في مصر ـ قال في مذكراته:
«كان أقل القليل من هذا الجيش الذين يعلمون وجهتهم الحقيقية، كانوا أقل من أربعين شخصاً أحيطوا علماً بالطريق الذي سنسلكه». انظر مقدمة نشرة «مظهر التقديس» بتعليق الأستاذ أحمد عبده: ٥٧.
وقد ذكر السفير العثماني في باريس أن حكومة الإدارة الفرنسية أخفت تحركات الجيش، ولما سأل السفير وزير الخارجية تاليران عن الاستعدادات القائمة ذكر له بأنهم يريدون غزو انجلترا: انظر مقال «المئوية الثانية للحملة الفرنسية على مصر»، جريدة الحياة: عدد رقم ١٢٩٢٣ في ٢٨ ربيع الأول ١٤١٩.

ولا أمكنتهم ممانعتهم، فانهزم كاشف البحيرة ومن معه من العربان، ورجع أهل الثغر إلى التترس في البيوت والحيطان، ودخلت الفرنج البلد وانبث فيها الكثير من ذلك العدد، كل ذلك وأهل البلد لهم بالرمي بالبنادق يدافعون، وعن أنفسهم وأهاليهم يقاتلون ويمانعون[1]، فلما أعياهم الحال، وعلموا أنهم مأخوذون بكل حال، وليس ثَمّ عند أهل البلد للقتال استعداد، أخلوا الأبراج من آلات الحرب والبارود.

ولكثرة العدو وغلبته طلب أهل الثغر الأمان، فأمنوهم ورفعوا عنهم القتال ومن حصونهم أنزلوهم، ونادى الفرنسيس بالأمان في البلد ورفع بنديراته[2] عليها، وطلب أهل الثغر وأعيانها، فحضروا بين يديه، فألزمهم بجمع السلاح وإحضاره[3]، وأن يضعوا الجوكار في صدروهم فوق ملبوسهم، والجوكار ثلاث قطع من الجوخ أو الحرير وغير ذلك، مدورة في قدر الريال، سوداً وحمراً وبيضاً[4]، يوضع بعضها فوق بعض، بحيث تكون كل دائرة أقل من التي تحتها، حتى

---

(١) كتب الجنرال جاك مينو ـ الذي تولى قيادة مصر بعد نابليون وكليبر ـ أن أهل الإسكندرية دافعوا عن بلادهم بشجاعة كبيرة وثبات عظيم وكتب أحد القادة الفرنسيين لوالديه يقول: «حين دُحر المدافعون على جميع الجوانب احتموا بإلههم ورسولهم فملأوا الجوامع، وذبح الرجال والنساء الكبار والصغار وحتى الأطفال...»: «ودخلت الخيل الأزهر»: ١٤١ ـ ١٤٢.

(٢) أي أعلامه.

(٣) يتملك المرء العجب عندما يعلم أن بالإسكندرية أربعة مدافع فقط صالحة للعمل، ولا يوجد بها مدفعيّ واحد يحسن التصويب، وحامية الإسكندرية ليس بها إلا قرابة ثلاثمائة من العساكر الإنكشارية غير المدربين، وكان فيها نصف برميل بارود!!: انظر «ودخلت الخيل الأزهر»: ١٤٠.

(٤) وذلك لأن هذه ألوان العلم الفرنسيّ، ولعل الجبرتي أراد بالأسود الكحليَّ؛ لأنه جزء من ألوان العلم وليس الأسود.

تظهر الألوان الثلاثة كالدوائر المحيط بعضها ببعض، وطلبوا الكُلَفَ والمال.

[١٤] ولما وردت هذه الأخبار مصر، حصل للناس انزعاج، وعوّل أكثرهم على الفرار والهجاج، وأما ما كان من حال الأمراء فإن إبراهيم بيك ركب لقصر العيني، وحضر عنده مراد بيك[١] من الجيزة، لأنه كان مقيماً بها، وحضروا بقية الأمراء والقاضي والعلماء وتكلموا في شأن هذا الأمر الذي دَهَم المسلمين، فاتفق الرأي على أنهم يرسلون مكاتبةً للدولة العلية بخبر هذه الحادثة، فأرسلها باشا مصر إذ ذاك، وهو بكير باشا[٢] على يد قاصد من جهة البر، ويجهزون عسكراً يكون كبيره مراد بيك، وانفض المجلس على ذلك.

[١٥] فأخذت العساكر في الاستعداد للسفر، وجمع مهمات الحرب، فمكثوا نحو خمسة أيام يجهزون الأقوات والبارود وغير ذلك من القِرَب والخيم، ومصر في كرب زائد، من هذا الأمر، ومما ورد عليهم من الخبر، فإن العساكر لم يكن عندهم استعداد لمثل هذا، ولم تسمح نفوسهم ببذل الأموال في هذه المهمات، فصاروا يصادرون الناس ويأخذون أغلب ما يحتاجونه بدون ثمن.

ثم ارتحل مراد بيك بعد صلاة الجمعة وبرز خيامه ووطاقه[٣] إلى الجسر الأسود، فمكث به نحو يومين، حتى تكامل ما معه من

---

(١) هذان الاثنان هما أمراء مصر المماليك الحاكمان تحت الوالي العثماني. وستأتي ترجمتهما بالتفصيل، انظر فقرة [٢٩٩] وما بعدها.

(٢) هو الوالي العثماني المعين حاكماً على مصر.

(٣) الوطاق: الخيمة أو المعسكر المكون من خيام، وانظر «تأصيل ماورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل»: ١٩٨.

العسكر، وهم صناجقة[1]، وعلي باشا الطربلسيّ وناصوح باشا[2]، فإنهما كانا من أخصّائه ومقيمين معه بالجيزة، وأخذ معه عدة كثيرة من المدافع والبارود، وسافر في البرّ مع العساكر الخيالة.

ولما ارتحل من الجسر الأسود، أرسل إلى مصر يأمر بعمل سلسلة من الحديد في غاية التُخن والمتانة، طولها مائة وثلاثون ذراعاً، تنصب عند بوغاز رشيد عند برج مغيزل، من البر الشرقي للغربي، لتمنع من عبور مراكب الفرنسيس لبحر النيل، وذلك بإشارة علي باشا، وأن يعمل عندها جسر من المراكب، ويعمل عندها متاريس ومدافع، ظناً منهم أن الفرنج لا يقدرون على مقابلتهم في البر، وأنهم يعبرون بالمراكب في بحر النيل ويقاتلونهم وهم في المراكب، وأنهم يصابرونهم ويطاولونهم في القتال، حتى تأتيهم النجدة.

وكان الأمر بخلاف ذلك، فإن الفرنسيس عندما ملكوا إسكندرية تجهزوا سريعاً للتوجه إلى مصر من جهة البر، بحيث إنهم التقوا مع مراد بيك عند الرحمانية، كما سيأتي.

[١٦] وفي أثناء خروج مراد بيك بالعساكر وسفره، بدت الوحشة في الأسواق وكثر الهَرْج بين الناس والإرجاف، وانقطعت الطرق وأخذت الحرامية في كل ليلة تطرق أطراف البلد، وتنقطع الطرق من المغرب، فلا تكاد تجد أحداً يمشي، فنادى الأغا والوالي بفتح الأسواق والقهاوي ليلاً، وتعليق القناديل على البيوت والدكاكين، وذلك لأمرين: الأول إذهاب الوحشة من القلوب وحصول الاستئناس،

---

(١) أي أمراء العساكر.

(٢) لم أعثر لهما على ترجمة.

والثاني الخوف من الدخيل في البلد.

[١٧] وفي يوم الاثنين ٢٥ وردت الأخبار بأن الفرنسيس وصلوا إلى دمنهور ورشيد، وخرج معظم أهل تلك البلاد على وجوههم، فذهبوا إلى فُوا[١] ونواحيها، والبعض أقام ببلدة وطلب الأمان فأمن.

[١٨] وقد كانت الفرنسيس حين حلولهم بالإسكندرية كتبوا مكتوباً وطبعوه وأرسلوا ضمنه نسخاً إلى البلاد التي يقدمون عليها تطميناً لهم، ومكيدة لئلا تعصى البلاد وتحاربهم، فأوهموهم فيه أنهم قدموا من طرف السلطان، وأنهم جاءوا ليزيلوا عنهم الظلم، ووصل هذا المكتوب مع جملة من الأسارى الذين وجدوهم بمالطة، فإنهم أحضروهم معهم، وقبل الحرب التي وقعت بإنبابة بيوم أرسلوا هؤلاء الأسارى في مراكب لبولاق ومعهم عدة نسخ من هذا المكتوب، ومعهم جواسيس من كفار مالطة متزيين بزيّ الأسارى، لأن كفار مالطة يعرفون العربي، ويتكلمون بلغة المغاربة، فلا يكادون يتمايزون عن الأسارى، فكانت هذه أيضاً من المكائد الحربية، حيث أرسلوا الأسارى الذين معهم لمن ببولاق توصلاً لإخفاء الجواسيس فيهم، وليقع في أوهام الناس أنهم لا يأسرون أحداً لأنهم قد خلصوا الأسارى، وصارت الجواسيس الذين على هيئة الأسارى من المالطية توسوس للناس وتحل عزائمهم عن القتال، ثم في يوم الحرب خَفَى الكثير من هؤلاء الأسارى فلا يدري أحد أين ذهب، وما ذهب في الحقيقة إلا إلى الفرنسيس ليخبرهم بما شاهد:

[١٩] ونص المكتوب المرسل:

---

(١) بلدة على شاطىء النيل قرب رشيد: «معجم البلدان»: ٤/ ٢٨٠.

بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلا الله لا ولد له[١]، ولا شريك في ملكه، من طرف الجمهور الفرنساوي المبني على أساس الحرية والتسوية، السر عسكر الكبير[٢] بونابارته[٣] أمير الجيوش الفرنساوية يعرف أهالي مصر جميعهم أنه من زمان مديد السناجق الذين يتسلطنوا في البلاد المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار في حق الملة الفرنساوية ويظلمون تجارها بأنواع البلص[٤] والتعدي، فحضر الآن ساعة عقوبتهم.

---

(١) هذا دجل وكذب وادعاء من نابليون، وهو كان مبعوثاً من قبل الأمة الفرنسية النصرانية، فكيف يقول هذا ويدعيه إلا من باب الدجل والكذب، وهو نفسه قد أقر بأنه كان يكذب ويدّعي؛ إنه قال بعد خروج حملته وفشلها ـ عن منشوره هذا بأنه «قطعة من الدجل ولكنه دجل من أعلى طراز، وأنه على الإنسان أن يصطنع الدجل في هذه الدنيا لأنه السبيل الوحيد إلى النجاح»: انظر: «ودخلت الخيل الأزهر» ١٤٥-١٤٦.

(٢) أي القائد العام للمعسكر.

(٣) كان نابليون قائداً عسكرياً ناجحاً، وقد توج فتوحاته بغزو مصر بعد أن نجح في غزو إيطاليا وغيرها من بلاد أوربا التي كانت تأنُّ من جبروته وظلمه، وقد تولى الحكم في فرنسا بعد سقوط الملكية حكومة الإدارة التي تكونت من خمسة أشخاص، واستطاع نابليون إقناع تلك الحكومة بغزو مصر، ثم إنه بعد أن غزا مصر هرب منها وتوجه إلى فرنسا وأصبح ـ بعد حوادث عديدة ـ امبراطوراً عليها، لكنه لشدة تهوره تسبب في سقوط فرنسا بيد أعدائها، ونفي بعد ذلك إلى جزيرة سانت هيلانه ليموت فيها منفياً طريداً.

(٤) أي الرشاوي.

هذا وقد حرّض كثير من السياسيين والتجار وأرباب المصالح الفرنسيين حكومتهم عدة مرار على غزو مصر، وكان التجار الفرنسيون متضايقين جداً من سوء معاملة المماليك لهم، بل إن تاجراً فرنسياً يُدعى «مجالون» كان قد أقام بمصر ثلاثين سنة!! قد حرض حكومته على غزو مصر، بل ذهب إلى فرنسا لزيادة التحريض شاكياً من سوء معاملة المماليك فاستجابت الحكومة وأرسلت الحملة بعد سنة من قدوم «مجالون» إلى فرنسا: انظر «رسالة في الطريق إلى ثقافتنا»: ١١٣ ـ ١١٦.

[٢٠] واحسرتا من مدة عصور طويلة هذه الزمرة المماليك المجلوبين من بلاد الآبازا[١] والكرجستان يفسدون في الإقليم الأحسن الذي لا يوجد في كرة الأرض كلها [مثله]، فأما رب العالمين القادر على كل شيء قد حتم انقضاء دولتهم.

يا أيها المصريون: قد يقولون لكم إنني ما نزلت في هذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم، فذلك كذب صريح فلا تصدقوه، وقولوا للمفترين: إنني ما قدمت إليكم إلا لكيما أخلص دينكم وحقكم من يد الظالمين، وإنني أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى، وأحترم نبيه محمد، والقرآن العظيم، وقولوا أيضاً: إن جميع الناس متساوون عند الله، وإن الشيء الذي يفرقهم من بعضهم بعضاً فهو العقل والفضائل والعلوم فقط[٢].

والمماليك ما العقل والفضائل والمعرفة التي تميزهم عن الآخرين؟ ويستوجب أنهم يتملكون وحدهم كُلما يحلو به الحياة الدنيا، حيثما يوجد أرض مخصبة فهي مختصة للمماليك، والجواري الأجمل، والخيل الأحسن، والمساكن الأشهى فهذا كله لهم خالصاً، إن كانت الأرض المصرية التزام المماليك فليرونا الحجة التي كتبها لهم رب العالمين، هو رؤوف وعادل على البشر تعالى، من اليوم فصاعداً لا يستثنى أحد من أهالي مصر عن الدخول في المناصب السامية، وعن اكتساب المراتب العالية، فالعقلاء والفضلاء والعلماء بينهم سيدبرون الأمور، وبذلك يصلح حال الأمة كلها، سابقاً في

---

(١) أي بلاد الأباظة، وهي أبخازيا.
(٢) كذب المفتري فالدين هو المميز والمقياس الصحيح.

الأمور المصرية كانت المدن العظيمة والخليجات الواسعة والمتجر المتكاثر، وما أزال ذلك كله إلا الطمع وظلم المماليك[1].

أيّها القضاة والمشايخ والأئمة وأعيان البلد: قولوا لأمتكم إن الفرنساوية هم أيضاً مسلمون خالصون، وإثباتاً لذلك قد نزلوا في رومية الكبرى وخربوا فيها كرسي البابا، الذي كان يحث دائماً النصارى على محاربة الإسلام، ثم قصدوا جزيرة مالطة، وطردوا منها الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين، ومع ذلك الفرنساوية في كل وقت من الأوقات صاروا المحبين الأخلصين لحضرة السلطان العُثْمَلّي، وأعداء أعدائه، أدام الله ملكه، وبالمقلوب المماليك امتنعوا من إطاعة السلطان غير ممتثلين لأمره، فما أطاعوا أصلاً إلا لطمع أنفسهم.

طوبى ثم طوبى لأهالي مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير، فيصلح أمرهم ويعلى مراتبهم، طوبى أيضاً للذين يقعدون في مساكنهم غير مائلين لأحد من الفريقين المحاربين، لكن الويل ثم الويل للذين يتحدون مع المماليك ويساعدونهم في الحرب علينا، فما يجدون طريق الخلاص، ولا يبقى منهم أثر.

المادة الأولى: جميع القرى الواقعة في دائرة قريبة بثلاث ساعات عن المواضع التي يمر بها العسكر الفرنساوي، فواجب عليها أن ترسل السرعسكر وكلاء من عندها لكيما يُعَرِّفون المشار إليها أنهم أطاعوا وأنهم نصبوا السنجاق الفرنساوي الذي هو أبيض وكحلي وأحمر.

---

(١) وهذه كلمة حق أريد بها باطل.

[٢١] المادة الثانية: كل قرية تقوم على العسكر الفرنساويّ تحرق بالنار.

المادة الثالثة: كل قرية التي تطيع للمعسكر الفرنساويّ الواجب عليها نصب السنجاق الفرنساوي(١)، وأيضاً نصب سنجاق السلطان العثمنلي(٢)، دام بقاه(٣).

المادة الرابعة: المشايخ في كل بلد ليختموا(٤) حالاً جميع

---

(١) أي العلم الفرنسيّ.
(٢) وذلك خداعاً منهم للشعب.
(٣) لم تكن مهمة الفرنسيين سهلة فى القرى والمدن خارج القاهرة والإسكندرية، فقد أبلى أهل القرى والمدن بلاءاً حسن جداً، وشارك الرجال والنساء والأطفال في مقاومة الفرنسيين مقاومة بطولية، وتعرضوا لحرق قراهم ومدنهم ومساجدهم ومزروعاتهم لكنهم صمدوا صموداً رائعاً، وإليك أخي القارىء بعض الأمثلة:
«ثار أهل القريتين: غمرين وتتا شمالي منوف يوم ١٣ أغسطس سنة ١٧٩٨، وحملوا السلاح، وأغلقوا الأبواب في وجه الجنود، فحاول الجنرال فوجيير عبثاً أن يكره البلدين على فتح أبوابها فلم يستطع، ولما أعيته الحيلة طلب المدد من الجنرال زايوشك الذي كان مرابطاً بمنوف فأمده بقوة من جنوده، وتعاونت القوتان على إخضاع القريتين بعدما دافع أهلها دفاعاً شديداً، واشتد القتال خاصة في غمرين، واشتبك الأهالي والجنود في طرقاتها فانهمرت فيها الدماء وغطيت الأرض بجثث القتلى، قال الكابتن فيروس يصف هذا الدفاع: جاءنا المدد، وتعاونت الكتيبتان على مهاجمة قرية غمرين فأخذناها عنوة بعد قتال ساعتين، وقتلنا من الأعداء «أي الأهالي المسلمين من أربعمائة إلى خمسمائة بينهم عدد من النساء كن يهاجمن جنودنا بكل بسالة وإقدام»: «ودخلت الخيل الأزهر»: ١٩٦.
وقال الجنرال داناس يصف إحدى المعارك:
«وقد رأيت بنفسي جماعة من الفلاحين ليس بيدهم سلاح سوى العصي يهاجموننا بحماسة فيستشهدون بين أسنة رماحنا»: المصدر السابق: ١٩٩.
(٤) قال المحقق: يريد يحتفظون عليها ويضعونها تحت الحراسة.

الأرزاق والبيوت والأملاك بتاع المماليك وعليهم الاجتهاد الزايد لكي لا يضيع أدنى شيء منها.

المادة الخامسة: الواجب على المشايخ والقضاة والأئمة أنهم يلازمون وظائفهم، وعلى كل واحد من أهل البلد أن يبقى في مسكنه مطمئنا[1]، وكذلك تكون الصرة قائمة في الجوامع على العادة، والمصريون بأجمعهم ليشكروا فضل الله سبحانه وتعالى من انقراض دولة المماليك قائلين بصوت عال: أدام الله إجلال العثمنلي، أدام الله إجلال العسكر الفرنساويّ، لعن الله المماليك، وأصلح حال الأمة المصرية.

تحريراً بمعسكر إسكندرية في ١٣ من شهر مسيدور[2] سنة ١٢١٣ من إقامة الجمهور الفرنساوي يعني في أواخر شهر محرم، انتهى منقولاً بالحرف[3].

تفسير بعض ما أودعَه هذا المكتوبُ من الكلمات المفككة، والتراكيب الملعبكة.

[٢٣] قوله: «بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلا الله، لا ولد له

---

(١) انظر كلام الجبرتي على هذا اللحن في هذا الموضع فهو لطيف للغاية، انظر فقرة [٣٤].

(٢) هذا اسم شهر فرنسيّ، فقد اخترع الفرنسيون بعد ثورتهم شهوراً كان هذا منها، وهو عاشر الأشهر، ويوافق ٢٠ يونيو إلى ١٩ يوليو، هذا وقد ألغيت أشهر الثورة وعاد الفرنسيون إلى التقويم الجريجوري النصراني المشهور، وكان ذلك سنة ١٨٠٦.

(٣) أوردت جُلَّ الرساله ـ على ما فيها من ركاكة وغثاء ـ ولم أصلح منها شيئاً إلا ما لابد منه لفهم المكتوب، وكذلك صنعت فيما سطره الجبرتي في كتابه هذا فلم أصلح إلا ما لابد من إصلاحه ليستقيم للقارىء فهم المكتوب؛ كما بينت ذلك في المقدمة.

ولا شريك في ملكه» في ذكر هذه الجمل الثلاث إشارة إلى أنهم موافقون الملل الثلاث، [وهم] مخالفون لهم بل وبجميع الملل: موافقون للمسلمين في ذكر التسمية ونفي الولد والشريك، ومخالفون لهم في عدم الإتيان بالشهادتين وجحد الرسالة، ورفض الأقوال والأفعال الشرعية المعلومة من الدين بالضرورة، وموافقون للنصارى في غالب أقوالهم وأفعالهم، ومخالفون لهم في القول بالتثليث، وجحد الرسالة أيضاً، ورفض ديانتهم وقتل القسوس، وهدم الكنائس، وموافقون لليهود في التوحيد، فإن التوحيد لا تقوله اليهود بالتثليث، وإنما هم مُجَسِّمة مخالفون لهم في ديانتهم، والذي تحرر من عقايدهم أنهم لا يقفون على دين، ولا يتفقون على ملة، فكل واحد منهم ينحو ديناً، يخترعه بتحسين عقله، ومنهم الباقي على نصرانيته المتكتم لها، وفيهم فرق من اليهود الحقيقيين لكن كل ذي دين منهم سائر مُصِرٌّ عليه، موافق للجمهور في ضلالهم المصرّين عليه.

[٢٤] قوله: «إنني ما قدمت إليكم إلا لكيما أخلص حقكم من يد الظالمين» هذه أول كذبة ابتدرها وفرية ابتكرها، ثم تَرَقَّى إلى ما هو أعظم من ذلك، رماه الله في المهالك.

[٢٥] قوله: «وإنني أكثر من المماليك أعبد الله إلى آخره»، لا شك أن هذا خَبَلٌ في العقل، وغلو في الجهل، أي عبادة مع كفر غطى على فؤاده، وحجبه عن الوصول إلى طريق رشاده، وفي الكلام تقديم وتأخير: والأصل وإنني أعبد الله أكثر من المماليك، ويحتمل أن لا تقديم ولا تأخير. وأن المعنى إنني أكثر من المماليك عدداً فحذف التمييز، ويكون قوله أعبد الله كلام مستأنف، وكذبة مستقلة.

[٢٦] قوله: «وأحترم نبيه» معطوف على ما قبله من عطف الكذب على الكذب، لأنه لو احترمه لآمن به وصدقه، واحترم أمته.

[٢٧] قوله: «والقرآن العظيم» معطوف على نبيه أي وأحترم القرآن العظيم، وهذا كذب أيضاً، فإن احترام القرآن تعظيمه، وتعظيمه بالتصديق بما فيه، وهو من آيات النبي الدالة على صدقه، وأنه نبي آخر الزمان، وأن أمته أشرف الأمم، وهؤلاء لجميع ذلك نافون، وفيما عددوه كاذبون.

[٢٨] وأما التعظيم الحسي فهو فرض مأمور به بقوله تعالى: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾[١] فيحرم على المحدِث والجُنب مَس آية من القرآن، وهؤلاء قد شوهد الكثير منهم يتغوط ويمسح بأوراق المصاحف، ويرميها ملطخة في الطريق، ومحل النجاسات، فإنهم لا يستنجون بالماء ألبتة، وجليلهم وحقيرهم يستعمل ما وجدوه من الأوراق، ودخل بعض الناس داراً من دورهم فوجد باب المهنة[٢] مسنوداً بمصحف كبير، فأخذه فوجده ختمة شريفة مكلفة، فتأثر وأغتمّ، وطلب أن يفتديه منهم بدراهم، فامتنع صاحب الدار من بيعه إلا بمبلغ كذا، فسعى الرجل حتى استرضى خاطره، واستنقذ الختمة، وهم في كل ذلك يضحكون ويعدون الرجل كأنه مجنون، فأين أعزك الله التعظيم الذي يزعمه هذا المفتري؟

[٢٩] قوله: «إن جميع الناس متساوون عند الله تعالى» هذا كذب وجهل وحماقة، كيف وقد فضل الله بعضهم على بعض، وشهد بذلك أهل السموات والأرض.

---

(١) قال المحقق: الآية ٧٩ سورة الواقعة.

(٢) قال المحقق: بيت الخلاء.

قوله: «الحجة التي كتبها الله لهم» هذا من الجهل والكفر بمكان، فإن الله لا يملّك الناس شيئاً بحجة يكتبها لهم، غايته أن الناس يتداولون البلاد عن أسيادهم، كهؤلاء، أو عن أسلافهم، أو بالغلبة والقهر.

[٣٠] قوله: «وخربوا كراسي البابا» بهذه الفعلة خالفوا النصارى والمسلمين، ولم يتمسكوا من الأديان بدين، فتراهم دهرية معطلين، وللمعاد والحشر منكرون، وللنبوة والرسالة جاحدون، ويقولون بقدم العالم وتأثير العلْوية(١) والحوادث الكونية، بالحركات الدورية، وربما اعتقدوا تناسخ الأرواح إلى غيرها من الأشباح، ومثل ذلك من الخبالات، وأنواع الضلالات، وعقيدتهم السالكون فيها تحكيمُ العقل، وما تستحسنه النفوس، بحسب الشهوات.

[٣١] ولا يبالون بكشف العورات، مع قبحه في العقل والنقل، فمتى دعت أحدهم الحاجة قضاها في أي مكان اتفق، ولو بمرأى من الناس، ويذهب كما هو من غير استنجاء ولا استجمار، وتارة يمسح المحل بما يجده ولو ورقة مكتوبة.

[٣٢] ويطؤون كلما تيسر لهم من النساء.

[٣٣] ويحلقون لحاهم وشواربهم معاً، ومنهم من يبقي شعره لعارضيه فقط، ولا يحلقون رؤوسهم، ولا عانتهم، ويخلطون في مأكولهم ومشروبهم، ولا يخلعون نعالاتهم أبداً، ويطؤون بها على الفرش الثمينة، ويمخطون ويبصقون على الفراش، ويمسحونه بالمداس.

[٣٤] قوله: «مطمئن» صوابه مطمئناً لأنه حال، فعدلوه إلى الرفع

---

(١) قال المحقق: أي الكواكب والنجوم.

في غير موضعه إشارة إلى أن رفعتهم باستملاك مصر غلطة من الدهر، وأنهم في تعسهم مخفوضون، لا ينتصبون ولا يرتفعون، ثم ليست هذه أول لحنة، فإن جميع كلمه ملحون، ومنشئه ملعون، عجل الله لهم الوبال والنكال، وأخرس منهم عضو المقال، وفرق جمعهم، وشتت شملهم، وأفسد رأيهم، وأخمد أنفاسهم، وهدم أساسهم، إنه على ذلك قدير، وبالإجابة جدير.

شهر صفر

نزول الفرنسيين على القاهرة

[٣٥] وفي يوم الأحد غرة شهر صفر وردت الأخبار بأنه في يوم الجمعة التاسع والعشرين من شهر محرم التقى العسكر المصري مع الفرنسيس فلم تكن إلا ساعة، وانهزم مراد بيك ومن معه، ولم يقع قتال صحيح، وإنما هي مناوشة من طلائع العسكرين، بحيث لم يُقتل إلا القليل جداً من الفريقين، واحترقت مراكب مراد بيك بما فيها من الجبخانة[١] والآلات الحربية، واحترق بها رئيس الطوبجية[٢] خليل الجردلي، وكان قد قاتل في البحر قتالاً عجيباً هو ومن انضم إليه من الغليونجية[٣]، وبقية العسكر المشاة، الذين في المراكب مع مراكب

---

(١) أي الذخيرة، والمعنى في الأصل بيت الذخيرة ولكن الجبرتي يستعملها بمعنى الذخيرة نفسها، وانظر «تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل»: ٦٥.

(٢) الطوبجية هم المدفعجية أي القائمون بأمر هذه المدافع، انظر المصدر السابق: ١٤٣.

(٣) الغليون سفينة حربية ضخمة، والغليونجية هم القائمون بأمر هذه الغلايين، انظر =

الفرنسيس، وأقدم إقدام الأسد، فَقدَّر الله أن علقت نار بالقلع فنزل البعض منها إلى البارود الذي في المراكب فاحترقت، فمات هو ومن بالمراكب من المحاربين، فلما عاين ذلك مراد بيك ولى منهزماً، وترك الأثقال والمدافع، وتبعته عساكره والمشاة نزلت في المراكب، وانفصل الفريقان بدون طائل.

[٣٦] وقد كانت العلماء عند توجه مراد بيك للقتال، تجتمع في الأزهر كل يوم لقراءة البخاري وغيره من الأذكار والدعوات. وكذلك مشايخ فقراء الأحمدية والسعدية والرفاعية وغيرهم من مشايخ الفقراء وأرباب الأشاير(١) كل يوم يذهبون إلى الأزهر فيجلسون للأذكار والدعاء. وتجتمع أطفال الكتاتيب للدعاء وتلاوة اسمه تعالى «لطيف»، وكل هذا حصل بسببه النفع العظيم، فهو وإن لم يدفع دخول مصر الفرنسيس لكونه أمراً مقضياً محتماً لا يرد بالدعاء، لكن وقع اللطف الجزيل بسبب هذه الدعوات واجتماع القلوب بمجالس الذكر والاستغفار، وآثار اللطف التي حصلت مشاهَدَة لا تنكر، ولله الحمد(٢).

[٣٧] ولما وصل خبر الهزيمة لمصر، انزعجت الناس انزعاجاً شديداً، وركب إبراهيم بيك لساحل بولاق، وحضر الباشا والعلماء ورءوس الناس وأعملوا رأيهم في هذا الحادث العظيم، فأجمع الرأي

= المصدر السابق: ١٥٥ ـ ١٥٦.

(١) قال المحقق: هم رجال الطرق الصوفية ذو الأعلام الخاصة بهم، ويطلقون على العَلَم إشارة.

(٢) هذا توجيه حسن من الجبرتي لما صنعه بعض الأفاضل، ولكن الأمة لاتنصر بذلك فقط بل لا بد من استعداد عظيم، وعُدة وعدد مناسبين لقوة الغازي، قال الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ...﴾ الآية، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

على عمل متاريس من بولاق إلى شبرا، ويتولى الإقامة ببر بولاق إبراهيم بيك وأمراؤه.

وفي يوم الاثنين حضر مراد بيك إلى بر إنبابة، وشرع في عمل متاريس هنالك، وتولى ذلك هو وصناجقه وأمراؤه وجماعة من خُشْداشينه(١)، واحتفل في ترتيب ذلك وتنظيمه بنفسه، هو وعلي باشا الطرابلسي ونصوح باشا، وأحضر المراكب الكبار والغلايين(٢) التي أنشأها بالجيزة وأوقفها على ساحل إنبابة، وأشحنها بالعساكر والمدافع، فصار البر الغربي والشرقي مملوئين بالعساكر والمتاريس والخيالة والمشاة.

[٣٨] ومع ذلك فقلوب الأمراء لم تطمئن بذلك، فإنهم من حين وصول الخبر لهم من الإسكندرية شرعوا في نقل أمتعتهم من البيوت الكبار المشهورة المعروفة للبيوت الصغار التي لا يعرفها أحد، وصاروا طول الليل في نقل الأمتعة وتوزيعها عند معارفهم وثقاتهم، وإرسال البعض منها لبلاد الأرياف، وأخذوا أيضاً في الاستحضار لدواب الشيل وأدوات السفر، وما ذاك إلا للتعويل على الهزيمة، فلما رأى أهل مصر ذلك منهم داخلهم الخوف الكثير، والفزع، بحيث أن الأغنياء منهم استعدوا أيضاً للهروب، ولولا أن الأمراء منعوهم من ذلك لما بقي من الأغنياء ومَنْ له قدرة على الهروب بمصر منهم أحد قبل دخول الفرنسيس بأيام، لكن قد منع إبراهيم بيك الناس من النُّقلة من مصر، وهدد من أراد فعل ذلك منهم.

---

(١) هذه الكلمة «خشداش» تطلق على المملوك ينشأ مع مملوك غيره في خدمة سيد واحد مشترك، وانظر «تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتيّ من الدخيل»: ٨٧.

(٢) جمع غليون، وهو السفينة الحربية الضخمة، كما سبق.

[٣٩] وفي يوم الثلاثاء نادوا بالنفير العام وخروج الناس للمتاريس، وصاروا يكررون المناداة كل يوم، فأغلق الناس الدكاكين والأسواق، وخرج الجميع لبر بولاق، فكانت كل طائفة من الطوائف أهل الصنعات يجمعون الدراهم من بعضهم، وينصبون خيماً، أو يجلسون في مكان خَرب، أو مسجد، ويرتبون لهم قَيِّماً يصرف عليهم ما يحتاجون له من الدراهم التي جمعوها من بعضهم، وبعض الناس يتطوع بالإنفاق على البعض الآخر، ومنهم من يُجَهِّزجماعة من المغاربة والشوام بالسلاح والأكل وغير ذلك، بحيث إنَّ جميع الناس بذلوا وسعهم، وفعلوا ما في قوتهم وطاقتهم، وسمحت نفوسهم ببذل أموالهم، فلم يَشِحَّ في ذلك الوقت أحد بشى يملكه، ولكن لم يساعدهم الدهر.

[٤٠] وخرجت الفقراء وأرباب الأشاير بالطبول والأعلام والكاسات، وهم يضجون ويصيحون، ويذكرون بأذكار مختلفة[١].

[٤١] وصعد نقيب الأشراف السيد عمر للقلعة فأنزل منها بيرقاً[٢] كبيراً سمته العامة البيرق النبويّ، فنشره من القلعة إلى أن وصل به إلى بولاق، وهو راكب ومعه ألوف من العامة بالنبابيت[٣] والعصي، يهللون ويكبرون ويكثرون بالصياح، وبصحبته طبول وزمور وغيز ذلك، وأمّا مصر فإنها بقيت خالية الطرق لا تكاد تجد بها أحداً سوى النساء في البيوت، والصغار وضعفاء الرجال، الذين لا يقدرون على الحركة، فإنهم مستترون مع النساء في بيوتهم، والطرق معفرة؛ من

---

(١) انظر الفقرة [٣٦] مع التعليق عليها في الهامش.

(٢) أي عَلَماً.

(٣) قال المحقق: عامي مصر يُراد به العصا الغليظة.

عدم الكنس والرش، وغلا سعر البارود والرصاص، وغلا السلاح وقَلّ، وخرج معظم الرعايا بالنبابيت والعصى، ومكث المشايخ والعلماء بزاوية علي بيك ببولاق، يدعون ويبتهلون إلى الله، وأقام غيرهم من الرعايا، البعض بالبيوت والبعض بالزوايا، والبعض في الخيام.

ومحصل الأمر أن جميع مَن بمصر من الرجال تحول لبولاق وأقام بها سوى ناس قليلة لا يجدون لهم مأوى، فيرجعون لبيوتهم يبيتون بها، فيصبحون ببولاق، وأرسل إبراهيم بك إلى العُربان المجاورة لمصر، ورسم لهم أن يكونوا في المقدمة بنواحي شبرا وما والاها، وكذلك اجتمع عند مراد بيك الكثير من عرب البحيرة والجيزة والصعيد وغيرهم.

[٤٢] وفي كل يوم يتزايد الجمع ويكثر الهول، ويضيق الحال بالفقراء الذين يحصلون قوت يوم بيوم، لتعطل الأسباب، واجتماع الناس كلهم في صعيد واحد، وتنقطع الطرق، ويعدو الناس بعضهم على بعض، لعدم التفات الحكام، واشتغالهم بما دهمهم من هذا الأمر العظيم، وأما بلاد الأرياف فإنها قامت على ساق، يقتل بعضهم بعضاً، وينهب بعضهم بعضاً، وكذلك العرب تُغير على الأطراف والنواحي، وصار قُطر مصر من أوله إلى آخره في قتل ونهب، وإخافة طريق، وقيام شر، وإغارة على أموال، وفساد مزارع، وغير ذلك من أنواع الفساد التي لا تحصى.

وطلب أمراء مصر الإفرنج الذين هم تجار بمصر فحبس بعضهم بالقلعة، وبعضهم بأماكن الأمراء، وصاروا يفتشون بمحلات الإفرنج على الأسلحة وغيرها، وكذلك يفتشون بيوت النصارى الشوام والأقباط والأروام، والكنائس والأديرة على الأسلحة، والعامة لا

ترضى إلا أن يقتلوا النصارى واليهود، فيمنعهم الحكام عنهم، ولولا ذلك المنع لقتلهم العامة في وقت الفتنة.

[٤٣] ثم في كل يوم تكثر الإشاعة بقرب الفرنسيس إلى مصر، وتختلف الناس في الجهة التي يأتون منها، فمنهم من يقول: يأتون من البر الغربي، ومنهم من يقول: من البر الشرقي، ومنهم من يقول: يأتون من الجهتين، هذا وليس لأحد من كبراء العسكريين همة أن يبعثوا جاسوساً، أو يرسلوا طليعة، تناوغهم[١] القتال، قبل دخولهم، بل كل من إبراهيم بيك ومراد بيك جمع عسكره ومكث بمكانه لا ينتقل عنه، ينتظر ما يفعل به، وهذا من سوء التدبير، وإهمال أمر العدو.

[٤٤] ولما كان يوم الجمعة سادس الشهر وصل الفرنسيس إلى الجسر الأسود، وأصبح يوم السبت، فوصلوا إلى أم دينار، فعندها اجتمع العالم العظيم من الجند والرعايا والفلاحين المجاورة بلادهم لمصر، ولكن الأجناد متنافرة قلوبهم، منحلة عزيمتهم، مختلفة آراؤهم، حريصون على حياتهم وتنعمهم ورفاهيتهم، مختالون في زينتهم، مغترون بجمعهم، محتقرون شأن عدوهم، مرتبكون في رَوِيَّتهم، مغمورون في غفلتهم، وهذا كله من أسباب ما وقع من خذلانهم وهزيمتهم.

وقد كان الظن بالفرنسيس أن يأتوا من البرين فلم يأتوا إلا من البر الغربيّ، ولما كان وقت القائلة من ذلك اليوم، ركب جماعة من العساكر التي بالبر الغربّي وتقدموا إلى ناحية بشتيل، وهي بلد مجاورة لإنبابة، فتلاقوا مع مقدمة الفرنسيس وكروا عليهم بالخيول، فضربهم الفرنسيس ببنادقهم المتتابعة الرمي، وأبلى الفريقان.

---

(١) قال المحقق: كلمة عامية بمعنى ناوش.

[٤٥] وفي هذه الكرّة استُشْهد أيوب بيك الصغير وعبد الله كاشف الجرف، وكان عبداً أسود جسيماً معروفاً بالشجاعة والإقدام، ومات أيضاً عدة من كشَّاف محمد بيك الألفي ومماليكه، وتبعهم طابور من الإفرنج في نحو ستة آلاف ساري عسكرهم (دزي)[١] الذي وَلي على الصعيد بعد تملكهم.

وأما بونابارته فلم يشاهد الوقعة بل حضر بعد الهزيمة، وكان بعيداً عن هؤلاء بكثير، ولما قرب طابور الفرنسيس من متاريس مراد بيك ترامى الفريقان بالمدافع، ورمت عسكر الغليونجية، التي في الغلايين البحرية بالمدافع أيضاً.

[٤٦] وكان قد قدم في صبح هذا اليوم عدة من عسكر الأرناءوط من دمياط، وطلعوا إنبابة وانضموا للمشاة وانتظموا معهم في المتاريس، فلما وقع الحرب مات معظمهم، ولم ينتقل عن مكانه، ولم يثبت من هذه الطوايف كلها إلا هذه الفرقة، بحيث لم ينج منها إلا القليل، ولم تتزلزل عن مكانها، ولم تسلم في أنفسها، وهكذا الرجال، رضي الله عنهم.

فلمَّا رأى عسكر البر الشرقيّ القتال، ركب جماعة من الأمراء الذين به وشرعوا في التعدية إلى البر الغربيّ في المراكب، فتراموا على المعادي؛ لكون التعدية من محل واحد والمراكب قليلة جداً، فلم يتمكن الجميع للوصول إلا وقد انهزم العسكر الغربيّ، هذا والريح النكباء قد اشتدت في هبوبها، وأمواج البحر في قوة اضطرابها، والرماد يعلو غبارها، وتنسفها الريح في وجوه العسكر، فلا يقدر أحد

---

(١) وهو متولي الصعيد: دِيزيه، وساري العسكر هو قائدهم الأكبر، كما مرّ.

أن يفتح عينيه من شدة الغبار وكون الريح من جهة العدو وفي وجوه المقاتلين، وذلك من أعظم أسباب الهزيمة.

ثم إن الطابور الذي تقدم لقتال مراد بيك، انقسم على كيفية معلومة عندهم في الحرب، وتقارب من المتاريس، بحيث صار محيطاً بالعسكر من خلفه وأمامه، ودق طبوله وأرسل بنادقه المتتالية والمدافع، واشتد هبوب الريح، واتقد الغبار، وأظلمت الدنيا، من دخان البارود وغبار الرياح، وصُمَّت الأسماع من توالي الضرب، بحيث خُيِّل للناس أن الأرض تزلزلت، والسماء عليها سقطت، فاستمر القتال نحو ثلاثة أرباع الساعة، ثم كانت الهزيمة على العسكر الغربي، فغرق الكثير من الخيالة في البحر، لإحاطة العدو بهم، وظلام الدنيا، والبعض وقع أسيراً في يد الفرنسيس، وملكوا المتاريس[1]، وفر مراد بيك ومن بقي معه إلى الجيزة، فصعد إلى قصره، وقضى بعض أشغاله، في نحو ربع ساعة، ثم ركب وذهب إلى الجهة القبلية[2]، وبقيت القتلى والثياب والأمتعة والأسلحة ملقاة ببر إنبابة تحت الأرجل.

---

(١) لقد أوجز الجبرتي في توضيح ما حصل وإلا فالصورة كانت على غاية من العتامة والخزي، وكان الجنود المماليك المساكين لقمة سائغة للفرنسيين، وعكف الفرنسيون على تجريد الجثث وسلب ما فيها من نقود وعمائم حريرية، وحصل أحد الملازمين الفرنسيين على ٥٠٠ قطعة نقود ذهبية كانت مع أحد الجند المماليك، وسيف مذهب، وكان هذا الجندي المملوكي على غاية من الشجاعة لكن ما تغني الشجاعة في مثل هذه المواقف العصيبة. وقد عكف الجنود في الأيام التالية على تصيد الجثث من النيل وسلب ما فيها: انظر «ودخلت الخيل الأزهر»: ١٦٠ ـ ١٦١.

(٢) هذا أمير مصر الفارّ من وجه الفرنسيين سترى ـ أيها القارى الكريم ـ في ترجمته أنه كان ظالماً غشوماً متكبراً مغروراً، فلما جاء الفرنسيس وجدوه متخاذلاً هارباً، والأدهى من ذلك أنه تولى الصعيد للفرنسيين، انظر ترجمته في الفقرات ٢٩٩ ـ ٣١٠.

[٤٧] ولما انهزم العسكر الغربيّ حوّل الفرنسيس المدافع والبنادق على البر الشرقي وضربوها، فقامت صيحة عظيمة ببر بولاق، وركب إبراهيم بيك والباشا والأمراء والعسكر والرعايا، وتركوا جميع الأثقال والخيام كما هي لم يأخذوا منها شيئاً، فأما إبراهيم بيك والباشا والأمراء فذهبوا إلى جهة العادلية، وأما الرعايا فهاجروا إلى جهة المدينة، ودخلوها أفواجاً أفواجاً، وهم في غاية ما يكون من الخوف والفزع وترقب الهلاك، وهم يضجون بالعويل والنحيب، ويبتهلون إلى الله تعالى من شر هذا اليوم العظيم، والنساء يصرخن بأعلى أصواتهن في البيوت وقد كان ذلك قبل الغروب، فلما استقر إبراهيم بيك بالعادلية، أرسل فأخذ حريمه، وكذلك من كان معه من الأمراء، فأركبوا النساء بعضهن على الخيول، وبعضهن على البغال، والبعض على الحمير والجمال، والبعض ماش كالجواري والخدم.

واستمر معظم الناس طول الليل خارجين من مصر، البعض بحريمه والبعض ينجو بنفسه، وليس أحد مع أحد، بل كل واحد مشغول بنفسه، عن أبيه وابنه، فخرج في تلك الليلة معظم أهل مصر، البعض لبلاد الصعيد، والبعض لجهة الشرق وهم الأكثر، وأقام بمصر كل مخاطر بنفسه، لا يقدر على الحركة ممتثلاً للقضاء، متوقعاً للمكروه؛ وذلك لعدم قدرته وقلة ذات يده، وما ينفقه على حمل عياله وأطفاله، وما يصرفه عليهم في الغربة، فاستسلم للمقدور، ولله عاقبة الأمور.

[٤٨] والذي أزعج قلوب الناس وهيجهم على الترحال بالأكثر أن فى عشاء تلك الليلة شاع فى الناس أن الإفرنج عدوا إلى بولاق وأحرقوها، وكذلك الجيزة، وأن أولهم وصل إلى باب الحديد يحرقون ويقتلون، ويفجرون بالنساء، وكان السبب في هذه الإشاعة أنَّ بعض

الغليونجية من عسكر مراد بيك الذين كانوا في الغليون بمرساة إنبابة لما تحقق الكسرة أضرم النار في الغليون الذي هو فيه، وكذلك مراد بيك لما رحل من الجيزة أمر بانجرار الغليون الكبير من قبالة قصره ليصحبه معه إلى جهة قبلي، فمشوا به قليلاً ووقف، لقلة الماء في الطين، وكان به عدة وافرة من آلات الحرب والجبخانة، فأمر بحرقه أيضاً[١]، فصعد لهيبه إلى عنان السماء، فلما عاين الناس بالمدينة لهيب النار(من ناحية الجيزة وبولاق) ظنوا بل أيقنوا أنهم حرقوا البلدين، فماجوا كلهم، واضطربوا زيادة عما هم عليه من الفزع والروع والجزع، وخرج أعيان الناس، وأكابرهم ونقيب الأشراف وبعض المشايخ القادرين، فلما عاين العامة والرعية ذلك، اشتد ضجرهم وخوفهم، وتحركت عزايمهم للهروب واللحاق بهم.

[٤٩] والحال أن الجميع لا يدرون أي طريق يسلكون، وإلى أي جهة يذهبون، وأي محل به يستقرون، فتلاحقوا وتسابقوا وخرجوا من كل حَدَب يَنْسِلُون[٢]، وبيع الحمار الأعرج والبغل الضعيف بأضعاف ثمنه، وخرج أكثرهم ماشياً أو حاملاً متاعه على رأسه، وزوجته حاملة طفلها، ومن قدر على مركوب أركب زوجته أو ابنته، ومشى هو على أقدامه، وخرجت غالب النساء ماشيات حاسرات، وأطفالهن على اكتافهن يبكين في ظلمة الليل، واستمروا على ذلك بطول ليلة الأحد وصبحها، وأخذ كل إنسان على قدر ما يحمل من مال ومتاع، فلما خرجوا من أبواب البلد وتوسطوا الفلاة تلقاهم العربان والفلاحون،

---

(١) وذلك حتى لا يستفيد منه العدو.

(٢) الحَدَب: ما ارتفع من الأرض، وينسلون: يَعْدون عَدْواً سريعاً.

فأخذوا متاعهم ولباسهم وأحمالهم بحيث لم يتركوا لمن صادفوه ما يستر عورته، ويسد جَوْعته، فكان ما أخذته العرب شيئاً كثيراً يفوت عن الحصر، بحيث أن الأموال والذخائر التي خرجت من مصر في تلك الليلة أضعاف ما بقي بها بلا شك، لأن معظم الأموال عند الأمراء والأعيان وحريمهم وقد أخذوه صحبتهم، وغالب مساتير الناس وأصحاب المقدرة خرجوا أيضاً بما عندهم، والذي أقعده العجز وكان عنده ما يعزّ عليه من مال أو مصاغ أعطاه لجاره أو صديقه الراحل، ومثل ذلك أمانات وودائع الحجاج من المغاربة والمسافرين، فذهب ذلك جميعه، وربما قتلوا من قدروا عليه ودافع عن نفسه ومتاعه، وعرّوا ثياب النساء وفضحوهن وهتكوهن، وفيهم الخوندات[1] والأعيان، فمنهم من رجع من قريب، وهم الذين تأخروا في الخروج وبلغهم ما حصل للسابقين، ومنهم من جازف متكلاً على كثرته وعزوته وخفارته، فسَلِم أو عطب، وكانت ليلة وصباحها في غاية الشناعة، جرى فيها ما لم يتفق مثله بمصر، ولا سمعنا بما يشابه بعضه في تواريخ المتقدمين، وما راء كمن سَمِع.

[٥٠] ولما أصبح يوم الأحد المذكور والمقيمون لا يدرون ما يفعل بهم ومتوقعون حلول الفرنسيس ووقوع المكروه، ورجع الكثير من الفارين، فيا أسوأ حال من العري والفزع، فتبين أن الفرنج لم يعدوا إلى البر الشرقي، وأن الحريق كان في المركب المتقدم ذكرها، فاجتمع في الأزهر بعض العلماء والمشايخ وتشاوروا، فاتفق رأيهم على أن يرسلوا مراسلة إلى الفرنج وينتظروا ما يكون من جوابهم،

---

(١) أي الرئيسات وصاحبات المحل الرفيع في المجتمع.

ففعلوا ذلك وأرسلوها صحبة شخص مغربيّ يعرف لغتهم، وآخر صحبته فغابا وغابا وعادا وأخبر أنهما قابلا كبير القوم وأعطياه الرسالة، فقرأها عليه ترجمان، ومضمونها الاستفهام عن قصدهم، فقال على لسان الترجمان: وأين عظماؤكم ومشايخكم؟ لم تأخروا عن الحضور إلينا لنرتب لهم ما يكون فيه الراحة؟ وطَمَّنَهم وبَشّ في وجوههم، فقالوا: نريد أماناً منكم. فقال: قد أرسلنا لكم سابقاً، يعنون الكتاب المذكور، فقالوا: وأيضاً لأجل اطمئنان الناس، فكتبوا لهم ورقة أخرى مضمونها:

[٥١] من عسكر الجيزة خطاباً لأهل مصر، إننا أرسلنا لكم في السابق كتاباً فيه الكفاية، وذكرنا لكم أننا لم حضرنا[١] إلا بقصد إزالة المماليك الذين يستعملون الفرنساوية بالذل والاحتقار، وأخذوا مال التجار ومال السلطان، ولما حضرنا إلى البر الغربيّ خرجوا إلينا فقابلناهم بما يستحقون، وقتلنا بعضهم وأسرنا بعضهم عندنا، وهرب بعضهم، ونحن في طلبهم حتى لم يبق منهم أحد بالقطر المصريّ، وأما المشايخ والعلماء، وأصحاب المرتبات والرعية فيكونوا مطمئنين، وفي مساكنهم متاجرين ومرتاحين، إلى آخر ما ذكرنا. ثم قال لهم لازم إن المشايخ والشورباجية يأتون إلينا لنرتب منهم ديواناً[٢] ننتخبه من سبعة أشخاص عقلاء، يدبرون الأمر.

ولما رجع الجواب بذلك اطمأن الناس، وركب الشيخ مصطفى

---

(١) قال المحقق: يريد لم نحضر.
(٢) وهذا الديوان الذي قرروه إنما لإنجاز مصالحهم وإحكام سيطرتهم، كما فصلت ذكره في المقدمة.

الصاوي[1] والشيخ سليمان الفيومي[2] وآخرون إلى الجيزة، فتلقاهم وضحك لهم، وقال: أنتم المشايخ الكبار؟ فأعلموه أن المشايخ الكبار خافوا وهربوا، فقال: لأي شيء يخافون؟ اكتبوا لهم بالحضور، ونعمل لكم ديوان لأجل الراحة، فكتبوا منه عدة مكاتيب بالحضور والأمان، ثم انفصلوا من عندهم بعد العشاء، وبقي الناس في وجل وخوف على غيابهم، وأصبحوا فأرسلوا الأمان إلى المشايخ، فحضر الشيخ السادات[3] والشيخ الشرقاوي[4] ومن انضم إليهما من الناس الفارين من

---

(١) مصطفى بن أحمد الصاوي، الشيخ العمدة، والصاوي نسبة إلى بلدة بمصر تسمى الصُوّة. جاء الشيخ مصطفى إلى مصر، ودرس بالجامع الأزهر فحفظ القرآن والمتون، واشتغل بالعلم. وكان لطيف الذات، مليح الصفات، رقيق الطبع، مهذب الأخلاق. توفي سنة ١٢١٦ رحمه الله تعالى. انظر «عجائب الآثار»: ٣/ ٢١٣ ـ ٢١٧.

(٢) سليمان الفيومي المالكي، العمدة النحرير والنبيل الشهير، ولد بالفيوم وحضر إلى القاهرة فحفظ القرآن وجاور بالأزهر، كان له صوت شجيّ فينشد مع المنشدين فراج أمره على كثير من أمراء المماليك فأثرى، وكان قليل البضاعة في العلم إلا أنه مشارك في القضايا بسبب تدخله مع الأمراء. وكان جواداً، حسن المعاشرة مع البشاشة، وأحبه الفرنسيون وقبلوا شفاعته. توفي سنة ١٢٢٤ رحمه الله تعالى، وكانت جنازته مشهوده عظيمة. انظر «عجائب الآثار»: ٤/ ١٠٥ ـ ١٠٧.

(٣) شمس الدين محمد بن عبد الرحمن، قرأ على عدد من المشايخ وتقدم، ثم تولى مشيخة السادة. وكان ذا أدب ومروءة وفضائل. وبولغ في تعظيمه من قبل أهل عصره مبالغة عظيمة وخرج عن طوره وحده، وبطش وظلم بمساعدة الأمراء له، وكان له كلمة مسموعة عندهم وعند الفرنسيين لما دخلوا مصر، ثم إن الفرنسيين غضبوا عليه لأشياء بدرت منه وألزموه مبالغ عظيمة يدفعها. وكان على صفاته المذكورة صادعاً بالحق في وجه الأمراء، وله مساوىء كثيرة من الظلم والكبر والتيه، توفي سنة ١٢٢٨ رحمه الله وعفا عنه: انظر «عجائب الآثار» ٤/ ١٨٥ـ١٩٧.

(٤) عبدالله بن حجازي بن إبراهيم الشرقاوي الأزهري. فقيه من علماء مصر. ولد سنة ١١٥٠ في الطويلة ـ من قرى الشرقية بمصر ـ وتعلم في الأزهر، وولي مشيخته سنة ١٢٠٨، وصنف كتباً، وكان على المذهب الشافعي. وهو أحد الذين أكرهوا على توقيع بيان بالتحذير من معارضة الفرنسيين. توفي بالقاهرة سنة ١٢٢٧. انظر «الأعلام»: ٤/ ٧٨.

ناحية المطرية، وأما عمر أفندي نقيب الأشراف[1] فإنه لم يطمئن ولم يحضر.

وفي ذلك اليوم اجتمعت الجعيدية وأوباش الناس، ونهبوا بيت إبراهيم بيك ومراد بيك بقيسون وأحرقوه، ونهبوا أيضاً عدة بيوت من بيوت الأمراء وأخذوا ما فيها من فرش ونحاس وأمتعة وغير ذلك وباعوه بأبخس الأثمان.

[٥٢] وفي يوم الثلاثاء عَدّت الفرنسيس إلى بر مصر، وسكن بونابرت ببيت محمد بيك الألفي[2] بالأزبكية، وكان عَمَّره محمد بيك

---

(١) عمر مكرم بن حسين السيوطي: زعيم شعبي مصري، من أسرة شريفة النسب. ولد بأسيوط قرابة سنة ١١٦٨، وتعلم بالأزهر. وولي نقابة الأشراف سنة ١٢٠٨. ولما احتل الفرنسييون الإسكندرية سنة ١٢١٣، وزحفوا على القاهرة تقدم على رأس جمهور من أهالي القاهرة لمقاومتهم فلم ينجح وخرج بعد دخولهم فاستقر في العريش ثم في يافا. وأغار نابليون في السنة نفسها على يافا فاحتلها وقتل من أهلها نحو ستة آلاف كانو قد استسلموا، وأكرم من وجد فيها من المصريين وبينهم عمر مكرم فعاد إلى القاهرة بعد غياب ثمانية أشهر واعتزل كل عمل. ثم كان على رأس ثورة مصرية شعبية ولم تنجح ففر، ثم عاد مع الحكام العثمانيين بعد جلاء الفرنسيين فأعيدت إليه نقابة الأشراف. ثم ناصر محمد علي باشا الذي عين والياً على مصر بعد ذلك، وتنكر له محمد علي لما أراد عمر أن يكون له رأي في سياسة البلاد، وأبعد إلى دمياط حيث قام أربعة أعوام، ثم نقل إلى طنطة حيث أقام فيها سبعة أعوام، ثم عاد إلى القاهرة بعد أن حج، فنشبت فتنة خشي محمد علي أن يكون لعمر يد فيها، فنفاه إلى طنطا حيث توفي سنة ١٢٣٧، ولم يعرف فضله وكان نصيبه النفي والحرمان، رحمه الله تعالى. انظر «الأعلام»: ٥/ ٦٧ ـ ٦٨.

(٢) الأمير محمد بيك الألفي المرادي. جلبه بعض التجار إلى مصر سنة ١١٨٩، وتنقل عبداً عند سادته حتى أهدي لمراد بيك فأعطى من أهداه ألف اردب قمحاً فسمي الألفي لأجل ذلك، وكان جميل الصورة فأحبه مراد بيك فأعتقه ورقاه في المناصب، فطغى وتكبر، واشتهر بالفجور والتعدي على الناس، واشترى مماليك =

المذكورة سنة تاريخه، وزخرفه وصرف عليه أموالاً عظيمة، وفرشه بالفرش الفاخر، وعند تمامه وسكناه فيه حصلت هذه الحادثة، فأخلوه وتركوه بما فيه، فكأنه كان بناه للفرنسيين، وكذلك حصل في بيت حسن كاشف جركس[1] بالناصرية.

[٥٣] وفي يوم الخميس - ثالث عشر صفر- طلبوا المشايخ والوجاقلية عند بعض رؤسائهم، وعينوا عشرة أنفار من المشايخ للديوان، وهم الشيخ عبدالله الشرقاويّ والشيخ خليل البكري[2] والشيخ مصطفى الصاوي والشيخ سليمان الفيوميّ والشيخ محمد

= فصاروا مثله، ثم إنه انصرف عن أحواله السيئة إلى قراءة الكتب والاطلاع على فنون العلوم والتزود من المماليك والجواري وبناء القصور. ولما وصل الفرنسيون مصر جاهدهم جهاداً عظيماً هو ومماليكه وصار يهرب منهم ويتنقل في بلدان مصر ويتصيدهم وهم لا يستطيعون إمساكه. ثم لما دخل العثمانيون مصر وأمسكوا أمراء المماليك فرّ وهرب، ثم حاربهم بعد ذلك فكسرهم، ثم جرت له أمور طويلة مع محمد علي وغيره، ثم ارتحل إلى انجلترا وبقي بها سنة وشهوراً، ثم جرى له من الحروب الشيء الكثير، ومات بعد ذلك مناكداً لمحمد علي الذي فرح بموته أعظم الفرح، فكان ذلك سنة ١٢٢١، انظر «عجائب الآثار»: ٤/ ٢٦ ـ ٤٢.

(١) كان من الفراعنة الطاغين، وبنى داراً عظيمة وصرف عليها أموالاً ثم سكنها علماء الحملة الفرنسية، وتقلد إمارة العسكر بالشام ومات هناك بالطاعون سنة ١٢١٥، رحمه الله. انظر المصدر السابق: ٣/ ١٧٤.

(٢) السيد خليل البكري الصديقي تداخل مع الفرنسيين فصار مسموع الكلمة مقبول الشفاعة عندهم، فلما كان الصلح الأول المنقوض بين العثمانيين والفرنسيين هجم العامة على داره وفعلوا به القبائح وكاد يموت، وكانت له ابنة عاشرت الفرنسيس فلما علم بقدوم العسكر العثماني المرة الثانية قتل ابنته بيد حاكم الشرطة. وكان قد ولي نقابة الأشراف من قبل الفرنسيين فلما دخل العثمانيون عزل منها، ثم عزل عن مشيخة البكريين فخمل أمره، ثم إنه ادعي عليه في أمور وضويق حتى توفي سنة ١٢٢٣ رحمه الله تعالى. انظر «عجائب الآثار»: ٤/ ٨٦ـ ٨٨.

المهدي[1] والشيخ موسى السرسى[2] والسيد مصطفى الدمنهوري[3] والشيخ محمد العريشي[4] والشيخ يوسف الشرخيتي[5] والشيخ محمد الدواخلي[6]، وحضر ذلك المجلس أيضاً مصطفى بيك كتْخُدا[7] الباشا والقاضي، وعملوا محمد أغا المسلماني أغاة مُسْتَحْفَظان[8]

---

(١) محمد المهدي الحفني، كان أبوه من الأقباط، وأسلم ابنه هذا صغيراً ففارق أهله وتبرأ منهم، وأقبل على طلب العلم والقرآن ودرس على المشايخ، ثم اشتهر ذكره مع البشاشة والوجاهة وطلاقة اللسان، وأقبلت عليه الدنيا، وداخل الأمراء والوظائف، ولما دخل الفرنسيون لاطفهم وتداخل معهم فأحبوه وقبلوا شفاعته، حتى صار هو الواسطة العظمى بينهم وبين الناس، وراج أمره في أيامهم رواجاً عظيماً، ثم إنه بعد رحيل الفرنسيين تبوأ المكانة نفسها عند العثمانيين، ثم جرت له أمور يطول ذكرها، وكانت له بعض الهفوات على أنه كان من أكابر العلماء. وتوفي سنة ١٢٣٠ عن ٧٥ سنة، انظر المصدر السابق: ٤/ ٢٣٣ ـ ٢٣٧.

(٢) الشيخ موسى السرسي الشافعي أصله من سرسى الليانة بالمنوفية، حضر إلى القاهرة ودرس بالأزهر، ولازم المشايخ حتى مهر، واشتهر ذكره، وكان حسن المعاشرة، عذب الكلام، مهذب النفس، جميل الأخلاق، ودوداً. توفي سنة ١٢١٩ رحمه الله، انظر المصدر السابق: ٣/ ٣٢٠ ـ ٣٢١.

(٣) مصطفى الدمنهوري الشافعي. تفقه على مشايخ عصره، ومهر في المعقولات. وكان عاقلاً ذكياً، وفيه ملكة واستحضار للفروع الفقهية، وكان قد خالط الشيخ الشرقاوي مخالطة كاملة حتى كان يكتب الفتاوى باسمه. توفي مصدوماً بخيل أحد الفرنسيين سنة ١٢٢٣، رحمه الله. انظر «عجائب الآثار»: ٤/ ٦٧.

(٤) لم أعثر على ترجمته.

(٥) لم أجد له ترجمه.

(٦) محمد بن أحمد بن محمد الدواخلي الشافعي. ولد بالقاهرة، وحفظ القرآن واجتهد في طلب العلم، وأقرأ الدروس، وتداخل مع الناس في قضاياهم ومصالحهم، واشتهر أمره، وكانت له مكانة أيام الفرنسيين وكذلك أيام العثمانيين، وكان ميالاً إلى الرئاسة متداخلاً في أمور ليست من شيمة العلماء. ثم نفاه محمد علي بعد المكانة التي كانت له عنده إلى دسوق ثم المحلة، ومات فيها سنة ١٢٣٣ رحمه الله. انظر«عجائب الآثار»: ٤/ ٢٩٤ ـ ٢٩٦.

(٧) الوكيل المعتمد أو الموظف المسؤول والأمين، وهي هنا بمعنى الوكيل المعتمد.

(٨) الأغا: الرئيس. والمستحفظان: حارس القلاع والحصون والمدن، فالمعنى: =

وعلي أغا الشعراويّ[1] زعيم مصر، وحسن أغا محرم[2] أمين احتساب، وذلك بإشارة أرباب الديوان، فإنهم كانوا ممتنعين من تقليد المناصب لجنس المماليك، فعرفوهم أن سوقة مصر لا يخافون إلا من الأتراك ولا يحكمهم سواهم، وهؤلاء الجماعة من أرباب البيوت القديمة، وقلدوا زين الفقار[3] كَتْخُدا محمد بيك الألفي كَتْخُدا بونابارته، ومن أرباب المشورة كافوا وكلوي الفرنساوي، ووكيل الديوان حنابينو[4].

[٥٤] وفيه[5] اجتمع أرباب الديوان عند رئيسه، فذكر لهم ما وقع من نهب البيوت، فقالوا له: هذا فعل الجعيدية وأوباش الناس، فقال: لأي شيء يفعلون ذلك وقد أوصيناكم بحفظ البيوت والختم على متاع

= رئيس حرس القلاع. وانظر «تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي»: ١٧، ٧٧، والمعنى المراد هنا: المحافظ.

(١) لم أعثر له على ترجمة.

(٢) لم أعثر له على ترجمة.

(٣) لم أجد له ترجمة.

(٤) قال الأستاذ محمود شاكر:

«الديوان صورة هزلية لحكومة دستورية تحكم القاهرة، وكان لكل مدينة أخرى ديوانها الحاكم... وقاعدة اختيارهم (لحكومة الديوان) أن يكون من أعيان البلاد الذين امتازوا بمركزهم العلمي وكفايتهم وطريقة استقبالهم للفرنسيين، ومعنى ذلك أنه (أي نابليون) يريد أن يودع سلطة الحكومة الظاهرة المموّهة في يد فئة ذات هيبة عند الناس...»: «رسالة في الطريق إل ثقافتنا»: ٢٠٢-٢٠٣.

وأرسل نابليون بعد خروجه من مصر رسالة إلى كليبر - خليفته من بعده كما سيأتي، إن شاء الله تعالى - يقول له فيها: «يجب أن تخدر روح التعصب وتنومها إلى أن تتمكن من استأصالها، إذا حُزت ثقة كبار مشايخ القاهرة فإنك تجمع حولك أفكار مصر بأجمعها وأفكار كل زعيم من زعماء الشعب...»: المصدر السابق: ١٠٥.

(٥) أي في شهر صفر المذكور قريباً.

المماليك؟، فقالوا: هذا الأمر لاقدرة لنا على منعه، وإنما ذلك من وظيفة الحكام، فأمروا الوالي والأغا بأن ينادوا بالأمان وفتح الدكاكين والمنع من النهب، فلم يستمعوا ولم ينتهوا واستمرت الدكاكين مغلقة والأسواق على حالها مقفرة والناس غير مطمئنين، وقلوبهم مرجوفة، وصدورهم ضيقة. والتفت جماعة الفرنسيس إلى فتح البيوت التي للأمراء، فصاروا يفتحون الدار ويدخلونها ويأخذون منها ما يليق بخاطرهم ويخرجون، ويتركون الأبواب مفتحة، فيدخل بعدهم طائفة الجعيديّة ويستأصلون الباقي واستمروا على ذلك عدة أيام، ثم إنهم تتبعوا بيوت الأمراء وأتباعهم وختموا على بعضها، وسكنوا بعضها، فكان الذي يخاف على داره يعلق له بيرقاً على داره في الباب، أو يأخذ له ورقة من الفرنسيس لا يعرف ما فيها، ويلصقها على بابه.

[٥٥] وفيه[١] قلدوا برطلمين العسكريّ الروميّ النصرانيّ ـ وهو الذي تسميه العامة فَرْط الرمان ـ جعلوه كتخدا مستحفظان[٢]، والمذكور من أسافل النصارى الأروام العسكرية القاطنين بمصر، وكان طوبجياً عند محمد بيك الألفي، وله حانوت بخط الموسكي يبيع فيه القوارير الزجاج أيام البطالة ، فلما قلدوه المنصب، نزل بموكب من بيت بونابارته وأمامه عدَّة وافرة من طوائف الأجناد البطالين مشاة بين يديه، وعلى رأسه خشيشة من الحرير، ولابس فروة، وبين يديه الخدم بالحراب المفضضة، وسكن اللعين المذكور ببيت يحيا الكاشف الكبير[٣]، بحارة عابدين، واحتوى عليه بما فيه من الفرش والمتاع

---

(١) أي في شهر صفر المذكور قريباً.
(٢) أي نائب محافظ القاهرة.
(٣) من مماليك إبراهيم بك ـ أمير مصر ـ الأقدمين. كان لطيف الطباع، حسن =

والجواري وغير ذلك[1]، وقلدوا إفرنجياً آخر، وجعلوه أمين البحرين، وآخر جعلوه أغاة الرسالة، وجعلوا الديوان ببيت قائد أغا بالأزبكية، وسكن به رئيس الديوان.

[٥٦] وسكن (دبوى) قائمقام مصر ببيت إبراهيم بيك الكبير، وسكن (مجلون) ببيت مراد بيك.

[٥٧] ثم إن عساكرهم صارت تدخل إلى المدينة شيئاً فشيئاً حتى امتلأت منهم الطرقات، وسكنوا في البيوت وخافت منهم الحارات، ولكن لم يشوشوا على أحد، ويأخذوا المشتروات بزيادة عن ثمنها، وهذه من أعظم المكايد لأجل إضلال عقول العامة، وانهمكوا على

= الأوضاع، وعنده ذوق وتودد، يحب الرسومات والنقوشات والتصاوير ودقائق الصناعات والكتب المشتملة على ذلك، بنى بيتاً عظيماً وقصراً منيفاً سكنه الفرنسيون ولم يتمتع به. توفي سنة ١٢١٥. انظر «عجائب الآثار»: ٣/ ١٧٥.

(١) نقل الأستاذ محمد جلال كشك عن أحد الغربيين المؤرخين قوله:
«أنشأ بونابرت فرقاً من الانكشارية(أي العسكر) مؤلفة من الترك واليونان والمغاربة وغيرهم من السفلة وشذاذ القوم، ومن أبرز هؤلاء وألفتهم للنظر أيام الاحتلال الفرنسي مغامر روميّ مسيحيّ يسمى بارتلمي (وهو برطلمين نفسه الذي تسميه العامة فرط الرمان) عينه بونابرت كتخدا مستحفظان (أي نائب المحافظ) وكان هذا الضابط الزاهي المظهر والمسلك يقود سرية قوامها مائة من الأروام والجزائريين والمغاربة المتوحشين، وكان فارع القامة... وعلى شفتيه ابتسامة يجمد لها الدم في العروق... وكانت زوجته العملاقة الرهيبة تركب أحياناً إلى جواره... وأحب الأشياء إليه قطع الرقاب بالجملة... إذا لم يجد من البدو المتمردين من يحمل رؤوسهم إلى القاهرة تذكاراً كان يعزي نفسه برؤوس بعض الفلاحين العاثري الحظ الذين يصادفهم في عودتهم للمدينة... كان في منظره وهو يسير إلى القلعة وقد جرد سيفه في يده ومن خلفه ضحاياه المكبلين ما يكفي لإخماد كل النوايا الشريرة في قلوب الكثيرين» : «ودخلت الخيل الأزهر» : ٢٨٩ـ٢٩٠.
أرأيت - أخي القارىء - وحشية هؤلاء الفرنسيين ووحشية من يولونه من عملائهم الخونة.

أنواع المأكولات، مثل الكلاب السعرانين، ففجر السوقة وصغروا الخبز، وطحنوه بترابه، وباعوا البيضة بنصف فضة، بعد أن كانوا يبيعون كل أربع بيضات بنصف، وفتح الناس عدة دكاكين بجوارهم، يبيعون فيها أصناف المأكولات كالفطير والكعك والسمك المقلي واللحوم والفراخ المحمرة وغير ذلك.

[٥٨] وفتح نصارى الأروام عدة دكاكين لبيع المسكرات، وعدة خمامير وقهاوي، وطافت جماعة من النصارى في الأسواق تبيع العرق، كسقاة الماء، وصاروا ينادون فيه بالأسواق بلغتهم، وفَحُشَ ذلك جداً.

[٥٩] وفيه تشفع أرباب الديوان في أسرى المماليك، فقبلوا شفاعتهم وأطلقوهم، فدخلوا الجامع الأزهر وهم في أسوأ حال، وعليهم ثياب زرق مقطعة، فمكثوا به يأكلون من صدقات الفقراء المجاورين به، ويتكففون المارين، وفي ذلك عبرة للمعتبرين.

طلب الأموال العظيمة من الأهالي

[٦٠] وفي يوم السبت اجتمعوا بالديوان وطلبوا دراهم سلفة، وهي مقدار خمسمائة ألف ريال من التجار المسلمين والنصارى القبط والشوام وتجار الإفرنج أيضاً فسألوا التخفيف، فلم يجابوا، فأخذوا في تحصيلها.

[٦١] وفيه نادَوْا على من أخذ شيئاً من نهب البيوت يحضر به إلى

بيت قائمقام وإلا يحصل له مزيد الضرر، ونادوا أيضاً على نساء الأمراء بالأمان أنهن يسكن بيوتهن، وإذا كان عندهن أشياء من متاع أزواجهنّ يظهرنه، فإن لم يكن عندهن شيء من متاع أزواجهن يصالحن على أنفسهن ويأمن في دورهن، فظهرت الست نفيسة زوجة مراد بيك، وصالحت على نفسها وأتباعها من نساء الأمراء والكشاف بمائة وعشرين ألف ريال فرانسة، وأخذت في تحصيل ذلك من نفسها وغيرها، ووجهوا عليها الطلب، وكذلك بقية النساء بالوسائط، فجمعوا شيئاً كثيراً.

[٦٢] فصار الديوان عبارة عن قطع الجرائم وعمل المصالحات، وكتب أمانات للغزّ والأجناد المختفين والغائبين بالقرى وبحضورهم ومصالحتهم عن أنفسهم، فانتفع كثير عن الوسايط المتداخلين في ذلك كنصارى الشوام والإفرنج البلدي وغيرهم، فصاروا يعملون إرهاصات على الناس، وتخويفات وتخيلات ـ وغير ذلك مما يطول شرحه ـ استجلاباً للأموال.

[٦٣] وفي يوم الأحد طلبوا الخيول والجمال والسلاح، فجمعوا شيئاً كثيراً حتى الأبقار والثيران، وحصل في ذلك مثل ما حصل في المصالحات، وجمعوا من ذلك شيئاً كثيراً، وأشاعوا التفتيش بسبب ذلك، وكسروا عدة دكاكين بسوق السلاح وغيره، وأخذوا ما وجدوا فيها من السلاح، من غير ثمن، هذا وفي كل يوم ينقلون على الجمال والحمير من الأمتعة والفرش والصناديق والسروج وغير ذلك من البيوت ما لا يحصى، ويستخرجون الخبايا، ويأخذون البنَّايين والمهندسين والخدم الذين يعرفون بيوت أسيادهم ليدلوهم على محلات الدفاين.

وفيه قبضوا على شيخ الجعيدية ومعه آخر، وبندقوا عليهما ببركة الأزبكية، ثم على آخرين أيضاً بالرميلة، وأحضروا شيئاً كثيراً من المنهوبات.

[٦٤] وفي يوم الثلاثاء طلبوا أهل الحرف من التجار بالأسواق وقرروا عليهم جملة يعجزون عنها في المال، ويزعمون أنها سلفة إلى ستين يوماً، فضجوا واستغاثوا وذهبوا إلى الجامع الأزهر والمشهد الحسيني، واستشفعوا بالمشايخ، فتكلموا لهم فأضعفوها إلى النصف ووسّعوا لهم في أيام المهلة، وفيه شرعوا في تكسير الدروب والبوابات النافذة، وخرج عدة متفرقة من عساكرهم يخلعون ويكسرون أبواب الدروب والعطف والحارات واستمروا على ذلك عدة أيام.

[٦٥] ولوقوع هذه الأمور، داخل الناس من الفرنساويين خوفٌ شديد، وتجسم عندهم الفزع، وغلب عليهم الوهم، وفساد المخيلة، ووسوت عليهم نفوسهم بمعان نطقوا بها، وتصوروا حقيقتها وتناقلوها فيما بينهم، كقولهم إن عساكر الفرنساويّ عازمون على قتل المسلمين وهم في صلاة الجمعة، ومنهم من يقول غير ذلك، وذلك بعد أن كان حصل عندهم بعض اطمئنان، وفتحوا بعض الدكاكين، فلما حصلت هذه الحال، انكمش الناس ثانياً.

[٦٦] وفي ثالث عشرينه خرجت طائفة من الفرنساويّ إلى جهة العادلية، وصاروا بعده في كل يوم تخرج طائفة بعد طائفة، ويذهبون إلى جهة الشرق، فلما كان ليلة الأربعاء سادس عشرينه خرج باش العسكر، وكانت أوائلهم وصلت إلى الخانكة وأبوزعبل، فطلبوا كلفة من أبو زعبل، فامتنعوا، فقاتلوهم وضربوهم وكسروهم ونهبوا البلد

وأحرقوها، وانتقلوا إلى بلبيس، وأما الحجاج فإنهم نزلوا بلبيس واستكرت حجاج الفلاحين مع العرب[1]، فأوصلوهم إلى بلادهم من الغربية والمنوفية وغير ذلك، وكذلك فعل ذلك غير الفلاحين الكثير من الحجاج، فتفرقوا في البلاد بحريمهم، ومنهم من أقام ببلبيس.

[٦٧] وفي ثاني عشرينه ملكوا الإفرنج مدينة بلبيس، وكان فيها بقية من الحجاج، فلم يشوشوا على أحد، وأرسلوهم إلى مصر ومعهم ناس من عساكرهم، فلما كان ليلة الأحد غايته[2] جاء الرائد إلى الأمراء وأخبرهم أن الفرنج قادمون عليهم، فركبوا وتركوا التجار وأصحاب الأثقال، فلما طلع النهار حضر إليهم جماعة من العربان واتفقوا معهم على أنهم يوصلوهم إلى القرين، وعاهدوهم أنهم لايخونوهم، فلما توسطوا بهم الطريق، نقضوا عهدهم وخانوهم ونهبوا حمولهم وتقاسموا متاعهم وعروهم من ثيابهم، وفيهم كبير التجار السيد أحمد المحروقي[3]، وكان ما يخصه ثلاثمائة ألف ريال فرانسي نقوداً،

---

(١) أي استأجروا طائفة من العربان لحمايتهم.

(٢) أي نهاية الشهر المذكور.

(٣) عين الأعيان، وشاهبندر التجار، السيد أحمد بن أحمد المحروقيّ الحريريّ. كان والده حريرياً بسوق العنبريين بمصر، وكان رجلاً صالحاً منوّر الشيبة معروفاً بصدق اللهجة والأمانة، وولد له ابنه أحمد فكان يدعو له كثيراً في صلاته وسائر تحركاته، فلما ترعرع خالط الناس وكتب وحسب، وكان على غاية من النباهة، وتداخل مع التجار والأمراء، وباع واشترى، ثم ترقت به الأحوال حتى صار شهبندر التجار، وجذب قلوب الناس إليه بالهدايا والمواساة، واشتهر ذكره بالديار الحجازية والرومية والشامية، واعتمدوه واتجروا معه، ثم لما جاء الفرنسيون احتاجهم فدخل معهم، ثم لما خرجوا صارت له مكانة عند العثمانيين بمصر، وصار بمنزلة شيخ البلد بل أعظم. توفي سنة ١٢١٩ رحمه الله. انظر «عجائب الآثار»: ٣/ ٣٢٣ ـ ٣٢٦.

ومتجراً من جميع الأصناف الحجازية، وفعلت العرب معهم ما لا خير فيه، ولحقهم عسكر الإفرنج، فذهب السيد أحمد المحروقي ولقي الصاري عسكر وصحبته جماعة من العرب المنافقين، فشكا له ما حل به وبإخوانه، فلامهم على تنقلهم ومحبتهم إلى المماليك والعرب، ثم قبض على أبو خشبة شيخ بلد القرين وقال له: عرفني عن مكانات المنهوبات، فقال: أرسل معي جماعة إلى القرين، فأرسل معه جماعة من العسكر، فلما دخل القرين ومعه الجماعة دلهم على بعض الأشياء فأخذها الإفرنج فتقاسموها، ثم تبعوه إلى محل آخر فأوهمهم أنه يدخل ويخرج لهم أحمالاً كذلك، فدخل من مكان آخر ولم يرجع، فرجع أولئك العسكر بحمل ونصف لا غير، وقالوا: هذا الذي وجدناه، والرجل انهزم من بين أيدينا فقال الصاري عسكر: لا بد من تحصيل ذلك، فطلبوا منه الإذن في التوجه إلى مصر، فأصحب معهم عدة من عسكره، فأوصلوهم لمصر وهم في أسوأ الحال، وصحبتهم أيضاً من النساء اللاتي كن خرجن ليلة الحادثة وهم في حالة تسكب عند مشاهدتهن العبر، ويتقطع القلب من توالي الحسرات.

شهر ربيع الأول

[٦٨] في ثانيه وصل الإفرنج إلى نواحي القرين[١]، وكان إبراهيم بك[٢] ومن معه وصلوا إلى الصالحية، وأودعوا أحمالهم وحريمهم

---

(١) قرية من قرى الشرقية بمصر.

(٢) وهو أمير مصر الذي انهزم أمام الفرنسيين لما دخلوا القاهرة.

هناك، وضمنوا عليهم العربان وبعض الجند، فأخبر بعض العرب الإفرنج بمكان الحملة، فركب الصاري عسكر وأخذ معه الخيالة قصد الغارة على الحملة، وعلم إبراهيم بيك بذلك أيضاً، فركب هو وصالح بيك وعدة من الأمراء والمماليك، وتلاقوا مع الفرنسيس الخيالة الذين كانوا مع الصاري عسكر، وتحاربوا ساعة أشرف فيها الإفرنج على الهزيمة والدمار؛ لكون خيالة الإفرنج لا قدرة لهم على قتال المماليك، وإذا الخبر وصل إلى إبراهيم بيك بأن العرب مالوا إلى الحملة، وقصدهم نهبها، فرجع على إثره بمن معه، وترك قتال الفرنسيس، ولحق العرب وجلاهم من متاعه وقتل منهم عدة أشخاص، وارتحل إلى قطيا[1]، ورجع الصاري عسكر الفرنسيس إلى مصر، وترك عدة من عساكره متفرقين في البلاد، فدخل مصر ليلاً، وذلك ليلة الخميس رابعه[2].

[٦٩] وفي يوم الجمعة خامسه الموافق لثالث عشر مسرى القبطي كان وفاء النيل المبارك، فأمر كبير الإفرنج بالاستعداد لذلك، وتزيين العقبة على العادة، وكذلك عدة مراكب وغلايين، ونادوا على الناس بالخروج والتنزه في النيل والمقياس والروضة على عادتهم. هذا مع ماهم عليه ممادهمهم من الفِرْدَة[3] والحث في طلبها ونهب البيوت، وإزعاج النساء والجواري وغيرهن وأخذهن وحبسهن، وعمل المصالحات[4] وغيرها الخارجة عن الحد، وأرسل صاري عسكر

---

(١) بلدة بشبه جزيرة سيناء.
(٢) أي رابع ربيع الأول.
(٣) قال المحقق: أي الغرامة.
(٤) أي المصالحة على الرجوع إلى القاهرة بغرامة مالية لمن فرّ منها وقت دخول الفرنسيين إليها.

أوراقاً لكَتْخُدا الباشا والقاضي وأرباب الديوان وأصحاب المشورة، ومتولي المناصب وغيرهم بالحضور في صبحها، وركب معهم بموكبه وزينته وعساكره وخيوله وزموره، ولم يخرج أحد من الناس في تلك الليلة للتنزه في المراكب على جري العادة سوى النصارى الشوام والقبط والإفرنج ونسائهم، وقليل من الناس البطالين حضروا في صبحها بقلوب منكسرة ونفوس ضعيفة.

[٧٠] وفيه تواترت الأخبار بحضور عدة مراكب من الإنكليز إلى ثغر إسكندرية، وحاربوا مراكب الفرنسيس بالميناء، وكانت أشيعت هذه الأخبار من مدة أيام، وتحادث بها الناس، فصعب ذلك على الإفرنج وشق عليهم، واتفقوا أن بعض النصارى نقل عن رجل شريف يقال له السيد أحمد الزور - من تجار وكالة الصابون بخط الجمالية - أنه تحدث بذلك، فأمروا بإحضاره وذكروا له ذلك، فأنكر وقال: إنني سمعت من فلان نصرانيّ، فأحضروه أيضاً وأمروا بقطع لسان الاثنين، أو يدفع كل واحد مائة ريال فرانسه، فتشفعوا المشايخ فلم يقبلوا، فقال بعضهم: أطلقوهم ونحن نأتيكم بالدراهم فلم يمكن، فأرسل الشيخ مصطفى الصاوي وأحضر مائتين ريال فرانسه ودفعهم في الحضرة، فلما قبضهم ردهم إليه وقال: فرقوهم على الفقراء، فأظهر أنه فرقهم كما أشار وردهم إلى أصحابهم، فانكف الناس عن التكلم في شأن ذلك. والواقع أن الإنكليز حضروا في إثرهم إلى إسكندرية، وحاربوا مراكبهم، فنالوا منهم، وحرقوا قايقهم الكبير المسمى بنصف الدنيا، وكان به أموالهم وذخائرهم[1]، واستمروا الإنكليز بمراكبهم قبال

---

(١) وهذه موقعة أبي قير البحرية الشهيرة التي وقعت بين الإنجليز بقيادة نلسن والفرنسيين، فانتصر نلسن، ودمر جميع المراكب والسفن الحربية الفرنسيَة، =

إسكندرية يغدون ويروحون يرصدون الفرنسيس.

[٧١] وفيه[١] سأل صاري عسكر عن المولد النبويّ ولماذا لا يعملونه كعادتهم، فاعتذر الشيخ البكري[٢] بتوقف الأحوال وتعطل الأمور، وعدم المصروف، فلم يقبل، وقال: لا بد من ذلك، وأعطى الشيخ البكريَّ ثلاثمائة ريال فرانسه يستعين بها، فعلقوا أحبال وقناديل واجتمع الفرنسيس يوم المولد ولعبوا ميدانهم ودقوا طبولهم[٣].

وفيه ورد الخبر بأن إبراهيم بيك والأمراء المصرية بغزة استقروا.

[٧٢] وفي خامس عشرة سافر عدة من الإفرنج إلى جهة الصعيد وعليهم صاري عسكر المتولي على الصعيد اسمه دزه[٤] وبصحبتهم يعقوب القبطي[٥] ليدبر لهم الأمور، ويعمل لهم أنواع المكر والخداع

= وكان ذلك في ١٧ صفر سنة ١٢١٣، وقُطعت المواصلات بين فرنسا ومصر بسبب هذه الحادثة: انظر «تاريخ الدولة العلية»: ٣٧٤.

(١) أي في شهر ربيع الأول.

(٢) أي خليل البكري، وقد سبقت ترجمته.

(٣) قال المحقق: أي قاموا باستعراض حربيّ. وحرص الفرنسيين على المولد إنما هو لإلهاء الشعب المصري.

(٤) اسمه بالفرنسية «ديزيه».

(٥) وهو يعقوب حنّا: ولد سنة ١١٥٨ وتوفي سنة ١٢١٦، وقد قاد جيشاً نصرانياً قبطياً جنّده منَ أقباط مصر الذين خانوا ونكثوا العهد والذمة، وكان يعقوب قد استطاع تكوين جيش قوامه ألفان من الأقباط. وقد تدرج يعقوب هذا في مناصب الجيش الفرنسيّ، ومنحه كليبر - الذي تولى بعد نابليون وقتله سليمان الحلبي، رحمه الله تعالى، كما سيأتي في صلب الكتاب - رتبة كولونيل، ومنحه «منو» القائد الفرنسي بعد كليبر رتبة جنرال سنة ١٢١٦: انظر المقالة القيمة للدكتور محمد عمارة في مجلة «المجتمع»: عدد ١٢٩٧ تاريخ ١٤١٩/١/٧، وقد نقل د. عمارة أكثر هذه الأخبار عن تاريخ الجبرتيّ: «عجائب الآثار في التراجم والأخبار». وصار كل من يعمل عمل يعقوب هذا في مصر يسمى «تلميذ المعلم يعقوب».

ويطلعهم على الخبايا، ويصنع لهم الحيل، فمنها أنه كان يرسل الجماعة من الإفرنج لقبض الأموال وطلب الكُلف، ويُلبس البعض منهم لبس العثمنلي[1]، ويكتب لهم التحذير من المخالفة، ويذكر لهم أن هذا أمر سلطانيّ، فيروج ذلك على كثير من أهل البلاد، ويمتثلون الأوامر[2].

[٧٣] وفيه حضر القاصد الذي كان أرسله الإفرنج بمكاتبة وهدية إلى أحمد باشا الجزار[3] بعكا وذلك عند استقرارهم بمصر، وصحبته اثنان أو ثلاثة من نصارى الشوام في صفة تجار، ومعهم جانب رز، وكان من خبرهم على ما نقل: أنهم نزلوا من ثغر دمياط في مركب من مراكب أحمد باشا، فلما وصلوا إلى عكا وعلم بهم أحمد باشا أمر

---

(١) أي الجنود العثمانيين.

(٢) لم تكن مهمة الفرنسيين في الصعيد سهلة بل إنهم ووجهوا بمقاومة ثلاثية مكونة من الأهالي والمماليك وعرب الحجاز الذين كان لهم يدٌ طولى في تلك المقاومة باعتراف المصادر الفرنسية عن الحملة إلى الصعيد.
وقد قاومهم مراد بك مع مماليكه لكنه هُزم أمامهم في عدة مواقع ثم لم يلبث أن استمالوه إليهم وصار أميراً لهم على الصعيد، واستمرت مقاومة الأهالي بدون مساندة من المماليك. انظر مقالة «صعيد مصر والحملة» في جريدة الحياة: عدد ١٢٩٢٣ في ٢٨ ربيع الأول ١٤١٩.

(٣) أحمد باشا الشهير بالجزار. أصله من البوسنة، سلك في سلك الجندية في مصر، وترقت به الأحوال لنجابته وشجاعته، ولقب الجزار لبطشه بخصومه والتنكيل بهم. ثم فر من مصر لأمور اقتضت ذلك، ثم رجع إليها وخرج بعدها إلى الشام واشترى مماليك واشتهر أمره فقُلد الوزارة في عكا فعمر أسوارها وقلاعها، واتخذ جنداً كثيفاً، وامتلأت خزانته بالأموال فتولى ولاية الشام، وعاقب على الذنب الصغير بالقتل والتمثيل وقطع الأنوف والآذان والأطراف، ولم يغفر زلة لأحد، وكاد البلاد وقهر العباد، ونصبت الدولة العثمانية له فخاخاً فكان ينجو منها، ثم إنها سالمته وهادنته فطار سيطه في الممالك الإسلامية والفرنجية على السواء. ثم كان له موقف حسن وثبات أمام الفرنسيين، حاصروا عكا فلم يقدروا عليه. توفي سنة ١٢١٩ رحمه الله. انظر «عجائب الآثار»: ٣/ ٣٢١ ـ ٣٢٣.

بذلك الإفرنجي فنقلوه لبعض النقاير[1]، ولم يقابله ولم يأخذ منه شيئاً، وأمره بالرجوع من حيث جاء، وعوق عنده النصارى الشوام الذين كانوا بصحبته.

[٧٤] وفيه حضر جماعة من الإفرنج إلى بيت رضوان كاشف[2] بباب الشعرية وصحبتهم مهندس، فانزعجت زوجته، وكانت قبل ذلك بأيام صالحت على بيتها ونفسها بألف وثلاثمائة ريال، وأخذت منه ورقة ولصقتها على باب دارها، وردت ما كانت وادعة من الأمتعة واطمأنت، فلما حضر إليها هؤلاء الجماعة، قالت لهم: ما تريدون وقد دفعت ما صار الصلح عليه، فقالوا لها: بلغنا أن عندك أسلحة وملابس للمماليك، فأنكرت ذلك، فقالوا: لها لابد لنا من التفتيش، فقالت: دونكم، فطلعوا إلى مكان، وفتحوا مخبأ فوجدوا فيه أربعة وعشرين شروالاً من ملابس الغزّ، وأمتعة وغير ذلك، ووجدوا في أسفله مخبّأة أخرى بها عدة كثيرة من الأسلحة، مثل بارودات وطبنجات وصناديق بارود وغير ذلك، فأخرجوا جميع ذلك، ثم نزلوا لتحت الأرض وأخرجوا منها دراهم وحجاب ذهب في داخله دنانير، فأخذوا جميع ذلك، ثم أنزلوا صاحبة الدار ومعها جارية بيضاء، فأخذوهما مع جواريهما السود، وذهبوا بهن فأقمن عندهم ثلاث ليال، ونهبوا ما وجدوه من فرش وأمتعة، ثم قرروا عليها أربعة آلاف ريال أخرى، قامت بدفعها وأطلقوها ورجعت إلى بيتها.

[٧٥] وبسبب هذه الحادثة شدوا في طلب الأسلحة، ونادَوْا بذلك

---

(١) هي السفن الصغيرة، وانظر «المعجم الوسيط»: ن ق ر.

(٢) لم أعثر له على ترجمة.

وأنهم بعد ثلاثة أيام يفتشون البيوت، وكل من وجدوا عنده سلاحاً قتلوه، فخافت الناس من تفتيش البيوت، وقالوا: هذه حيلة على نهب البيوت، ثم بطل ذلك.

[٧٦] وفي عشرينه قلدوا مصطفى بيك كَتْخُدا الباشا على إمارة الحاج، فأحضروه إلى المحكمة وألبسوه هناك بحضرة مشايخ الديوان، والتزم بونابارته بجميع مهمات الحاج، وعمل محملاً جديداً.

[٧٧] وفيه قطعوا كُلف وتفاريد[١] على البلاد، وكتبوا بذلك أوراقاً وذكروا فيها أنها تحسب من المال، ورتبوا لذلك صيارف من القبط، ونزلوا في البلاد كالحكام، وبلغوا أغراضهم في المسلمين بالضرب والحبس والإهانة، والتشديد في الطلب والتخويف بإحضار عساكر الفرنج إن لم يدفعوا المقرر بسرعة، وكل ذلك بتدبير القبط ومكرهم.

[٧٨] وفيه طلب صاري عسكر بونابارته المشايخ، فلما استقروا عنده نهض بونابارته من المجلس ورفع بيده طيلسانات[٢] ملونة بثلاثة ألوان، كل طيلسان أبيض وأحمر وكحلي[٣]، فوضع منهم واحداً على كتف الشيخ الشرقاوي، فرمى به على الأرض واستعفى وتغير لونه، فقال الترجمان: يا مشايخ أنتم صرتم أحباب صاري عسكر، وهو قصد تعظيمكم وتشريفكم، فإنكم إذا تميزتم بذلك عظمتكم الناس والعساكر

---

(١) أي غرامات مقطوعة على كل بلد تأديتها.

(٢) نوع من الأوشحة ـ جمع وشاح ـ يلبس على الكتف أو يحيط بالبدن خال من التفصيل والخياطة، ويعرف في مصر بـ «الشال»، ويقال الطالسن أيضاً، وهو من الفارسيّ المعرب: انظر «المعجم الوسيط»: ط ل س.

(٣) أي بألوان العلم الفرنسيّ.

وصار لكم منزلة في قلوبهم، فقالوا له: لكن قدرنا ينحط عند الله وعند إخواننا المسلمين، فاغتاظ لذلك، ورطن بلسانه، وبلغ عنه بعض التراجمين أنه قال عن الشيخ عبدالله: هذا لايصلح للرياسة ونحو ذلك، فلاطفه بقية الجماعة واستعفوهم من تلك الشالات، فقال: إن لم يكن ذلك فلازم من وضعكم (الجوكار) في صدوركم، وهي العلامة التي يقال لها الوردة، فقالوا: أمهلونا حتى نتروى في ذلك، واتفقوا على اثني عشر يوماً.

[٧٩] وفي ذلك الوقت حضر الشيخ السادات باستدعاء، فصادفهم منصرفين، فلما استقر به الجلوس بَشّ إليه وضحك له الصاري عسكر، وتملق بين يديه بلطيف القول الذي يعربه الترجمان، وصار يقبل يده تارة وركبته أخرى، ويظهر له المحبة والصداقة وأهدى له خاتم ألماس، وكلفه للحضور عنده من الغد، وقام وانصرف.

[٨٠] في ذلك اليوم نادى جماعة القُلُقات[1] على الناس بوضع العلامات المعروفة بالوردة، وهي عبارة عن ظهور علامة أمارة الطاعة والمحبة عندهم، فأنف غالب الناس من ذلك، وبعضهم رأى أن ذلك لايخل بالدّين، إذ هو مكره، ويترتب على عدم الامتثال مزيد الضرر، فوضعها، ثم في عصر ذلك اليوم نادوا بإبطالها من العامة، وألزموا بعض الأعيان ومن يريد الدخول عندهم لحاجة من الحاجات بوضعها، فكانوا يضعونها إذا حضروا عندهم، ويرفعونها إذا انفصلوا عنهم، وذلك أياماً قليلة، وحصل ما يأتي ذكره، فتركت.

---

(١) أي الحرس، وأصل المعنى: دار الحُرّاس، واستعملها الجبرتيّ بمعنى الحرس والحارس، وانظر «تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتيّ»: ١٧٠.

[٨١] وفي أواخره شرع الفرنسيس في عمل عيد لهم ببركة الأزبكية، وسبب هذا العيد أنهم لما قتلوا سلطانهم[١]، وظهرت بدعتهم التي ابتكروها، وخرجوا بها عن الطرائق والملل، جعلوا ذلك اليوم عيداً وتاريخاً، وهو موافق للاعتدال الخريفي، فنقلوا أخشاباً وحفروا حفراً وأقاموا صارياً عظيماً بآلات، وعملوا في أعلاه قالباً من الخشب المربع الأركان، ولبّسوا باقيه على سمت القالب قماشاً ثخيناً مصور فيه مثال حرب المماليك المصرية معهم، وهم في شبه المنهزمين، بعضهم واقع على بعض، وبعضهم متلفت خلف ظهره.

شهر ربيع الثاني

[٨٢] وفي ثالثه حضرت مكاتيب من إبراهيم بيك خطاباً للمشايخ وغيرهم، مضمونها أنكم تكونون مطمئنين ومحافظين على أنفسكم والرعية، وأن حضرة مولانا السلطان وجه لنا عساكر، وإن شاء الله عن قريب نحضر عندك، فلمّا وردت تلك المكاتبة، وقد كان سأل عنها بونابارته، فأرسلوها له، وقُريت له، فقال : المماليك كذابون.

[٨٣] ووافق أيضاً أنه حضر أغا رومي كان معوقاً بالإسكندرية، فمرّ بالشارع وذهب لزيارة المشهد الحسينيّ، فشاهده الناس، فاستغربوا هيئته وفرحوا برؤيته، وقالوا: هذا ألجي[٢] حضر من عند

(١) قال المحقق: يقصد ملكهم لويس السادس عشر.
(٢) أي سفير، وانظر «تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتيّ»: ٢٥.

مولانا السلطان بجواب للفرنسيس يأمرهم بالخروج من مصر، واختلفت رواياتهم وآراؤهم واجتمعوا بالمشهد الحسيني، وتبع بعضهم بعضاً، وصادف أن بونابارته في ذلك الوقت بلغه مما نقل وتناقل بين الناس أنه ورد مكتوب إلى المشايخ أيضاً وأخفوه، فركب من فوره وحضر إلى بيت شيخ السادات بالمشهد الحسيني، فلما مر بعسكره وطوائفه في ذلك الوقت ورآه الناس المجتمعة بخط المشهد الحسيني، وشاهد الآخر جمعيتهم تحقق الناس ما توهموه، وداخل الفرنسيس أمر من ذلك أيضاً، وعندما رأى العامة بونابارته خارجاً من بيت شيخ السادات راكباً على فرسه، وخلفه الخيالة بأيديهم السيوف المسلولة كعادتهم، صاحوا بأجمعهم وقالوا: الفاتحة، بصوت عال، فشخص وصار يسأل من معه عن ازدحامهم وصياحهم، فلطفوا له القول، وكان لما دخل إلى دار شيخ السّادات نزل إليه الشيخ وواجهه بعد ما انزعج هو وعياله لورود هؤلاء عليهم في وقت القائلة، على حين غفلة، فلما استقرّ به الجلوس سأل عن تلك المراسلة فأجابه بعدم علمه بشيء من ذلك، فألح عليه، فحلف له وتنصّل، فلم يصدق، وقال له: لعلّه وصل إلى غيرك، فأحضروا الشيخ الشرقاويّ وبعض المشايخ فجحدوا ذلك، ثم قام فركب وذهب إلى داره، وكانت نكتة غريبة، وساعة اتفاقية عجيبة، كاد ينشأ منها فتنة لولا ألطاف الله تعالى.

[٨٤] وفي يوم السبت حادي عشرة[١] كان يوم عيدهم الموعود، فضربوا في صبحية ذلك اليوم مدافع كثيرة، ووضعوا على كل قائم من الخشب بنديرة من بنديراتهم الملونة، وطلبوا ضرب الطبول،

---

(١) أي حادي عشر ربيع الآخر، كما سبق.

واجتمعت عساكرهم بالبركة، واصطفوا صفوفاً على طرائقهم المعروفة بينهم، ودعوا المشايخ وأعيان المسلمين والقبط والشوام، فاجتمعوا ببيت كبيرهم وصاري عسكرهم بونابارته، وجلسوا حصة من النهار، ولبس النصارى من القبط والشوام ملابس الافتخار، وتعمموا بعمائم كشمير، وركبوا بغال القاهرة، وأظهروا البشرى والسرور في ذلك اليوم إلى الغاية، ثم نزل عظماؤهم وصحبتهم المشايخ والقاضي وكَتْخُدا الباشا، فركبوا وذهبوا للصاري الكبير الموضوع بوسط الأزبكية، وكانوا فرشوا في أسفله بسطاً كثيرة، ثم إن العساكر لعبوا ميدانهم وعملوا هيئة حربهم، وضربوا البندق والمدافع، فلما انقضى ذلك اصطفت العساكر صفوفاً حول ذلك الصاري، وقرأ عليهم كبير قسوسهم ورقة بلغتهم، لا يدري معناها إلا أهلها، ولعلها كالوصية أو النصيحة أو الوعظ، ثم قاموا وانفض الجمع، ورجع الصاري عسكر إلى داره، فمد سماطاً عظيماً للحاضرين، فلما كان عند الغروب أوقدوا جميع القناديل التي على الجبال والتماثيل والأعمال التي على البيوت، وعند العشاء عملوا حُرّاقة بارود وصواريخ ونفوط[1] وشبه سواقي ودواليب من نار ومدافع كثيرة نحو ساعتين من الليل، واستمرت القناديل موقودة حتى طلع النهار، ثم فكوا الأحبال والتعاليق والتماثيل المصنوعة، وبقيت البوابة المقابلة لباب الهوى والصاري الكبير، وتحته جماعة ملازمون الإقامة عنده ليلاً ونهاراً من عساكرهم؛ لأنه شعارهم وإشارة إلى قيام دولتهم في زعمهم، عجل الله زوالها من جميع الأرض.

---

(١) ألعاب نارية تعمل عند الأفراح والأعياد.

[٨٥] وفيه[1] نادوا بوقود قناديل سهّارى بالطرق والأسواق، وأن يكون على باب كل دار قنديل، وعلى كل ثلاثة دكاكين قنديل، وأن يلازموا الكنس والرش وتنظيف الطرق من الأوساخ والأوخام والقطاط الميتة، هذا مع ما هم فيه من القذارة في بيوتهم وأزقة مساكنهم، وكثرة أتراب الوسخة وما يختلط بها من ريش الطيور ومصارين الحيوان وفضلات مآكلهم، ورائحة شرابهم، وحموضة مسكراتهم وبولهم وغائطهم، بحيث إن المار يسد أنفه حتى يتجاوز عنهم.

[٨٦] وفيه أهمل أمر الديوان الذي يحضره المشايخ ببيت قائد أغا، فأقاموا أياماً يذهبون فلا يأتيهم أحد، فتركوا الذهاب، فلم يُطْلبوا.

[٨٧] وفيه شرعوا في ترتيب ديوان آخر وسموه محكمة القضايا، وكتبوا في شأن ذلك طومارا[2]، وشرطوا فيه شروطاً بألفاظ يعافها الطبع، ويمجها السمع، ورتبوا به ستة من القبط وستة من تجار المسلمين، وقاضيه الكبير ملطي القبطي، الذي كان كاتباً عند أيوب بيك الدفتردار، وفوضوا إليه القضايا في أمور التجار والعامة والمواريث والدعاوى، وجعلوا لذلك الديوان قواعد من الخبث، وأساساً من الكفر، ودعائم من الظلم، وأركاناً من البدع السيئة، وكتبوا نسخاً على مفارق الطرق ورءوس العُطف وأبواب المساجد وشرطوا في ضمنه شروطاً، وفي ضمن تلك الشروط شروط أخرى، وذلك بتعبيراتهم الكثيفة وألفاظهم السخيفة، محصلها التحيل على سلب

---

(١) أي في شهر ربيع الآخر.
(٢) الطامور والطومار: الصحيفة: انظر«المعجم الوسيط»: ط م ر.

أموال الناس، ونزع ما بأيديهم من مال وعقار وميراث وغير ذلك، كقولهم وما يفهم بعد التأمل الكثير في عبارتهم بأن أصحاب الأملاك يأتون بحججهم وسنداتهم الناطقة لهم بالتمليك، فإذا أحضروها وبينوا وجه تملكهم لها إما بالبيع أو الانتقال لهم بالإرث عن أسلافهم لا يُكتفى بذلك بل يؤمر بالكشف عليها في السجلات، ويدفع على ذلك الكشف دراهم بقدر عينوه في ذلك الطومار، فإن وجد تمسكه مقيداً في السجل طلب منه بعد ذلك الثبوت، فإن أثبته بشهادة البينة وقبلوها دفع مقرراً آخر على ذلك الإشهاد، وكتب بذلك تصحيحها ثم يكتب له على ذلك تمكين، وينظر بعد ذلك في قيمته ويدفع على كل مائة اثنين، فإن لم يكن له حجة أو كانت لم تكن مقيدة بالسجل، أو مقيدة ولم يثبت ذلك التقييد، فإنها تضبط لديوان الجمهور، وتصير من حقوقهم، وهذا من أخبث التحيل على نزع الأملاك والعقارات من أيدي أربابها، وذلك أن الناس لما وضعوا أيديهم على أملاكهم إما بالشراء وإما بالإرث أو نحو ذلك بحجة قريبة أو بعيدة العهد، أو بحجج أسلافهم ومورثيهم، فإن طولبوا بإثبات مضمونها وسجلاتها تعسر أو تعذر لحادث الموت أو الأسفار، أوربما حضرت الشهود فلم تقبل، فإن قبلت فعل به ما ذكر.

ومن الشروط مقررات على المواريث والموتى، ومقاديرها متنوعة في القلة والكثرة، كقولهم إذا مات الميت يشاوَرُ عليه، ويدفعون قدراً للمشاورة، ويفتحون تركته بعد أربعة وعشرين ساعة، فإن بقيت أكثر من ذلك ضبطت للديوان أيضاً، ولا حق فيها للورثة، وإن فتحت على الرسم بإذن من الديوان يدفع على ذلك الإذن مقرر، وكذلك على ثبوت الورقة، ثم عليهم بعد قبض ما يخصهم مقرر، وذلك بزيادة

كثيرة، وكذلك من يدعي ديناً على الميت يثبته بديوان الحشر، ويدفع على إثباته مقرراً، ويأخذ له ورقة يتسلم بها دينه، فإذا استلمه دفع المقرر الزايد، ومثل ذلك في الالتزام والرزق والأطيان بشروط وأنواع وكيفية أخرى غير ذلك في الهبات والمبايعات والدعاوى والمنازعات والمشاجرات والإشهارات الجزئيات والكليات، والمسافر كذلك لا يسافر إلا بورقة، ويدفع عليها مقرراً، وكذلك المولود إذا ولد، ويقال له: «إثبات الحياة»، وكذلك المؤاجرات وقبض أجر الأملاك وغير ذلك.

[٨٨] وفيه نادى أصحاب الدَرَك[١] على العامة بترك الفضول والكلام في أمور الدولة، وإذا مر عليهم جماعة من العسكر مجروحين أو منهزمين لا يصرخون بهم، ولا يصفقون عليهم كما هي عادتهم.

[٨٩] وفيه أمروا سكان القلعة بالخروج من منازلهم إلى المدينة ليسكنوا بها، فنزلوا وطلعوا إلى القلعة مدافع ركزوها بعدة مواضع، وهدموا بها أبنية كثيرة، وشرعوا في بناء حيطان وكرانك وأسوار، وهدموا أبنية عالية، وغيروا معالمها وأبدلوا محاسنها، ومحوا ما كان بها من معالم السلاطين، وآثار الحكماء والعظماء، وسلبوا ما كان بأبوابها العظام وإيواناتها الفخام، من الأسلحة والدَّرَق[٢] والبُلَط[٣] والخَوْذات والحراب الهنْدية، وهدموا قصر يوسف صلاح الدين، ومحاسن الملوك والسلاطين ذوات الأركان الشاهقة، والأعمدة الباسقة، وكذلك ما بها من المساجد والزوايا والمشاهد، وشوهوا

---

(١) أي الشرطة والحرس.
(٢) أي التروس المصنوعة من الجلود القاسية.
(٣) جمع بَلْطة، وهي الفأس: انظر «المعجم الوسيط»: ب ل ط.

المسجد العظيم والجامع المشيد الفخيم الذي أنشأه صاحب المفاخر محمد بن قلاوون الملك الناصر، فقلعوا منبره، وشعثوا إيوانه، وأخذوا أخشابه، وزعزعوا أركانه، وأزالوا المقصورة الجديدة البديعة الإتقان، التي كان يصلّي بداخلها السلطان، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

[٩٠] وفيه نبهوا على الناس بالمنع من دفن الموتى في الترب القريبة من المساكن، كبركة الأزبكيّة والرويعي، ولا يدفنون الموتى إلا بالقرافات البعيدة، والذي ليس له تربة بالقرافة يدفن ميته في ترب المماليك، وإذا دفنوا يبالغون في تسفيل الحفر، ونادوا أيضاً بنشر الثياب والأمتعة والفرش بالأسطحة عدة أيام، وتبخير البيوت بالبخورات المُذْهبة العفونة، كل ذلك خوفاً من ظهور الطاعون وعدواه ويقولون: إن العفونة تستخرّ بأغوار الأرض[١]، فإذا دخل الشتاء، وردت الأغوار بسريان النيل والأمطار والرطوبات، خرج ما كان مخبأ في الأرض من الأبخرة الفاسدة، فيتعفن الهواء ويفسد، فيظهر الوباء والطاعون.

[٩١] ومن قولهم أيضاً: إنه إذا مرض مريض لا بدّ من الإخبار عنه، فيرسلون من جهتهم حكيماً للكشف عليه، إن كان بالطاعون أو غيره، ثم يرون رأيهم فيه بعد ذلك.

[٩٢] وفي يوم السبت ثامن عشرة ذهب جماعة من القَوّامة[٢] الذين يخدمون الفرنسيس، وشرعوا في هدم التراكيب المبنية على المقابر بتربة الأزبكية وتمهيدها إلى الأرض، فشاع الخبر بذلك وسمع

---

(١) أي بقعرها.
(٢) الحراس.

أصحاب التُرَب بتلك البقعة، فخرجوا من كل حدب ينسلون، وأكثرهم النساء الساكنات بحارات المدابغ وباب اللوق وكوم الشيخ سلامة والفوالة والمناصرة وقنطرة أمير حسين وقلعة الكلاب، إلى أن صاروا كالجراد المنتشر، ولهم صياح وضجيج، واجتمعوا بالأزبكية، ووقفوا تحت بيت صاري عسكر، فنزل لهم التراجمون، واعتذروا بأن صاري عسكر لا علم له بذلك الهدم ولم يأمر به، وإنما أمر بمنع الدفن فقط، فرجعوا إلى أماكنهم ورفع الهدم عنهم.

[٩٣] وفيه كتبوا من المشايخ[١] كتاباً ليرسلوه إلى السلطان[٢] وآخر إلى شريف مكة، ثم إنهم بصموا منه[٣] عدة نسخ، ورموها بالطرق والأزقة وصورته ملخصاً بعد الصدر[٤] وذكر ورودهم وقتالهم مع المماليك وهروبهم، وأن جماعة من العلماء ذهبت إليهم بالبرّ الغربي فأمنهم وكذلك الرعية، دون المماليك، وذكر فيه أنه من أخصّاء السلطان وأعداء أعدائه[٥]، وأن السكّة والخطبة باسمه وشعائر الإسلام مقامة على ما هي عليه، وباقي الكلام المموه الذي ذكروه بمعنى الكلام السابق من كذبهم وقولهم إنهم مسلمون، ويحترمون النبيّ والقرآن وإنهم أوصلوا الحجاج المشتتين، وأكرموهم وأركبوا الماشي وأطعموا الجائع وسقوا العطشان، وأنفقوا أموالاً برسم الصدقة على الفقراء، وكذلك اعتنوا بالمولد النبويّ وأنفقوا أموالاً في شأن انتظامه

---

(١) أي على لسان المشايخ ليكون أوقع في القلوب.
(٢) أي السلطان العثمانيّ.
(٣) أي طبعوا بمطبعتهم التي أتوا بها معهم.
(٤) قال المحقق: أي المقدمة والتصدير.
(٥) أي عدوّ أعداء السلطان العثمانيّ، وذلك تمويهاً منه على المسلمين.

وعلوّ شأنه، واتفق رأينا ورأيهم على لبس حضرة الجناب المكرم مصطفى أغا كَتْخُدا بكر باشا والي مصر حالاً، فاستحسنا ذلك لبقاء عُلقة[1] الدولة العليّة، وهم أيضاً مجتهدون في إتمام مهمات الحرمين، وأمرونا أن نعلمكم بذلك إلى آخره والسّلام.

[٩٤] في يوم الثلاثاء عملوا المولد الحسيني، وكان العزم تركه في هذا العام، فدسّ بعض المنافقين دسيسة عند الإفرنج، وذلك أنه وقعت المذاكرة بأن من المعتاد أن يعمل مولد الحسيني بعد مولد النبيّ ﷺ، فقال بونابارته: ولماذا لا يعملونه؟ فقال ذلك المنافق: غرض شيخ السّادات عدم عمله إلا إذا حضر المسلمون[2]، فبلغ شيخ السّادات ذلك فشرع في عمله على سبيل الاختصار، وحضر صاري عسكر وشاهد الوقدة ورجع إلى داره بعد العشاء.

[٩٥] وفي يوم الجمعة رابع عشرينه نبهوا على المشايخ والأعيان والتجار ومن حضر من الأقطار بالحضور إلى الديوان العام ومحكمة النظام بكرة تاريخه، وذلك ببيت مرزوق بيك بحارة عابدين، فلما أصبح يوم السبت أعادوا التنبيه بحضورهم بالديوان القديم ببيت قائد أغا بالأزبكية، فتوجهت مشايخ المصرية والذين حضروا من الثغور والبلاد، وحضر أعيان التجار ونصارى القبط والشوام ومدبري الديوان من الفرنسيس وغيرهم، جمعاً موفوراً، فلما استقر بهم الجلوس شرع ملطي القبطي الذي عملوه قاضياً في قراءة فَرَمان[3] الشروط وفي المناقشة، فابتدر كبير المدبرين في إخراج طومار آخر وناوله

---

(١) أي صلة.

(٢) أي العثمانيون.

(٣) هو المنشور والبيان.

للترجمان، فنشره وقرأه، ملخصه ومضمونه الإخبار بأن قطر مصر هو المركز الوحيد، وأنه أخصب البلاد، وكان يجلب إليها المتاجر من البلاد البعيدة، وأن العلوم والصنايع والقراءة والكتابة التي يعرفها الناس في الدنيا أخذت عن أجداد أهل مصر الأوَل، ولكون قطر مصر بهذه الصفات طمعت الأمم في تملكه، فملكه أهل بابل واليونان والعرب والترك، إلا أن الدولة الأشد خراباً له هم الترك، فإنهم إذا حصلوا الثمرة قطعوا أصولها، فلذلك لم يبقوا بأيدي الناس إلا النزر اليسير[١]، وصار الناس لأجل ذلك مختفين تحت حجاب الفقر وقاية لأنفسهم من سوء ظلمهم، ثم إن طائفة الفرنساوية بعد ما تمهد أمرهم، وبَعُد صيتهم بقيامهم بأمور الحرب اشتاقت أنفسهم لاستخلاص مصر مما هي فيه، وإراحة أهلها من تغلب هذه الدولة جهلاً وغباوةً، فقدموا وحصل لهم النصرة، ومع ذلك فلم يتعرضوا لأحد من الناس، ولم يعاملوا الناس بقسوة، وإن غرضهم تنظيم أمور مصر، وإجراء خُلجانها التي دَرَست[٢] ويصير لهما طريقان:

طريق إلى البحر الأسود وطريق إلى البحر الأحمر، فيزداد خصبها وريعها، ومنع القوي من ظلم الضعيف وغير ذلك، استجلاباً لخواطر أهلها وإبقاء للذكر الحسن، فالمناسب من أهلها ترك الشغب وإخلاص المودة، وإن هذه الطوايف المحضرة من الأقاليم يترتب على حضورها أمور جليلة، لأنهم أهل خبرة وعقل، فيسألون عن أمور ضرورية ويجيبون عنها، فينتج لصاري عسكر من ذلك ما يليق صنعه، إلى آخر ما سطروه من الكلام المطول المحرف، والقول المعوج المزخرف.

---

(١) القليل التافه.

(٢) أي انطمست.

قلت: ولم يعجبني في هذا التركيب إلا قوله جهلاً وغباوة[1] بعد قوله: اشتاقت أنفسهم لاستخلاص مصر، ومن جهله وغباوته أيضاً وكذبه الصريح قوله بعد ذلك: ومع ذلك فلم يتعرضوا لأحد إلى آخر العبارة.

[٩٦] ثم قال الترجمان: نريد منكم يا مشايخ أن تختاروا شخصاً منكم يكون كبيراً ورئيساً عليكم، تمتثلون أمره وإشارته، فقال بعض الحاضرين: الشيخ الشرقاويّ، فقال: نو، نو، وإنما ذلك يكون بالقرعة، فعملوا قرعة بأوراق، فطلع الأكثر الشيخ الشرقاوي.

فقال حينئذ: يكون الشيخ عبد الله الشرقاوي، هو الرئيس، فما تم هذا الأمر حتى زالت الشمس، فأذنوا لهم في الذهاب، وألزموهم بالحضور في كل يوم.

[٩٧] وفيه وقعت كائنة الحاج محمد بن قيمر المغربي التاجر الطرابلسي، وهو أنه كان بينه وبين نصارى الشوام التراجمين[2] منافسة، فأنهوا إلى[3] عظماء الفرنسيس أنه ذو مال وأنه شريك عبد الله المغربيّ تابع مراد بيك[4]، فأرسلوا بطلبه، فذهب لبيت الشيخ عبد الله الشرقاوي لنسابة بينهما، فقال الشيخ للقواسة بعد سؤالهم عن سبب طلبهم له، فقالوا: لدعوة شرعية، فقال لهم: في غد أحضروا خصمه، ويتداعى معه، فإن توجه الحق عليه ألزمناه بدفعه، فرجعت الرسل

---

(١) أي لإمكان رجوع هذا الحال على الفرنسيين.
(٢) أي المترجمين.
(٣) أي أخبر.
(٤) أي أمير المماليك المنهزم أمام الفرنسيين، وانظر ترجمته من فقرة [٢٩٩] ومابعدها.

وتغيب الرجل لخوفه، فبعد مضي مقدار ساعة حضر نحو خمسين من العسكر بأمر الفرنسيس إلى بيت الشيخ وطالبوه به، فأخبرهم أنه هرب، فلم يقبلوا عذره وألحوا في طلبه، ووقعت منهم أمور غير لائقة، فذهب المهدي والدواخلي إلى صاري عسكر وأخبروه بالقضية، وبهروب الرجل، فقال: لأي شي هرب؟ فقالوا: من خوفه، فقال: لولا أن ذنبه كبير لما هرب، وأنتم غيبتموه، وأظهر الحَنَق والغيظ، فلاطفوه واستعطفوا خاطر الترجمان، فكلمه وسكن غيظه، ثم سأل عن منزله ومخزنه، فأخبروه عنهما، فقال: يذهب معكما من يختم عليهما حتى يظهر في غد، فاطمأنوا لذلك ورجعوا عند الغروب، وختموا على مخازنه ومنزله وأصبحوا نهبوهما وما فيهما من أموال الجيران وأموال الشركاء والتجار، وكانت عنده أمانات كثيرة للناس لأنه مستأمن عند التجار.

[٩٨] وفي يوم الأحد ذهبوا إلى الديوان وعملوا مثل عملهم الأول حتى تمموا أسماء المنتخبين بديوان مصر والثغور من المشايخ والأوجقلية والقبط الشوام وتجار المسلمين، وذلك الترتيب غير الترتيب السابق.

وفي يوم الاثنين اجتمعوا بالديوان ونادى المنادي في ذلك اليوم بالأسواق على الناس بإحضارهم حجج أملاكهم إلى الديوان، والمهلة ثلاثون يوماً، فإن تأخر عن الثلاثين يضاعف المقرر، ومهلة البلاد[1] ستون يوماً، ولما تكامل الجميع شرع ملطي في قراءة المنشور وتعداد ما به من الشروط مسطور، وذكر من ذلك أشياء، منها: أمر المحاكم،

---

(١) أي الواقعة خارج القاهرة.

والقضايا الشرعية، وحجج العقارات، وأمر المواريث، وتناقشوا في ذلك حصة من الزمان، وكتبوا هذه الأربعة أشياء، وأرباب ديوان الخاصة يدبرون رأيهم في ذلك، وينظرون المناسب والأحسن وما فيه الراحة لهم وللرعية ثم يعرضون ما دبّروه يوم الخميس وما بين ذلك لهم مهلة، وانفضّ المجلس.

شهر جمادى الأولى

[٩٩] استهل بيوم الخميس الموعود، واجتمعوا بالديوان ومعهم ما لخصوه واستصوبوه في الجملة، فأما أمر المحاكم والقضايا فالأولى بقاؤها على ترتيبها ونظامها، وعرفوهم عن كيفية ذلك، ومثل ذلك ما عليه أمر محاكم البلاد فاستحسنوا ذلك، إلا أنهم قالوا: يحتاج إلى ضبط المحاصيل وتقريرها على أمر لا يتعداه القضاة ولا نوّابهم، فقرروا ذلك، وهو إذا كانت عشرة آلاف فما دونها يكون على كل ألف ثلاثون، وإذا كانت خمسين ألف فمادونها يكون على الألف عشرون، وإذا كان المبلغ مائة ألف يكون على الألف خمسة عشر، فإن زاد على ذلك فعشرة، واتفقوا على تقرير القضاة ونوابهم على ذلك، وأما حجج العقارات فهذا أمر مشق طويل الذيل[١]، فالمناسب فيه والأولى أن تجعلوا عليها دراهم من بادي الرأي ليسهل تحصيلها ويحسن عليها السكوت، أعلى وأوسط وأدنى، وبينوا القدر المناسب بتفصيل الأماكن

---

(١) أي صعب كثير التفاصيل.

وكتبوه وأبقوه حتى يرى الآخرون رأيهم فيه، وانفضّ.

[١٠٠] وفي ذلك اليوم نودي في الأسواق بنشر الثياب والأمتعة خمسة عشر يوماً، وقيدوا على مشايخ الأخطاط والحارات والقلقات بالتفحص والتفتيش، فعينوا لكل حارة امرأة ورجلين يدخلون البيوت للكشف عن ذلك، فتطلع المرأة إلى أعلى الدار، وتخبرهم عن نشر الثياب ويغطونها بعض دراهم، ويذهبون بعد التأكيد على أهل المنزل وشدة التعنت، وأنهم بعد أيام يأتي إليهم جماعة الإفرنج ويطلعون أيضاً يفتشون، وكل ذلك حتى تذهب من الثياب رائحة الطاعون، وكتبوا بذلك أوراقاً لصقوها بحيطان الأسواق على عادتهم في ذلك.

[١٠١] وفيه حضر لبيت البكري جمع غفير من أولاد الكتاتيب والفقهاء، والعميان المؤذنين وأرباب الوظايف والمستحقين من المرضى بالمارستان[1] المنصوري وأوقاف عبد الرحمن كَتْخُدا وشكوا من قطع رواتبهم وخبزهم، فإن جميع الأوقاف تعطل إيرادها وانقطع راتبها واستولى على نظارة الأوقاف النصارى القبط والشوام وجعلوا ذلك مغنماً لهم، فلما اجتمعوا بضجتهم وصياحهم فواعدوهم على حضورهم الديوان، ويُنهون شكواهم ويتشفعون لهم فذهبوا راجعين.

[١٠٢] وفي يوم الأحد اجتمعوا بالديوان وأخذوا فيما هم فيه، فذكروا أمر المواريث، فقال اللعين ملطي: يامشايخ: أخبرونا عما تصنعونه في قسمة المواريث، فأخبروه بفروض المواريث الشرعية، فقال: ومن أين لكم ذلك؟ فقالوا: من القرآن، وتلوا عليهم بعض آيات المواريث، فقال الإفرنج: نحن عندنا لا نورث الولد، بل نورث البنت

---

(١) أي المستشفى.

ونفعل كذا وكذا بحسب تحسين عقولهم؛ لأن الولد أقدر على التكسب من البنت، فقال ميخائيل كخيل الشامي، وهو من أهل الديوان أيضاً: نحن والقبطة يقسم لنا مواريثنا المسلمون، ثم التمسوا من المشايخ أن يكتبوا لهم كيفية القسمة وسايروهم وواعدوهم بذلك وانفضوا.

[١٠٣] وفي يوم الاثنين عملوا الديوان وكتبوا لهم كيفية قسمة المواريث وفروض القسمة الشرعية وحصص الورثة والآيات المتعلقة بذلك، فاستحسنوا ذلك.

الثورة الجهادية الأولى

[١٠٤] وفي يوم السبت عاشر جمادى الأولى عملوا الديوان وأحضروا قائمة مقررات الأملاك والعقار، فجعلوا الأعلى ثمانية فرانسة، والأوسط ستة، والأدنى ثلاثة، ومن كان أجرته أقل من ريال في الشهر فهو معافى.

وأما الوكايل والخانات والحمامات والمعاصر والسيارج[١] والحوانيت فمنهم من جعلوا عليه ثلاثين وأربعين وكل شيء بحسبانه، وكتبوا بذلك مناشير على عادتهم، ولصقوا بها بالمفارق والطرق، وأرسلوا منها نسخاً للأعيان، وعينوا المهندسين، ومنهم أشخاص لتمييز الأعلى من الأدنى، وشرعوا في الضبط والحصر، وطافوا ببعض الجهات لتمييز الأعلى وتقييد الأسماء.

---

(١) أي معاصر زيت السمسم.

ولما أشيع ذلك في الناس كثر لغطهم واستعظموا ذلك، والبعض استسلم للقضاء، فقام جماعة من العامة وتناجوا في ذلك ووافقهم في ذلك بعض المتعممين الذين لم ينظروا في عواقب الأمور، ولم يتفكر أنه في القبضة مأسور، وأن الملاعين الكفار مالكون القلاع والأسوار، ومحصنون الجميع بآلات الحرب المنيع، فتجمع الكثير من الغوغاء من غير رئيس يسوسهم، ولا قائد يقودهم، وأصبحوا يوم الأحد متحزبين، وعلى الجهاد عازمين، وأبرزوا ما كانوا أخفوه من السلاح وآلات الحرب والكفاح، وحضر السيد بدر[1]، وصحبته حشرات الحسينية، ودُعَّر الحارات البرانية، ولهم صياح عظيم، وهول جسيم؛ ويقولون بصياح في الكلام: نصر الله دين الإسلام، فذهبوا إلى بيت قاضي عسكر، وبه من سبقهم من على شاكلتهم نحو ألف وأكثر، فخاف القاضي العاقبة، وأغلق أبوابه، وأوقف حجابه، فرجموه بالحجارة والطوب، وطلب الهرب فلم يمكنه الهروب، وكذلك اجتمع بالجامع الأزهر العالم الأكبر.

وفي ذلك الوقت حضر اللعين دبوي بطائفة من عساكره وشجعانه، فمرّ بشارع الغورية، وعطف على خط الصنادقيّة، وذهب إلى بيت الشرقاوي فلم يجده، فذهب إلى بيت القاضي فوجد ذلك الزحام، فخاف وخرج من بين القصرين وباب الزهومة وتلك الأخطاط[2] بالخلايق مزحومة، فبادروا إليه وضربوه، وأثخنوا جراحاته وقتلوه، وقُتل الكثير من الفرنسي وأبطاله وشجعانه، وذهبوا إلى السعير وبئس المصير، فعند ذلك أخذ المسلمون حذرهم، وخرجوا يهرعون، ومن كل حدب ينسلون، وأمسكوا الأطراف الدائرة بمعظم أخطاط القاهرة، كباب

---

(١) لم أعثر له على ترجمة.

(٢) أي الحارات والأزقة، جمع خُطة.

الفتوح وباب النصر، وهدموا مصاطب الحوانيت وجعلوا أحجارها متاريس لتواجه هجوم العدو في وقت المعركة، ووقف دون كل متراس جمع`عظيم من الناس، وأما الجهات البرانية والنواحي الفوقانية، فلم يفزع منهم فازع، ولم يتحرك منهم أحد ولم يسارع، وكذلك شذّ عن الوفاق مصر العتيقة وبولاق، وعذرهم الأكبر قربهم من مساكن العسكر، ولم تزل طائفة المحاربين في الأزقة مترسين، فوصل جماعة من الفرنساوية وظهروا من ناحية المناخلية، وضربوا على متراس الشوايين وبه جماعة من مغاربة الفحّامين، فقاتلوهم حتى أجلوهم وعلى المناخلية أزالوهم.

[١٠٥] وعند ذلك زاد الحال، وكثر الرجف والزلزال، وخرجت العامة عن الحد وبالغوا في القضية بالعكس والطرد، وامتدت أيديهم إلى النهب والخطف والسلب، فهجموا على حارة الجوانية، ونهبوا دور النصارى الشوام والأروام وما جاورهم من بيوت المسلمين على التمام، وأخذوا الودائع والأمانات وسبوا النساء والبنات، وكذلك نهبوا خان الملايات وما به من الأمتعة والموجودات، وأكثروا من المعايب ولم يفكروا في العواقب، وباتوا تلك الليلة سهرانين، وعلى هذا الحال مستمرين، وأما الإفرنج فإنهم أصبحوا مستعدين، وعلى تلال البرقية والقلعة واقفين، وأحضروا جميع الآلات من المدافع والقنابر والبُنْبات ووقفوا مستحضرين، ولأمر كبيرهم منتظرين.

[١٠٦] وكان كبيرالفرنسيس أرسل إلى المشايخ مراسلة، فلم يجيبوه عنها، ومل من المطاولة، هذا والحرب والرمي متتابع من الجهتين، وتضاعف الحال ضعفين، حتى مضى وقت العصر، وزاد القهر والحصر، فعند ذلك ضربوا بالمدافع والبُنْبات على البيوت

والحارات، وتعمدوا بالخصوص الجامع الأزهر، وحرروا عليه المدافع والقنبرة وكذلك ما جاوره من الأماكن المحاذية كسوق الغورية والفحامين، فلما سقط عليهم ذلك ورأوه ولم يكونوا في عمرهم عاينوه، نادوا ياسلام من هذه الآلام، ياخفيّ الألطاف نجنا مما نخاف، وهربوا من كل سوق، ودخلوا في الشقوق، وتتابع الرمي من القلعة والكيمان، حتى تزعزعت الأركان، وهدمت في مرروها حيطان الدور، وسقطت في بعض القصور، ونزلت في البيوت والوكايل، وأصمَّت الآذان بصوتها الهائل، فلما عظم هذا الخطب، وزاد الحال والكرب، ركب المشايخ إلى كبير الفرنسيس ليرفع عنهم هذا النازل، ويمنع عسكره في الرمي المتراسل، ويكفهم كما انكف المسلمون عن القتال، والحربُ خُدعة وسجال، فلما ذهبوا إليه واجتمعوا عليه عاتبهم في التأخير، واتهمهم في التقصير، فاعتذروا إليه فقبل عذرهم، وأمر برفع الرمي عنهم، وقاموا من عنده ينادون بالأمان في المسالك، وتسامع الناس بذلك، وتسابقوا لبعضهم بالإشارة والبشارة، واطمأنت منهم القلوب، وكان الوقت قبيل الغروب، وانقضى النهار، وأقبل الليل وغلب على الظن أن القضية لها ذيل، أما أهل الحسينية والعطوف البرانية فإنهم لم يزالوا مستمرين، وعلى الرمي والقتال ملازمين، ولكن خانهم المقصود، وفرغ منهم البارود، والإفرنج أثخنوهم بالرمي المتتابع بالقنبر والمدافع إلى أن مضى من الليل نحو ثلاث ساعات، وفرغت من عندهم الأدوات، فعجزوا عن ذلك وانصرفوا، وكفت عنهم القوم وانحرفوا.

[١٠٧] وبعَد هَجْعة الليل دخلت الإفرنج المدينة كالسيل، ومروا في الأزقة والشوارع لا يجدون لهم ممانع، كأنهم الشياطين أو جند

إبليس، وهدموا ما وجدوه من المتاريس، وذهبوا وجاءوا، وبغضب الله باءوا، وكروا ورجعوا، وترددوا وما هجعوا، وعملوا باليقين أن لا دافع لهم ولا كمين، وتراسلوا أرسالاً ركباناً ورجالاً، ثم دخلوا إلى الجامع الأزهر وهم راكبون الخيول، وولجوه من الباب الكبير، وخرجوا من الباب الثاني، حيث موقف الحمير، وداس فيه المشاة بالنعالات، وهم حاملون السلاح والبندقيات، وتفرقوا بصحنه، ومقصورته، وربطوا خيولهم بقبلته، وعاثوا بالأروقة والبَحْرات[1]، وكسروا القناديل والسَهّارات، وفتحوا خزائن الطلبة والمجاورين والكتبة، ونهبوا ما وجدوه من المتاع، والأواني والقصاع، والودايع والمخبايات بالدواليب والخزانات، وشققوا الكتب والمصاحف، وعلى الأرض طرحوها، وبأرجلهم ونعالاتهم داسوها، وأحدثوا بالمسجد وبالوا وتغوطوا، وشربوا الشراب وكسروا الآنية وألقوها بصحنه ونواحيه، وكل من صادفوه به عرّوه، ومن ثيابه أخرجوه، ووجدوا في بعض الأروقة ناساً فذبحوه، ومن الحياة أعدموه، وفعلوا بالجامع الأزهر ما ليس عليهم بمستنكر؛ لأنهم أعداء الدين، وأخصام متغلبون، وغرماء متشمتون، وضِباع متكالبون، وأجناس متباينون، وأشكال متعاندون.

ولما أصبح يوم الثلاثاء اصطف منهم حزب بباب الجامع، فكل من حضر للصلاة يراهم، فيكر راجعاً ويسارع.

وتفرقت طوائفهم بتلك النواحي أفواجاً، واتخذوا الطواف والسعي بها منهاجاً، وأحاطوا بها إحاطة السوار، ونهبوا بعض الديار،

---

(١) أي الأحواض المعدة للوضوء.

بحجة التفتيش على النهب، وآلة السلاح والضرب، وخرجت سكان تلك الجهة يهرعون، وللنجاة بأنفسهم طالبون، وانكشفت حرمة تلك البقعة، بعد أن كانت أشرف البقاع، وترغب الناس في سكناها، ويودعون عند أهلها ما يخافون عليه من الضياع، وجماعة الإفرنج لا يمرون بها إلا في النادر، ويحترمونها كغيرهم في الباطن والظاهر، فانقلب بهذه الحركة منها الموضوع، وانخفض على غير القياس المرفوع، ثم ترددوا في الأسواق، ووقفوا صفوفاً مئات وألوفاً، فان مر بهم أحد فتشوه، وأخذوا ما معه وربما قتلوه، ورفعوا القتلى والمطروحين من الإفرنج والمسلمين، ووقف جماعة من الفرنسيس ونظفوا مراكز المتاريس، وأزالوا ما بها من الأتربة، والأحجار المتراكمة، ووضعوها في ناحية، لتصير طرق المرور خالية.

[١٠٨] وتحزبت نصارى الشوام، وجماعة أيضاً من الأروام، الذين نهبت دورهم في حارة الجوانية، يشكون لكبير الإفرنج ما لحقهم من الرَزيّة، واغتنموا الفرصة في المسلمين، وأظهروا ما هو بقلوبهم كمين، وضربوا فيهم المضارب، وكأنهم شاركوا الإفرنج في النوائب، وما قصدهم المسلمون ونهبوا مالديهم إلا لكونهم منسوبين إليهم، مع أن المسلمين الذين جاوروهم، ونهبهم الزُّعْر أيضاً وسلبوهم[١] وكذلك خان الملايات المعلوم، الذي عند باب حارة الروم، وفيه بضايع المسلمين، وودايع الغايبين، فسكت المصاب على غصته، واستعوض الله في قضيته، لأنه إن تكلم لا تُسمع دعواه، ولا يلتفت لشكواه.

---

(١) اي أن المسلمين أيضاً نُهبوا من قِبَل الرعاع.

[١٠٩] وانتدب برطلمين الكافر العسَس، على من حمل السلاح واختلس، وبَثّ أعوانه في الجهات يتجسسون في الطرقات، فيقبضون على الناس بحسب أغراضهم، فيحكم فيهم بمراده، ويعمل برأيه واجتهاده، ويأخذ منهم الكثير، ويركب في موكبه ويسير، وهم موثوقون بين يديه بالحبال، ويسحبهم الأعوان بالقهر والنكال، فيودعونهم في السجونات ويطالبونهم بالمنهوبات، ويقررونهم بالعقاب والضرب، ويسألونهم عن السلاح وآلات الحرب، ويدل بعضهم على بعض، فيضعون على المدلول عليهم أيضاً القبض.

[١١٠] وكذلك فعل مثل فعله الأغا اللّعين[1]، وتجبر في أفعاله وطغى، وكثير من الناس ذبحوهم، وفي بحر النيل قذفوهم[2]، ومات في هذين اليومين وما بعدهما أمم كثيرة لا يحصى عددها، وطال بالكفرة بغيهم وعنادهم، ونالوا من المسلمين قصدهم ومرادهم.

[١١١] وأصبح يوم الأربعاء، فركبت فيه جميع المشايخ، وذهبوا فيه لبيت الصاري عسكر، وقابلوه وخاطبوه في العفو ولاطفوه، والتمسوا منه أماناً كافياً، وعفواً ينادون به باللغتين شافياً، لتطمئن بذلك قلوب الرعيّة، ويسكن روعهم من هذه الرَزِيّة، فوعدهم وعداً

---

(١) وهو مصطفى أغا محافظ القاهرة الذي قتلته العامة بعد ذلك، انظر الثوره الجهادية الثانية: انظر فقرة[٢٢٤].

(٢) أصدر نابليون أمراً للجنرال برتييه: « تفضل أيها المواطن القائد بأن تأمر قومندان القاهرة بقطع رؤوس جميع المسجونين الذين أمسكوا وبيدهم سلاح، فليؤخذوا إلى شواطىء النيل بعد هبوط الظلام، ولتلق جثثهم المقطوعة الرؤوس في النهر»: «ودخلت الخيل الأزهر»: ٢٣٥ ـ ٢٣٦.

«وكان كثير من النساء ممن نفذ فيهن أحكام الإعدام الليلية»: المصدر السابق: ٢٤٠.

مشرباً بالتسويف، وطالبهم بالتبيين والتعريف عمن تسبب من المتعممين في إثارة العوام، وحرّضهم على الخلاف والقيام، فغالطوه عن تلك المقاصد، فقال على لسان الترجمان: نحن نعرفهم بالواحد، فترجوا عنده في إخراج العسكر من الجامع الأزهر، فأجابهم لذلك السؤال، وأمر بإخراجهم في الحال[1]، وأبقوا منهم نحو السبعين، ثم أسكنوهم بالخُطّة[2] كالضابطين ليكونوا للأمور مراصدين، وبالأحكام منفذين، ثم إنهم فحصوا عن المتهمين في أصل الفتنة، فطلبوا الشيخ سليمان الجوسقيّ شيخ طائفة العميان[3]، والشيخ أحمد الشرقاويّ[4] والشيخ عبد الوهاب الشبراويّ[5] والشيخ

---

(١) كانت نية نابليون هدم الجامع الأزهر؛ فقد أصدر أمره إلى أحد القادة الفرنسيين بذلك، فأصدر ذلك القائد أمره قائلاً: «يهدم الجامع الأكبر ليلاً إذا أمكن، وترفع الحواجز والأبواب التي كانت تسد الشوارع» ولكن أحد المشايخ ويسمى محمد الجوهريّ دخل على نابليون وقال له: «ما قابلت حاكماً عادلاً كان أو ظالماً، والآن فقد أتيت متوسلاً إليك أن تأمر بإخراج العسكر من الجامع الأزهر، فقبل نابليون رجاءه، وأمر بإخراج الجنود من الأزهر»: انظر «ودخلت الخيل الأزهر»: ٢٣٥.

(٢) أي بالحي الذي فيه الجامع الأزهر.

(٣) العمدة الشهير، تولى شيخاً على العميان وسار فيهم بشهامة وصرامة وجبروت، وجمع بجاههم أموالاً عظيمة وعقارات، وكان يرسل لمن عصاه جيشاً من العميان فلا يجد بدأ من دفع المال، وصار يلبس الملابس الثمينة ويركب البغال، وتزوج الغنيات الجميلات واشترى السراري البيض والسود، وترأس، ثم دخل في فتنة الشعب الأولى مع الفرنسيين، وقتل سنة١٢١٣. انظر «عجائب الآثار»: ٣/ ٦١-٦٢.

(٤) «أحمد بن إبراهيم الشرقاوي الشافعي الأزهريّ، كان جسيماً، عظيم اللحية، فصيح اللسان، وكان الفلاحون يأتونه لقضاياهم وخصوماتهم وأنكحتهم فيقضي بينهم ويكتب لهم الفتاوى، واشتهر ذكره، مات مع من قُتل بالقلعة بيد الفرنسيين ولم يعلم له أثر: «ودخلت الخيل الأزهر»: ٢٣٧.

(٥) الشيخ العمدة الفقية الصالح، عبد الوهاب الشبراوي الشافعيّ الأزهريّ، كان =

يوسف المصيلحيّ[1] والشيخ إسماعيل البراويّ[2]، وحبسوهم ببيت البكريّ، وأما السيد بدر فإنه تغيب وسافر إلى جهة الشام، وفحصوا عليه فلم يجدوه.

وفي يوم الأحد ثاني عشره توجه شيخ السادات وباقي المشايخ إلى بيت صاري عسكر الفرنسيس، وتشفعوا عنده في الجماعة المسجونين ببيت الأغا وقائمقام والقلعة فقيل لهم: طوّلوا بالكم ولا تستعجلوا، فقاموا وانصرفوا، وفيه نادوا في الأسواق بالأمان، ولا أحد يشوش على أحد، والقبض على الناس مستمر ليلاً ونهاراً، وكذلك كبس البيوت والنهب بحسب ما يُنْهِيه العدو في عدوه[3]، وردوا بعض الأمتعة التي نهبت للنصارى.

[١١٢] وفي مدة هذه الأيام بطل الاجتماع بالديوان المعتاد، وأخذوا في اهتمام يعملون متاريس في عدة جهات، وبنوا أبنية على التلول المحيطة بالبلد، ووضعوا بها عدة مدافع وقنابر وهدموا عدة أماكن بالجيزة وحصّنوها تحصيناً زايداً، وكذلك مصر العتيقة ونواحي شُبرا وإنبابة، وهدموا عدة مساجد، وقطعوا أشجاراً كثيرة، ونخيل

= حسن الإلقاء، سلس التقرير، جيد الحافظة، جميل السيرة، اتهم في إثارة الفتنة وقتل بالقلعة شهيداً رحمه الله تعالى: انظر المصدر السابق.

(١) الشاب الصالح البنية، الفالح الفاضل الفقيه الشيخ يوسف المصيلحيّ الشافعي الأزهريّ. كان مهذب النفس، لطيف الذات، حلو الناطقة، مقبول الطلعة، خفيف الروح، قتل بالقلعة شهيداً رحمه الله تعالى، وانظر المصدر السابق.

(٢) إسماعيل بن أحمد البراوي الشافعيّ الأزهريّ. تصدر بعد وفاة والده في مكانه، وكان قليل البضاعة في العلم إلا أنه تغلب عليه النباهة وسلاطة اللسان والتداخل، قتل شهيداً في القلعة في فتنة الفرنسيين، رحمه الله تعالى. انظر «عجائب الآثار»: ٦٢/٣.

(٣) أي بحسب ما يخبر به العدو عن عدوه شماتةً.

البساتين، وحفروا عدة خنادق، وغير ذلك، وخَرَّبوا الدور وهدموا القصور، وكسروا الشبابيك والأبواب وحرقوا الأخشاب، بحيث عم جميع الأماكن الخراب وزعق فيها البوم والغراب.

[١١٣] وفي ليلة الأحد حضر جماعة من عسكر الفرنسيس إلى بيت البكريّ نصف الليل، وطلبوا المشايخ المحبوسين لعند صاري عسكر ليتحدث معهم، فلما صاروا خارج الدار وجدوا عدة كثيرة في انتظارهم، فقبضوا عليهم وذهبوا بهم إلى بيت قائمقام، فعروهم من ثيابهم وصعدوا بهم إلى القلعة فسجنوهم إلى الصباح، فأخرجوهم وقتلوهم وألقوهم من السور خلف القلعة، وتغيب حالهم(١) عن أكثر الناس أياماً، وفي ذلك اليوم ركب بعض المشايخ إلى مصطفى أغا كَتْخُداء الباشا وكلموه في أن يذهب معهم إلى صاري عسكر ليتشفع في الجماعة المذكورين ظناً منهم أنهم على قيد الحياة، فركب معهم إليه وكلموه في ذلك، فقال لهم الترجمان: يقول لكم الصاري عسكر: اصبروا ماهو وقته، وقام ليذهب في بعض أشغاله، فنهض الجماعة أيضاً ورجعوا إلى دورهم.

[١١٤] وفي يوم الخميس المذكور ذهب المشايخ إلى الصاري عسكر وتشفعوا في ابن الجوسقيِّ شيخ العميان فإنه كان معوَّقاً ببيت البكريّ فشفَّعهم فيه، وأطلقوه.

---

(١) قال المحقق: أي خفي حالهم.

شهر جمادى الثاني

[١١٥] استهل بيوم السبت، فيه كتبوا عدة أوراق على لسان المشايخ[١] وأرسلوها إلى البلاد ولصقوا فيها نسخاً بالأسواق والأزقة ونصها: صورة نصيحة من كافة علماء الإسلام بمصر المحروسة من طرف الجعيدية وأشرار الناس فحركوا الشرور بين الرعية والعسكر الفرنساوية بعدْ ما كانوا أصحاباً وأحباباً بالسوية[٢]، وترتب على ذلك قتل جملة من المسلمين ونهبت بعض البيوت، ولكن حصلت ألطاف الله الخفية، وسكنت الفتنة بسبب شفاعتنا أمير الجيوش بونابارته، وارتفعت هذه البلية؛ لأنه رجل كامل العقل، عنده مرحمة وشفقة على المسلمين، ومحبة للفقراء والمساكين، ولولاه لكانت العساكر حرقت المدينة ونهبت جميع الأموال وقتلوا كامل أهالي مصر، فعليكم ألا تحركوا الفتن ولا تطيعوا أمر المفسدين، ولا تسمعوا كلام المنافقين، ولا تتبعوا الأشرار ولا تكونوا مع الخاسرين، سفهاء العقول الذين لا يقرؤون العواقب، لأجل أن تحفظوا أموالكم وأوطانكم وتطمئنوا على عيالكم وأديانكم، فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يؤتي ملكه من يشاء، ويحكم مايريد، ونخبركم أن كل من ظهر منه تحريك هذه الفتنة قُتلوا عن آخرهم، وأراح الله منهم البلاد والعباد، ونصيحتنا لكم أن لا تلقوا

---

(١) أي بغير رضاهم؛ إذ ما جاء فيها لا يصدر عن عالم بالأمور والأحوال، والله أعلم.

(٢) الألفاظ وسياق العبارات في غاية الركاكة وإن كان المعنى مفهوماً.

بأيديكم التهلكة، واشتغلوا بأسباب معايشكم وأمور دينكم، وادفعوا الخراج الذي عليكم، والدين النصيحة، والسلام.

[١١٦] وفيها أمروا بقية السكان على بركة الأزبكية وما حولها بالنقلة من البيوت ليسكنوا بها جماعتهم المتباعدين عنهم، ليكون الكل في حَوْمة واحدة[١]؛ وذلك لما داخلهم من المسلمين، حتى أن الشخص منهم صار لا يمشي بدون سلاح بعد أن كانوا من حين دخلوا البلد لا يمشون به أصلاً إلا لغرض، والذي لم يكن معه سلاح يأخذ في يده عصاة أو سوطاً أو نحو ذلك، وتنافرت قلوبهم من المسلمين، وأخذ كل واحد حِذْره من الآخر، وانكف المسلمون من الخروج والمرور بالأسواق مَن الغروب إلى طلوع النهار.

[١١٧] ومن جملة من انتقل من الدرب الأحمر إلى الأزبكية اللعين كفرلي المسمى عند العامة بأبي خشبة؛ لأن إحدى رجليه مقطوعة من الركبة وقد ألبسها خشبة، وهو يمشي بها بدون معين، ويصعد الدرج وينزل منها أسرع من الصحيح، ويركب الفرس ويرمحه وهو على هذه الحالة، وكان من جملة المشار إليه فيهم، والمدبر لأمور القلاع والبناء ومصارف الحروب، ولهم به عناية عظيمة واهتمام زايد، كان مسكنه بيت مصطفى كاشف طرا، وفي وقت الحادثة هجمت على الدار العامة فنهبوها وقتلوا منها بعض الفرنساوية وفر الباقون، فأخبروا من بالقلعة الكبيرة، فنزل منهم عدة وافرة ووقف بعضهم خارج الدار بعد أن طردوا الواقفين ببابها، وضربوهم بالبندق، ودخل الباقي فقتلوا من وجدوه بها من المسلمين، وكانوا جملة كثيرة.

---

(١) أي مكان واحد متلاصق.

[١١٨] وكان بتلك الدار شيء كثير من آلات الصنايع والنظارات الغريبة والآلات الفلكية والهندسية والعلوم الرياضية وغير ذلك مما هو معدوم النظير، كل آلة لا قيمة لها إلاّ عند مَن يعرف صنعتها ومنفعتها، فبدد ذلك كله العامة وكسروها قطعاً، وصعب ذلك على الفرنسيس جداً، وأقاموا مدة طويلة يفحصون على تلك الآلات ويجعلون لمن يأتيهم بها عظيم الجُعَالات(١).

[١١٩] وممن استشهد في وقعة تلك الدار الشيخ محمد الزهار(٢).

[١٢٠] وفي ثامنه قتلوا أربعة أنفار من نصارى القبط، فيهم اثنان من النجارين قيل إنهم سكروا في الخمارة، ومروا في سكرهم وفتحوا بعض الدكاكين، وسرقوا منها أشياء، وقبلُ تكرر منهم ذلك عدة مرار، فاغتاظ لذلك القَبَطة.

[١٢١] وفيه كتبوا عدة أوراق وأرسلوا منها نسخاً للبلاد ولصقوا منها بالأخطاط والأسواق، وذلك على لسان المشايخ أيضاً، ولكن تزيد صورتها عن الأولى ونصها:

صورة نصيحة من علماء الإسلام بمصر المحروسة، نخبركم ياأهل المداين والأمصار من المؤمنين، وياسكان الأرياف من العربان والفلاحين أن إبراهيم بيك ومراد بيك وبقية دولة المماليك أرسلوا عدة مكاتيب ومخاطبات إلى سائر الأقاليم المصرية لأجل تحريك الفتنة بين المخلوقات، وادعوا أنها من حضرة مولانا السلطان ومن بعض وزرائه بالكذب والبهتان، وسبب ذلك أنه حصل لهم شدة الغم والكرب

---

(١) أي المكافآت.

(٢) لم أعثر له على ترجمة.

الزايد، واغتاظوا غيظاً شديداً من علماء مصر ورعاياها، حيث لم يوافقوهم على الخروج معهم ويتركوا عيالهم وأوطانهم، فأرادوا أن يوقعوا الفتنة والشر بين الرعية والعسكر الفرنساوية لأجل خراب البلاد وهلاك كامل الرعية، وذلك لشدة ماحصل لهم من الكرب الزايد بذهاب دولتهم وحرمانهم من مملكة مصر المحمية، ولو كانوا في هذه الأوراق صادقين بأنها من حضرة سلطان السلاطين لأرسلها جهاراً مع أغوات معينين.

ونخبركم أن الطائفة الفرنساوية بالخصوص عن بقية الطوائف الإفرنجية دائماً يحبون المسلمين وملتهم ويبغضون المشركين[1]، وطبيعتهم أحبابٌ لمولانا السلطان، قائمون بنصرته وأصدقاء له ملازمون لمودته وعشرته ومعونته، يحبون من والاه ويبغضون من عاداه، ولذلك بين الفرنساوية والموسقوف[2] غاية العداوة الشديدة من أجل عداوة الموسقوف القبيحة الردية[3]، والطائفة الفرنساوية يعاونون حضرة مولانا السلطان على أخذ بلادهم ـ إن شاء الله ـ ولا يبقون منهم بقية، فننصحكم أيها الأقاليم المصرية أنكم لا تحركوا الفتن ولا الشرور بين البرية، ولا تعارضوا العساكر الفرنساوية بشيء من أنواع الأذية، فيحصل لكم الضرر والهلاك والبلية، ولا تسمعوا كلام المفسدين، ولا تطيعوا أمر المفسدين المسرفين الذين يفسدون في

---

(١) لا يمكن أن يكتب علماء مصر ذلك الإفك ولكنهم هم الذين زوره على لسان المشايخ كما ذكر الجبرتي في أول الرسالة.

(٢) قال المحقق: يريد أهل موسكو أي الروس.

(٣) أي للعثمانيين، وهذا من كذب نابليون فالذين يتحدث عنهم هم العثمانيون وليسوا الروس.

الأرض ولا يصلحون، فتصبحوا على ما فعلتم في أنفسكم نادمين، وإنما عليكم دفع الخراج المطلوب منكم لكامل الملتزمين، لتكونوا في أوطانكم سالمين، وعلى عيالكم وأموالكم آمنين مطمئنين، لأن حضرة صاري عسكر الكبير أمير الجيوش بونابارته اتفق معنا على أنه لا ينازع أحداً في دين الإسلام، ولا يعارضنا فيما شرعه الله من الأحكام، ويرفع عن الرعية سائر المظالم، ويقتصر على أخذ الخراج، ويزيل ما أحدثه الظلمة من المغارم، فلا تعلقوا آمالكم بإبراهيم بيك ومراد، وارجعوا إلى مولاكم مالك الخَلْق وخالق العباد، فقد قال نبيه ورسوله الأكرم: «الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها بين الأمم»[1]، عليه أفضل الصلاة والسلام ختام.

[١٢٢] وفي عشرينه كتبوا عدة أوراق مطبوعة ولصقوها بالأسواق مضمونها أن يوم الجمعة حادي عشرينه قصدنا نطير مركب ببركة الأزبكية في الهواء[2] بحيلة فرنساوية، فكثر لَغَط الناس في ذلك كعادتهم.

فلما كان ذلك اليوم قبل العصر اجتمعت الناس والكثير من الإفرنج ليروا تلك العجيبة، وكنت بجملتهم فرأيت قماشاً على عامود قائم، وهو ملون أبيض وأحمر وأزرق، بها فتيلة مغموسة ببعض الأدهان، وهي مشدودة ببكر وأحبال، وأطراف الأحبال بأيدي الناس قائمين بأسطحة البيوت القريبة منها، فلما كان بعد العصر نحو ساعة أوقدوا تلك الفتيلة فصعد دخانها إلى ذلك القماش وملأته فانتفخ وصار مثل الكرة، وطلب الدخان الصعود إلى مركزه فلم يجد منفذاً فجذبها

---

(١) قال الإمام السيوطي: أخرجه الرافعي عن أنس رضي الله عنه: انظر «كنز العمال»: ١١/ ١٢٧.

(٢) يعنون «المنطاد»، وكان ذلك الزمان أوائل ظهوره.

معه إلى العلو، فجذبوها بتلك الأحبال حتى ارتفعت عن الأرض فقطعوا تلك الأحبال، فصعدت إلى الجوّ مع الهواء ومشت معه هُنيهة لطيفة، ثم سقطت طارتها بالفتيلة، وسقط أيضاً ذلك القماش، فانكسف طبعهم لسقوطها، ولم يتبين صحة ما قالوه من أنها على هيئة مركب يجلس بها أنفار من الناس ويسافرون فيها إلى البلاد البعيدة، لكشف الأخبار وغير ذلك من التمويهات الكاذبة، بل ظهر أنها مثل الطيارات التي يعملها الفراشون بالمواسم والأفراح[1]، وانقضى هذا الشهر وما تجدد به من الحوادث الكلية والجزئية التي لا يمكن ضبطها لكثرتها، فمنها:

[١٢٣] أنهم أحدثوا بغيط النوبي المجاور للأزبكية أبنية على هيئة مخصوصة يجتمع بها النساء والرجال للّهو والخلاعة في أوقات مخصوصة، وجعلوا على كل من يدخل إليها قدراً مخصوصاً يدفعه أو يكون مأذوناً وبيده ورقة[2].

[١٢٤] وهدموا جامع أبي هريرة بالجيزة.

[١٢٥] ومهدوا التل المجاور لقنطرة الليمون، وبنو أعلاه طاحوناً تدور بالهواء تطحن الأرداب من الدقيق، وطاحوناً أخرى بالروضة.

[١٢٦] وهدموا الجامع المجاور لقنطرة الدكة.

[١٢٧] وشرعوا في ردم جهات حوالي بركة الأزبكية، وهدموا

---

(١) قد تحدث الجبرتي - هنا- بمقتضى عاطفته، وإلا فكلام الفرنسيين على المنطاد وفكرته صحيح.

(٢) أي مأذوناً له بالدخول بدون رسوم.
وهذا الخراب الذي أحدثه الفرنسيون في القاهرة جزء من الخراب العام الذي أحدثوه في البلاد من مختلف الجوانب الإيمانية والأخلاقية، وانظر فهرست الفوائد آخر الكتاب، ففيه تعداد لأنواع الفساد.

الأماكن المقابلة لبيت صاري عسكر حتى جعلوها رَحْبة متسعة، وهدموا الأماكن المقابلة لها من الجهة الأخرى والجناين التي خلف ذلك، وقطعوا أشجارها وردموا مكانها بالأتربة الممهدة على خط من الجهتين مبتداه من حَد بيت الصاري عسكر إلى قنطرة المغربي، وجددوا قنطرة المغربيّ المذكورة، ثم منها كذلك جسرٌ على الوضع والنسق ممتد إلى بولاق ممهداً مستوياً على خط مستقيم، وحفروا في جانبيه من مبتداه لمنتهاه خندقين، وكذلك غرسوا في جانبيه شجر السيسبان من الأول للآخر.

[١٢٨] وأحدثوا طريقاً آخر فيما بين باب الحديد وباب العدوي عند المكان المعروف بالشيخ شعيب حيث معمل الفواخير، وردموا جسراً ممهداً مستطيلاً ممتداً يبتدىء من الحد المذكور وينتهي إلى جهة المذبح خارج الحسينية، فخرب بسبب ذلك أماكن كثيرة وغيطان عديدة.

[١٢٩] وقطعوا أشجار الجسر والأبنية التي بين باب الحديد والرحبة التي بظاهر جامع المقس، وساووا الأعلى بالمنخفض بحيث صارت طريقاً ممتدة من الأزبكية إلى جهة قبة النصر والعادلية على خط مستقيم من الجهتين(١).

[١٣٠] وجعلوا جامع الظاهر بيبرس خارج الحسينية قلعة، وهدموا منارته، وجعلوها بُرجاً، ووضعوا في أسواره مدافع وأسكنوه جماعة من العسكر، وبنوا في داخله عدة مساكن تسكنها العساكر المقيمة به.

[١٣١] وهدموا عدة دور من دور الأمراء وأخذوا أنقاضها

---

(١) إنما صنعوا كل ذلك ـ وإن كان ظاهره حضارياً متمدناً، وهو غرض توسيع الأزقة وسهولة السير ـ لأجل تأمين الحماية لأفراد الحملة الفرنسية.

ورُخامها لأبنيتهم على التلول وغيرها.

[١٣٢] وأفردوا للمدبرين والفلكيين وأهل المعرفة والعلوم الرياضية كالهندسة والهيئة والنقوشات والرسومات والمصورين والكتبة والحسَّاب والمنشيين حارة الناصرية وما بها من البيوت من مثل بيت قاسم بيك أمير الحاج سابقاً المعروف بأبوسيف، وبيت حسن كاشف جركس الذي أنشأه وشيده وزخرفه وصرف عليه أموالاً عظيمة من مظالم العباد، وعند إتمام بياضه وفرشه حدثت هذه الحادثة ففر مع المنهزمين وتركه بما فيه وسكنه الجماعة المذكورون، ووضعوا فيه جملة كبيرة من كتبهم وعليها خازن يحفظها ويحضرها للطلبة فيراجعون فيها مرادهم ويردها لمكانها، وأكثرها يشتمل على الرياضيات والتصويرات وتواريخ الأمم السالفة، وسموا ذلك البيت بالمدرسة، وأفردوا مكاناً للنجارين والحدادين والخراطين وأرباب الصنايع من الفرنسيس، ومكاناً للحكمة وبنوا فيه كوانين وتنانير مهندمة وركبوا عليها آلات التقاطير واستخراج المياه والأدهان المختصة بالطب والحكمة وأرواح المفردات، وأملاح الأرمدة المستخرجة من الأعشاب، وبه أوان وقوارير من الزجاج المختلف الأشكال والهيئات إلى غير ذلك.

شهر رجب

[١٣٣] في ثالثه قتلوا شخصاً من الأجناد يقال له مصطفى كاشف من جماعة حسين بيك المعروف بشفت دره[1]، وكان قد فر مع

---

(١) أي اليهودي باللغة التركية، وانظر «تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي»: ١٣٦.

الفارين، ثم حضر من غير استئذان، وأقام أياماً مستتراً ببيت الشيخ سليمان الفيومي، فسلمه لمصطفى أغا مستحفظان ليأخذ له أماناً، فأخبر الفرنسيس بشأنه وأغراهم عليه، فأمر بقتله فقتلوه وقطعوا رأسه وطافوا بها ينادون عليها بقولهم: هذا جزاء من يدخل لمصر من غير إذن الفرنسيس.

[١٣٤] وفيه شرعوا في ترتيب على تنظيم آخر(١)، وعينوا له ستين نفراً، منهم أربعة عشر يقال لهم الخصوص، وهم الذين يحضرون دائماً، ويقال لهم الديوان الخصوصي والديوان الديمومي(٢)، والباقي بحسب الاقتضاء، والأربعة عشر فيهم من المشايخ الشرقاوي والمهدي والصاوي والبكري والفيوميّ، ومن التجار المحروقي وأحمد بن محمود محرم(٣)، ومن النصارى القبطية لطف الله المصري، ومن الشوام يوسف فرحات وميخائيل كحيل وواحد إنكليزي وبوريف وموسى كافو الفرنساويان ووكلاء ومباشرون من الفرنسيس وتراجمة.

وأما العمومي فغالبه مشايخ حرَف، وكتبوا بذلك طوماراً كبيراً بَصَموا(٤) منه نسخاً كثيرة وأرسلوا منها للأعيان، ولصقوا منها بالأسواق على العادة، وأرسلوا للذين تعينوا بالديوان أوراقاً بأسمائهم، وصورة صدر ذلك الطومار المكتتب في شأن ذلك، وقد أوردت ذلك وإن كان فيه بعض الطول على ما فيه من التمويهات على العقول والتسلق على دعوى الخواص من البشر بفاسد التخيلات، التي ينادى

---

(١) أي في ترتيب نظام آخر للديوان «البرلمان».
(٢) أي الدائم.
(٣) لم أعثر له على ترجمة.
(٤) قال المحقق: يريد طبعوا.

على بطلانها بديهة العقل فضلاً عن النظر، وهو مقول على لسان بونابارته كبير الفرنسيس ورئيسهم ذلك التعيس، ونصه:

[١٣٥] بسم الله الرحمن الرحيم

من بونابارته أمير الجيوش الفرنساوية خطاباً إلى كافة أهالي مصر الخاص والعام:

نعلمكم أن بعض الناس الضالين العقول خالين من المعرفة وإدراك العواقب سابقاً أوقعوا الفتنة والشرور بين القاطنين بمصر، فأهلكهم الله بسبب فعلهم ونيتهم القبيحة، والباري سبحانه وتعالى أمرني بالشفقة والرحمة للعباد(١)، فامتثلت أمره وصرت رحيماً شفوقاً عليكم، ولكن كان حصل عندي غيظ وغم شديد بسبب تحريك هذه الفتنة بينكم، ولأجل ذلك أبطلت الديوان الذي كنت رتبته لنظام البلد وإصلاح أحوالكم من مدة شهرين، والآن توجه خاطرنا إلى ترتيب ديوان كما كان؛ لأن حسن أحوالكم ومعاملتكم في المدة المذكورة أنسانا ذنوب الأشرار وأهل الفتنة التي وقعت سابقاً.

[١٣٦] أيها العلماء والأشراف: أعْلموا أمتكم ومعاشر رعيتكم بأن الذي يعاديني ويخاصمني إنما خصامه من ضلال عقله وفساد فكره، فلا يجد ملجأ ومخلصاً ينجيه مني في هذا العالم، ولا ينجو من بين يدي الله لمعارضته لمقادير الله سبحانه وتعالى، والعاقل يعرف أن ما فعلناه بتقدير الله تعالى وإرادته وقضائه، ومن يشك في ذلك فهو أحمق وأعمى البصيرة(٢)، وأعلموا أيضاً أمتكم أن الله قدر في الأزل هلاك

---

(١) هذا كذب محض، فهو كافر ليست له صلة بالله تعالى على أي وجه كان.

(٢) في كلامه ـ هنا ـ مغالطة كبيرة، فالقضاء والقدر لا يمنعان المسلم من الجهاد ومقاومة الكفار.

أعداء الإسلام وتكسير الصلبان على يدي[1]، وقَدّر في الأزل بعد ذلك أن أجيء من الغرب إلى أرض مصر لهلاك الذين ظلموا فيها، وإجراء الأمر الذي أمرت به، ولا يشك العاقل أن هذا كله بتقدير الله وإرادته وقضائه، وأعلموا أيضاً أمتكم أن القرآن العظيم صرّح في آيات كثيرة بوقوع الذي حصل وأشار في آيات أخر إلى أمور تقع في المستقبل[2]، وكلام الله في كتابه صدق وحق لا يتخلف، إذا تقرر هذا وثبتت هذه المقالات في آذانكم، فلترجع أمتكم جميعاً إلى صفاء النية وإخلاص الطَوِيّة، فإن منهم من يمتنع عن لعني وإظهار عداوتي من خوف سلاَحي وشدة سطوتي، ولم يعلم أن الله مطلع على السرائر ليعلم خافية الأعين وما تخفي الصدور، والذي يفعل ذلك يكون معارضاً لأحكام الله ومنافقاً، وعليه اللعنة والنقمة من الله علام الغيوب[3]، واعلموا أيضاً أني أقدر على إظهار ما في نفس كل واحد منكم لأنني أعرف أحوال الشخص ومانطوى عليه بمجرد مارأه، وإن كنت لاأتكلم ولاأنطق بالذي عنده، ولكن يأتي وقت ويوم يظهر لكم بالمعاينة، لأنني كل مافعلته وحكمت به فهو حكم إلآهي لايُرَد[4]، وإن اجتهاد الإنسان بغاية جهده ما يمنعني من قضاء الله الذي قدره وأجراه على يدي، فطوبى للذين يسارعون في اتحادهم معي مع صفاء النية وإخلاص السريرة، والسلام.

ورتبوا لأرباب الديوان الديموميّ شهرية تدفع إليهم نظير تقيدهم

(١) وهذا كذب محض منه، قاتله الله.
(٢) وهذا كذب محض منه، قاتله الله.
(٣) وهذا كذب محض منه، قاتله الله.
(٤) وهذا كذب محض منه، قاتله الله.

بمصالح العامة والدعاوى وما يترتب عليه النظام بينهم وبين المسلمين.

[١٣٧] وفي ثامن عشرة طافوا على الطواحين واختاروا من كل طاحون فرساً أخذوها، ومن الطحانين مَن صالحهم ودفع لهم دراهم تركوه، وذلك أنهم لما باعوا الخيل ببولاق فاشترى منهم الطحانون جملة، فكان كل من باع حصانه شرط في أذنه شرطاً ليكون له علامة، وبعد ذلك طافوا بالطواحين وأخذوا عوض خيولهم ما استحسنوه وراق بخاطرهم.

[١٣٨] وفي رابع عشرينه حضر السيد أحمد المحروقي وكاتب البهار من السويس وكان الصاري عسكر ذهب إلى ناحية بلبيس، فاستأذنوه في ذهابهم إلى مصر، فأذن لهم وأرسل معهم خمسين واحداً ليوصلوهم لمصر، ولما حضروا حكموا أن أهل السويس لما بلغهم مجيء الفرنساوية هربوا وأخلوا البلد وذهبوا إلى الطور، وذهب البعض إلى العرب في البادية، فنهب الفرنسيس ما وجدوه بالبندر من اللبن والمتاجر والأمتعة وغير ذلك، وهدموا الدور وكسروا الأخشاب، فلما حضر كبيرهم ـ وكان متأخراً عنهم ـ كلمه التجار الذاهبون معه وأعلموه أن هذا الفعل غير صالح فاسترد من العسكر البعض، وواعدهم باسترجاع الباقي أو دفع ثمنه بمصر، وأن يكتبوا قائمة بالمنهوبات، وهذا نوع من الكذب والحيل، فإنه لما ارتحل من هناك أخذ العسكر ما كانوا ردوه، وما كانوا تركوه أيضاً.

[١٣٩] وأنه وجد مركبين إلى قريب من السويس بها جانب بن ومتاجرة، فغرقت إحداهما، فنزلت طائفة من الفرنسيس في مراكب صغار وذهبوا إليها في الغطس وأخرجوها بآلات ركبوها واصطنعوها.

[١٤٠] وانقضى هذا الشهر وما تجدد به أيضاً من الحوادث الكلية والجزئية، فمنها:

وقع أن في ليلة السابع والعشرين منه أتت جماعة إلى دار الشيخ محمد بن الجوهري الكاين بالأزبكية بالقرب من باب الهواء فخلعوا الشباك من المطل على البركة ودخلوا وصعدوا إلى أعلى الدار، وكان بها ثلاثة من النساء الخدامات وابنة خدّامة أيضاً وبواب الدار، ولم يكن رب الدار بها ولا الحريم بل كانوا قد انتقلوا لدار أخرى لما سكن معظم العسكر بالأزبكية، فاستيقظ النساء وصرخن فضربهن العسكر وقتلوهن، واختفت البنت في جهة وعاثوا في الدار، وأخذوا متاعاً ومصاغاً ونزلوا، فاستيقظ البواب فاختفى خوفاً منهم، فلما طلع النهار وشاع الخبر ـ وكان الصاري عسكر غائباً ـ فلم يقع كلام في شأن ذلك، فلمّا قدم من سفره، ركبت مشايخ الديوان إليه وأخبروه، فأظهر الغم من ذلك والمذمة لما فيه من العار الذي يلحقه كون العسكر وقع منهم ذلك في غيابه،ثم اهتم في التفحص عمن فعل ذلك، وقتل من اتهم منهم.

[١٤١] ومنها كثرة تعدي القُلّقات وتشديدهم على وقوع[١] القناديل بالأزقة، وإذا مرّوا في الليل ووجدوا قنديلاً أطفأه الهواء أو خلص زيته سمروا الحانوت أو الدار التي هو عليها، ولا يقلعون المسمار حتى يصالحهم صاحبها على ما أحبّوه من الدراهم، وربما تعمدوا كسر القناديل لأجل ذلك، واتفق أن المطر أطفأ عدة قناديل بسوق أمير الجيوش بسبب كونها في ظروف من الورق والجريد، فابتل

---

(١) أي تعليق وجَعْل.

الورق وسال الماء فأطفأ القناديل، فسمروا حوانيت السوق، وأصبح أهلها صالحوا عليها، ووقع مثل ذلك في طرق عديدة، فجمعوا في ذلك اليوم جملة كثيرة من الدراهم، وأمثال ذلك حتى في الأزقة والعطَف الغير النافذة[1]، حتى كان الناس ليس لهم شغل إلا القناديل وتفقّد حالها، خصوصاً في ليل الشتاء الطويل، واا ـكم لله الواحد القهار[2].

شهر شعبان

[١٤٢] فيه قتلوا ثلاثة أنفار من الفرنسيس بالبندق الرصاص بالميدان تحت القلعة، قيل إنهم من المتسلقين على الدور.

إقامة مولد الحسين وما يحدث فيه من البدع

[١٤٣] وفي يوم الأحد سادسه نادى القبطان الفرنساوي الساكن بالمشهد الحسيني على أهل تلك الخُطة وما جاورها بفتح الحوانيت والأسواق لأجل مولد الحسين الشهري، وشدد في ذلك وأوعد من

---

(١) أي الطرق المفتوحة من طرف ومغلقة من آخر.

(٢) كأن الفرنسيين ـ والله أعلم ـ يحرصون على إضاءة الطرقات من باب كشف من يريد مقاومتهم لامن باب حبهم رفعة المصريين وتجميل مدينتهم، وراجع فقرة [١٤٥].

أغلق حانوته بتسميره وتغريمه عشر ريال فرانسي[1]، وكان السبب في ذلك والأصل فيه أن هذا المولد ابتدعه السيد البدوي القباني مباشر وقف جامع سيدنا الحسين، كان قد اعتراه مرض فنذر على نفسه هذا المولد إن شفاه الله تعالى، فحصلت له بعض إفاقة فابتدأ به وأوقد في القبة والمسجد قناديل وبعض شموع، ورتب فقهاء يقرؤون القرآن بالنهار ومدارسته، وآخرين بالمسجد يقرؤون بالليل «دلائل الخيرات» للجُزُولي[2]، ثم زاد الحال وانضم إليهم كثير من أهل البدع كجماعة العفيفي والسمان والعربي والعيساوية، فمنهم من يتحلق ويذكر الجلالة ويُحرِّفها وينشدوا لهم قصائد ومواليات، ومنهم من يقول أبياتاً من بردة البوصيري[3] يجاوبهم آخرون مقابلون لهم بصيغة صلاة على النبي ﷺ.

وأما العيساوية فهم جماعة من المغاربة وما دخل فيهم من أهل الأهواء، ينسبون إلى شيخ من أهل المغرب يقال له سيدي محمد بن عيسى، وطريقتهم أنهم يجلسون قبالة بعضهم صفين ويقولون كلاماً معوجاً بلغتهم بنغم وطريقة مَشَوْا عليها، وبين أيديهم طبول ودفوف يضربون عليها على قدر النغم ضرباً شديداً مع ارتفاع أصواتهم، وتقف جماعة أخرى قبال الذين يضربون بالدفوف فيضعون أكتافهم في أكتاف بعض بحيث لايخرج واحد عن الآخر ويلتوون وينتصبون وينخفضون

---

(١) سيأتي سبب هذا الفعل بالتفصيل قريباً، إن شاء الله تعالى.

(٢) محمد بن سليمان بن داود الجُزُوليّ السملاليّ الشاذلي من أهل سوس المراكشية ولد سنة٨٠٧، وتفقه بفاس، وحفظ المدونة في فقه مالك وغيرها. وحج فقام بسياحة طويلة، ثم استقر بفاس. وله عدة مصنفات. مات مسموماً ـ فيما يقال سنة٨٧٠ والجُزُولية نسبة إلى جُزولة من بطون البربر. انظر «الأعلام»: ٦/ ١٥١.

(٣) وهي قصيدة في مدح سيد الخلق محمد ﷺ.

ويضربون الأرض بأرجلهم كل ذلك مع الحركة العنيفة والقوة الزائدة، بحيث لايقوم في هذا المكان إلا كل من عرف بالقوة، وهذه الحركات والإيقاعات على شكل الضرب بالدفوف، فيقع بالمسجد دوي عظيم وضجّات من هؤلاء وغيرهم من جماعات الفقراء كل أحد له طريقة وكيفية تباين الآخر.

هذا مع ماينضم إلى ذلك من جميع العوام، وتحلقهم بالمسجد للحديث والهذيان وكثرة اللغط والحكايات والأضاحيك، والتلفت إلى حسان الغلمان الذين يحضرون للتفرج والسعي خلفهم والافتتان بهم، ورمي قشور اللب والمكسرات والمأكولات في المسجد، وطواف الباعة بالمأكولات على الناس فيه، وسقاة الماء، فيصير الجامع بما اجتمع فيه من هذه القاذورات ملتحقاً بالأواق الممتهنة، ولاحول ولا قوة إلابالله العلي العظيم.

ثم زاد الحال عن ذلك بقدوم جماعة الأشاير[1] من الحارات البعيدة و القريبة، وبين أيديهم القناديل والشموع والطبول والزمور، ويتكلمون بكلام محرَّف يظنون أنه ذكر وتوسلات يثابون عليها، وينسبون من يلومهم أو يعترضهم إلى الاعتزال والخروج والزندقة، وغالبهم أصناف وأهل حرف السافلة ومن لايملك قوت ليلة، فتجد أحدهم يجتهد بقوة سعيه ويبيع متاعه أو يستدين الجملة من الدراهم ويصرفها في وقود القناديل وأجرة الطبالة والزمارة وأكل الذين يجتمعون عليه ماهو من أمثاله، ثم يقطع ليلته تلك سهران ويصبح دائماً دائخاً كسلان، ويظن أنه بات يتعبد ويذكر ويتهجد.

---

(١) قد سبق بيان أنهم أصحاب الطرق الصوفية الذين يضعون الإشارات المميزة.

واستمر هذا المولد أكثر من عشر سنين ولم يَزْدد الغادر لذلك إلّأمرضاً ومقتاً، واستجلب خَدَمة الضريح مالاح لهم من سخاف العقول مثل الشمع والدراهم واتخذوا ذلك حبالة[1] لأكل أموال الناس بالباطل، فلما حدثت هذه الحادثه لمصر، تُرك هذا المولد في جملة المتروكات[2].

ثم حصلت الفتنة التي صدرت وسكن هذا القُلَّق الفرنساوي في خُط المشهد لضبط تلك الجهة، وفيه خبث ومداهنة، فصار ينافق المسلمين ويظهر لهم المحبة والتملق، ويدخل بيوت الجيران ويقبل شفاعات المتشفعين، وأبطل وقوف عسكره بالسلاح كعادتهم في غير هذه الجهة، وكذلك ترك ما يفعله غيره من القلقات من أنواع التشديد على الناس، فاطمأن به الناس لذلك، وتراجعوا للصلاة في الجوامع بكرة، بعد خوفهم من العسكر الذين رتب معهم وأبطلهم التبكير للجوامع، فلما أَنِسوا به وعرفوا أخلاقه رجعوا لعادتهم ومشوا بالليل أيضاً بدون فزع وخوف.

وترجمانه على مثل طريقته، وهو رجل شريف من أهل حلب كان أسيراً بمالطة، فاستخلصه الفرنسيس في جملة من الذين خلصوا من أسر مالطة وقدم معه مصر، فلما رتب هذا القلق في الخطة كان ترجمانه يهودياً فاحتال بعض أعيان أهل الخطة ورتب الشريف المذكور ترجماناً عند القلق لتكون فيه راحة للناس، وقد فتح ذلك الترجمان قهوة بالخط بقرب دار القلق، وجمع الناس للجلوس فيها والسهر حصة

---

(١) أي مصيدة.

(٢) إنما أعاده الفرنسيون لإلهاء الشعب عن المعالي، وصرفه إلى مثل هذه الدنايا والسفاسف والبدع.

من الليل، وأمرهم بعدم غلق الحوانيت مقداراً من الليل كعادتهم القديمة، فاستأنسوا بالاجتماعات والتغني والخلاعات، وعم ذلك جهات تلك الخطة، ووافق ذلك طباع العامة؛ لأن أكثرهم مطبوعون على المزح والخلاعة، وتلك هي طبيعة الفرنسيس فصاروا يجتمعون عنده للسمر والحديث، ويجلس معه ذلك القَلّق الفرنساوي فانساق الحديث لذكر هذا المولد الشهري وما يقع في ليلته من المهرجانات وحسنوا له إعادته فوافقهم على ذلك، وأمر بالمناداة وفتح الحوانيت ووقود القناديل، وشدد في ذلك(١).

[١٤٤] وفي يوم الأربعاء كتبوا أوراقاً بتطيير طيارة ببركة الأزبكية مثل التي سبق ذكرها وفسدت، فاجتمع الناس لذلك وقت الظهر وطيروها، وصعدت إلى الأعلى ومرّت إلى أن وصلت تلال البوقيّة وسقطت، ولو ساعدها الريح وغابت عن الأعين لتمت الحيلة وقالوا: إنها راحت إلى البلاد البعيدة، بزعمهم(٢).

[١٤٥] وفيه نادَوا بإبطال القناديل التي توقد في الليل على البيوت والدكاكين وأن يوقد عوضها في وسط السوق مجامع، في كل مجمع أربعة قناديل، بين كل مجمع ثلاثون ذراعاً، ويقوم بذلك الأغنياء دون الفقراء ولاعلاقة في القَلَقّات بذلك، ففرح بذلك فقراء الناس وانفرجت عنهم هذه الكربة.

[١٤٦] وفيه نادَوْا أيضاً بأن كل من له دعوى شرعية أو مظلمة فليذهب لعند العلماء والقاضي.

---

(١) إنما شدد في إعادة المولد لما فيه من إلهاء للشعب وإقامة لمصالح المستعمر.

(٢) راجع التعليق على الفقرة [١٢٢].

[١٤٧] وفيه كثر الاهتمام والحركة لسفر الفرنسيس إلى جهة الشام، وطلبوا وهيئوا جملة من الهجن ليحملوا عليها الذخيرة والدقيق، ثم رسموا على الوالي بإحضار عدة كبيرة من الحمير يقال إنها ألف حمار، وكذلك عدة من البغال فطلب شيخ الحمَّارة وأمره بجمع ذلك، وكذلك الرَّكْبدَارية أمرهم بجمع البغال فاختفى غالب أصحاب الحمير، وخاف الناس على حميرهم وامتنع خروج السقّايين الذين ينقلون الماء بالقِرَب على الحمير، وسقّايين الجمال فحصل للناس ضيق بسبب ذلك.

[١٤٨] وفي يوم الاثنين حادي عشرينه كتبوا أوراقاً ولصقوها بالأسواق على العادة ونصها:

الحمد لله وحده:

هذا خطاب إلى جميع أهل مصر من خاص وعام من محفل الديوان الخصوصي من عقلاء الأنام علماء الإسلام والوجاقات[1] والتجار الفخام:

نعلمكم معاشر أهل مصر أن حضرة صاري عسكر الكبير بونابارته أمير الجيوش الفرنساوية صفح الصفح الكلي عن كامل الناس والرعية بسب ماحصل من أراذل أهل البلد والجعيدية من الفتنة والشر مع العساكر الفرنساوية، وعفا عفواً شاملاً، وأعاد الديوان الخصوصي في بيت قائد أغا بالأزبكية، ورتبه من أربعة عشر شخصاً أصحاب معرفة وإتقان خرجوا بالقرعة من ستين رجلاً كان انتخبهم بموجب فرمان، وذلك لأجل قضاء حوايج الرعية وحصول الراحة، كل ذلك من كمال

---

(١) أي رؤساء العساكر، أو رؤساء الحرف، فالجبرتي يستخدم هذا المصطلح لكلا المعنيين.

عقله، وحسن تدبيره، ومزيد حبه لمصر، وشفقته على سكانها من صغير القوم لكبيرهم[١]، ورتبهم بالمنزل المذكور كلَّ يوم، لأجل خلاص المظلوم من الظالم، وقد اقتص من عسكره الذين أساءوا وظلموا بمنزل الشيخ الجوهري وقتل منهم اثنين، وأنزل طائفة منهم عن مقامهم العالي إلى أدنى مقام[٢]؛ لأن الخيانة ليست من عادة الفرنسيس خصوصاً مع النساء الأرامل فإن ذلك قبيح عندهم لايفعله إلا كل رذيل، ووضع القبض في القلعة على رجل نصراني مكَّاس[٣] لأنه بلغه أنه زاد المظالم بمصر القديمة على الناس، ففعل ذلك بحسن تدبيره ليمتنع غيره من الظلم، ومراده رفع الظلم عن كامل الخلق، ويفتح الخليج الموصل من بحر النيل لبحر السويس لتخف أجرة الحمل من مصر إلى قطر الحجاز الأفخم، وتحفظ البضايع من اللصوص وقطاع الطريق، وتكثر عليهم أسباب التجارة من الهند واليمن وكل فج عميق فاشتغلوا بأمر دينكم وأسباب دنياكم، واتركوا الفتنة والشرور، ولاتطيعوا شيطانكم وهواكم، وعليكم بالرضا بقضاء الله[٤]، وحسن الاستقامة لأجل خلاصكم من أسباب العطب والوقوع بالندامة، رزقنا الله وإياكم التوفيق والتسليم.

[١٤٩] ومن كان له حاجة فليأت إلى الديوان بقلب سليم إلا من كان له دعوة شرعيّة فليتوجه إلى القاضي عسكر المتولّي بمصر المحميّة بخط السُّكريّة، والسلام على أفضل الرسل مع الصلاة، ختام.

---

(١) هذا من كذبه، قاتله الله.
(٢) أي خفض رتبهم العسكرية.
(٣) أي جامع الضرائب.
(٤) راجع التعليق الأول على فقرة[١٣٦].

وانقضى شهر شعبان وحوادثه فمنها:

[١٥٠] أن أهل مصر جروا على عادتهم في بدعهم التي كانوا عليها، وانكمشوا عن بعضها، واحتشموها خوفاً من الفرنسيس، فلما تدرجوا فيها وأطلق لهم الفرنسيس القيد، ورخصوا لهم وسايروهم مشوا عليها، واهتموا في عمل موالد الأضرحة التي يرون فرضيتها، وأنها قربة تنجيهم بزعمهم من المهالك وتقربهم إلى ربهم زلفى في المسالك، فرمحوا في غفلاتهم مع ماهم فيه من الأسْر وتعطُّل الأسباب، ووقف الحال وكساد الصنايع، وغُلو البضايع وانقطاع الأخبار ومنع الجَلَب براً وبحراً.

[١٥١] ووقوف الإنكليز واستمرارهم بالبحر وشدة حجرهم على الصادر والوارد، حتى غلت جميع الأصناف المجلوبة، وانقطع أثر كثير منها بحيث لم يبق له وجود ببر مصر، وبطل جملة من الصنايع، وافتقر أهلها واحتاجوا إلى الصنايع بالحرف الدنيّة كقلي السمك وبيع الفطر والأشربة المسكرة للعسكر وإحداث عدة قهاوي، وطبخ الأطعمة والمأكولات في الدكاكين، وكان أكثر أهل الحرف التي بطلَت عمل حَمَّاراً مُكارياً[١]، حتى صارت الأزقة خصوصاً من جهات العسكر مزدحمة بالحمير التي تُكرْى للتردد في شوارع مصر، فإن للفرنسيس بذلك عناية عظيمة ومغالاة في الأجرة بحيث إن الكثير منهم يظل طول النهار فوق ظهر الحمار بدون حاجة سوى أنه يجري به مُسرعاً في الشوارع وكذلك يجتمع الجماعة منهم ويركبون الحمير ويكدونها في المشي والإسراع بهم في الشوارع، وهم يغنون ويضحكون ويصيحون

---

(١) أي يؤجر نفسه.

ويتمسخرون، كما أن لهم عناية أشد من ذلك في بذل الأمور في الخمور والتردد إلى حانات الراح[1]، والرغبة في شراء الفواكه والأقداح حتى قال صاحبنا[2] المشار إليه سابقاً هذين البيتين عند توجههم للشام:

إن الفرنسيس قد ضاعت دراهمهم

فـي مصـرنـا بيـن حمّـار وخمّـار

وعن قريب لهم في الشام مهلكة

يضيـع لهـم فيهـا آجـال أعمـار

وقد تحقق ماتفاءل به عليهم من الهلاك والتردي في حبالة كل مهلكة كما ستطّلع على شرحه.

[١٥٢] ومنها ترفع أسافل النصارى من القبط والشوام والأروام واليهود وركوبهم الخيول وتقلدهم بالسيوف بسبب خدمتهم للفرنسيس، ومشيهم بالخيل وتلفظهم بفاحش القول، واستذلالهم للمسلمين، وعدم اعتبارهم للدّين إلى غير ذلك مما لايحيط به الحساب ولايسطر في كتاب، كل ذلك جزاء ماكسبت أيديهم وما ربك بظلاّم للعبيد، والحالُ الحالُّ والمركوز في الطبع مازال، والبعض استهوته الشياطين ومَرَقَ - والعياذ بالله - من خلل الدّين، ولاحول ولاقوة إلابالله العليّ العظيم.

[١٥٣] ومنها تواتر الأخبار من ابتداء شهر رجب بأن رجلا مغربياً عالماً يقال له الشيخ الكيلاني كان مجاوراً بمكة والمدينة والطائف،

---

(١) أي الخمور.

(٢) الأديب حسن العطّار، وقد مرت ترجمته.

فلما وردت أخبار الفرنسيس إلى الحجاز وأنهم وصلوا الديار المصرية انزعج أهل الحجاز لذلك، وضجوا بالحرم وجرَّدوا الكعبة، وأن هذا الشيخ صار يعظ الناس ويدعوهم إلى الجهاد ويحرضهم على نصرة الحق والدين، وقرأ بالحرم كتاباً في معنى ذلك مؤلفاً، فاتعظ جملة من الناس وبذلوا أموالهم وأنفسهم، واجتمع نحو ستمائة من المجاهدين، وركبوا البحر إلى القُصَير[1] مع من ضم إليهم من أهل يَنْبُع، فورد الخبر في أواخره أنه انضم إليهم جملة من أهل الصعيد وبعض أتراك ومغاربة ممن كان خرج مع غُزِّ مصر عند وقعة إنبابة، وركب الغزُّ معهم أيضاً، وحاربوا الفرنسيس، فلم يثبت الغز كعادتهم وانهزموا، وثبت الحجازيون ثم انكفوا لقتلهم، وهرب الغز والمماليك إلى ناحية إسنا[2]، وصحبتهم حسن بيك الجداوي[3]، وعثمان بيك حسن تابعه[4]، ووقع بين الحجازيين والفرنسيس بعض حروب غير هذه المرة بعدة مواضع، ولم تقع نكاية في العدو بل ينفصل الفريقان بدون طايل.

(١) مرفأ سفن على ساحل البحر الأحمر، بينه وبين قُوص قصبةِ الصعيد خمسة أيام: «معجم البلدان»: ٤/ ٣٦٧.

(٢) بلدة في صعيد مصر.

(٣) الأمير حسن بك الجداوي مملوك علي بك. كان من الشجعان الموصوفين والأبطال المعروفين، تولى إمارة جدة فلذلك لُقب بالجداويّ وذلك سنة ١١٨٤، ثم تنقلت به الأحوال حتى دخل الفرنسيون فجاهدهم جهاداً حسناً، وشهد له بالشجاعة والإقدام، ثم خرج إلى الشام فلم يزل مرابطاً حتى توفي بالطاعون رحمه الله تعالى سنة١٢١٥: انظر «عجائب الآثار»: ٣/ ١٧١ـ ١٧٢.

(٤) لم أعثر له على ترجمة إلا ماجاء في «عجائب الآثار»: «وأمراؤه ـ أي أمراء حسن الجداوي ـ الموجودون الآن عثمان بك المعروف بالحسينيّ...» المصدر السابق: ٣/ ١٧٢.

شهر رمضان

خروج نابليون إلى الشام والإفساد فيه

[١٥٤] فيه أخذ كبير الفرنسيس في الاهتمام بالسفر إلى جهة الشام، وجهزوا طلباً كثيراً، وصاروا في كل يوم تخرج طائفة بعد طائفة، وفي يوم السبت عمل عسكر ديواناً، وأحضر المشايخ والأجاقلية وتكلم معهم في أمر خروجه للسفر وأنهم قتلوا المماليك الفارين بالصعيد وأجلوا باقيهم إلى أقصى الصعيد، وأنهم متوجهون إلى الفرقة الأخرى بناحية غزة، فيقطعونهم ويمهدون البلاد الشامية لأجل سلوك الطريق، ومشي القوافل والتجارات براً وبحراً؛ لعمار القطر وصلاح الأحوال، وأننا نغيب عنكم شهراً، ثم نعود وعند عودنا نرتب النظام في البلد والشرايع وغير ذلك، فعليكم ضبط البلد والرعية في مدة غيابنا، ونبهوا مشايخ الأخطاط والحارات كل كبير يضبط طائفته، خوفاً من الفتن مع العسكر المقيمين بمصر، فالتزموا له بذلك، وكتبوا أوراقاً مبصومة[1] على العادة في معنى ذلك، ولصقوها بالطرق.

[١٥٥] وفي ذلك اليوم خرج القاضي ومصطفى بيك كَتْخُدا الباشا والمشايخ المعينون للسفر إلى جهة العادلية، وخرج أيضاً عدة كبيرة من عسكرهم، ومعهم أحمال كثيرة حتى الأسرة والحصر والفرش، وعدة مواهي ومحفات للنساء والجواري البيض والسود والحبوش الذين أخذوهم من بيوت الأمراء وتزيا أكثرهن بزي النساء الإفرنجيات وغير ذلك.

---

(١) أي مطبوعة.

[١٥٦] وفي يوم الأحد خامسه[1] ركب صاري عسكر الفرنسيس وخرج أيضاً إلى العادلية، وأبقى في مصر عدة من العسكر بالقلعة والأبراج التي بنوها على التلول، وقائمقام وبوسليك وصاري عسكر دزه بجملة من العسكر في الصعيد، وكذلك صواري عسكر الأقاليم، كل واحد معه عسكر في جهة من الجهات، وأخذ معه المدبرين أصحاب المشورة والتراجمين وأرباب الصنايع منهم كالحدادين والنجارين ومهندسي الحروب وكبيرهم أبو خشبة، وأبقى أيضاً بعض أكابرهم بمصر، ثم تراسل المختلفون في الخروج كل يوم تخرج منهم جماعة.

[١٥٧] وفي يوم الثلاثاء سابعه انتدب للنميمة ثلاثة من النصارى الشوام، وعرفوهم أن المسلمين قاصدون الوثوب على الفرنسيس في يوم الخميس تاسعه، فأرسل قائمقام خلف المهدي والأغا فأحضروهم، وذكر لهم ذلك، فقالوا لهم: هذا كذب لاأصل له، وإنما هذه نميمة من النصارى كراهة منهم في المسلمين، ففحص عمن اختلق ذلك فوجدوهم ثلاثة من النصارى الشوام، فقبضوا عليهم وسجنوهم بالقلعة حتى مضى يوم الخميس فلم يظهر صحة مانقلوه، فأبقاهم في الاعتقال.

[١٥٨] ثم إنَّ النصارى الشوام رجعوا إلى عادتهم في لبس العمايم السود والزرق، وتركوا لبس العمايم البيض و الشالات الكشمير الملونة، والمشجّرات، وذلك بمنع الفرنسيس لهم من ذلك.

[١٥٩] ونبهوا أيضاً بالمناداة في أوائل رمضان بأن نصارى البلد

---

(١) أي خامس شهر رمضان المبارك.

يمشون على عادتهم مع المسلمين أولاً، لا يتجاهرون بالأكل والشرب في الأسواق ولا يشربون الدخان ولا شيئاً من ذلك بالمرّة، منهم كل ذلك استجلاباً لخواطر الرعيّة حتى أن بعض الفقهاء مرّ على بعض النصارى وهو يشرب الدخان فنهره فرد عليه رداً شنيعاً، فنزل ذلك المتعمم وضرب النصراني، واجتمع عليه الناس، وحضر القلق المحافظ لتلك الجهة، فرفعهما إلى قائمقام فسأل من النصارى الحاضرين عن عادتهم في ذلك، فأخبروه أن من عادتهم القديمة إذا استهل رمضان لايأكلون ولا يشربون في الأسواق ولابمرأى من المسلمين أبداً، فضرب النصرانيّ وترك المتعمم لسبيله.

[١٦٠] وفي خامس عشرينه ورد الخبر بأن الفرنساوي ملكت قلعة العريش، وطاف رجل من أتباع الشرطة ينادي في الأسواق أن الفرنساوية ملكوا قلعة العريش، وأسروا عدة من المماليك، وفي غد يعملون شَنّك ويضربون مدافع، فإذا سمعتم ذلك فلا تفزعوا، فحزنَ المسلمون لذلك، وانقبضت نفوسهم وصاروا بين مصدِّق ومكذب، وتزايد الوسواس، وأظهر النصارى الفرح والسرور في الأسواق والدور، وأولموا في بيوتهم الولايم، وغيروا الملابس والعمايم، وتجمعوا للهو والخلاعة وزادوا في الشناعة.

[١٦١] ولما أخذوا غزة أرسلوا طوماراً بصورة الواقعة، وبصموه نسخاً وقرىء بالديوان، ولصقوا تلك النسخ بالأسواق ونصها:

بسم الله الرحمن الرحيم، ولاعدوان إلا على الظالمين:

نخبر أهل مصر وأقاليمها أنه حضر فرمان مكتوب من غزة من حضرة الجنرال إسكندر برنيه خطاباً إلى حضرة صاري عسكر دوجاء

وكيل أمير الجيوش بمصر يخبره فيه بأن العسكر الفرنساوية باتوا ليلة تسعة عشر شهر رمضان في خان يونس، وفي فجر تلك الليلة توجهوا سائرين لناحية غزة، فكشفوا قبيل الظهر بساعة عسكر المماليك وعسكر الجزار[1] جالسين تجاه غزة، فتوجه إليهم الجنرال مراد ومع عساكر الفرنساوية من خيالة ومشاة مراده اغتيال عسكر المماليك وعسكر الجزار، فلما انتبهوا له فروا هاربين ووقع بينه وبين أطراف عساكرهم بعض مضاربة يسيرة لم ينجرح فيها إلا شخصان من الفرنساوية ومات عسكري واحد، ومات من عسكر المماليك والجزار ناس قلائل، وحين تشاغل صاري عسكر مراد بالمضاربة والمقاتلة دخل حضرة الصاري عسكر كلبر[2] الذي كان حاكماً بالإسكندرية، وكان ساكناً بالأزبكية إلى بندر غزة وملكها من غير معارض، ووجدوا فيها حواصل مشحونة بالذخاير من بقسماط وشعير وأربعمائة قنطار بارود، واثني عشر مدفعاً وحاصلاً كبيراً ملآناً بالخيام الكثيرة وجللاً وبنبات مهيآت محضرات كصنعة الإفرنج، هذا ماوقع لملكهم بغزة، وقد أخبرناكم على ماوقع في كيفية ملك العريش سابقاً، فاستقيموا عباد الله وارضوا بقضاء الله، وتأدبوا في أحكام مولاكم الذي خلقكم وسواكم، والسلام ختام[3].

وانقضى شهر رمضان ووقع قبل ورود هذه الأخبار المؤلمة لمصر

---

(١) أحمد باشا الجزار حاكم غزة، وقد سبقت ترجمته.

(٢) وهو الذي سيخلف نابليون في مصر ويقتله سليمان الحلبي البطل المشهور، رحمه الله تعالى.

(٣) كأن المقصود من هذه الرسائل ـ والله أعلم ـ إخبار المصريين بما يجري أولاً ثم محاولة الغرس في نفوسهم أنه لافائدة من المقاومة، إذ الفرنسيون أقوياء متمكنون في داخل مصر وخارجها.

من السكون والطمأنينة، بسبب سفرهم وخلو الطرقات منهم وعدم مرور المتخلفين منهم إلافي النادر، واختفائهم بالليل جملة كافية، وانفتاح الأسواق والدكاكين والذهاب والمجيء ليلاً، وزيارة الإخوان والمشي على العادة بالفوانيس ودونها، واجتماع الناس للسّمر في البيوت والقهاوي ووقود المساجد، وصلاة التراويح، وطواف المسحرين، والتسلّي بالرواية والنقول وترجي المأمول، وانحلال الأسعار فيما عدا المجلوبات من الأقطار.

شهر شوال

[١٦٢] استهل بيوم الجمعة، وفي صبح ذلك اليوم ضربوا عدة مدافع لشَنّك[١] العيد، واجتمع الناس لصلاة العيد في المساجد والأزهر، واتفق أن إمام الجامع الأزهر نسي قراءة الفاتحة في الركعة الثانية، فلما سلم أعاد الصلاة بعد ماشنع عليه الجماعة، وخرج الرجال والنساء لزيارة القبور، فانتبذ بعض الحرافيش نواحي قرية باب النّصر، وأسرع في مشيه وهو يقول: نزلت عليكم العرب ياناس، فهاجت الناس وانزعجت النساء ورمحت الجعيدية والحرافيش وخطفوا ثياب النساء، وأُزُرَهم، وما صادفوه من عمايم وغير ذلك، واتصل ذلك بتربة المجاورين وباب الوزير والقراقة حتى أن بعض النساء ماتت تحت الأرجل، ولم يكن لهذا الكلام صحة، وإنما ذلك من مخترعات

---

(١) أي للهو والطرب، وهي كلمة تركية.

الأوباش لينالوا أغراضهم بذلك، وفيه ركب أكابر الفرنسيس وداروا على أكابر البلد وهنأوهم بالعيد فجاملهم الناس بالمداراة.

[١٦٣] وفي سابعه أحضر الأغا رجلاً ورمى رقبته عند باب زويلة وشنق امرأة على شباك السبيل تجاه الباب، والسبب في ذلك أن الفرنساويّ حاكم خط الخليفة وجهة الركبية ويسمى دلوي أحضر باعة الغلال بالرميلة وصادرهم ومنعهم من دفع معتاد الوالي، فاجتمعوا وذهبوا إلى كبير الفرنسيس الذي يقال له شيخ البلد وشكوا إليه، وكان الأمير زين الفقار حاضراً، وهو يسكن تلك الجهة فساعدهم وعرّف شيخ البلد عن شكواهم، فأرسل شيخ البلد إلى دلوي وانتهره وأمره برد ما أخذ فأخبره أتباعه أن زين الفقار هو الذي عضدهم وأنهى شكواهم إلى كبيرهم، فقام دلوي المذكور ودخل على زين الفقار في بيته وسبه وشتمه بلغته وفزع عليه ليضربه، فلما خرج من عنده وذهب إلى كبيرهم وأخبره بفعل دلوي معه، فأمر بإحضاره وحبسه بالقلعة، ثم أخبر شيخ البلد بعض الناس أن الذي وقع من دلوي من تعرضه لبياعي الغلة إنما هو بإغراء خادمه، وعرف كبيرهم أن خادمه المذكور مولع بامرأة رقاصة تأتيه بأشكالها ومن على طريقتها، ويجتمع هو وأضرابه، وترقص تلك المرأة له في القهوة التي بخطهم ليلاً ونهاراً وتبيت معهم في البيت، ويصبحون في أرغد عيش، فلما حبس أميرهم اختفوا، فدلوا على الرجل والمرأة، فقبضوا عليهم وفعلوا بهم ماذكر، ولابأس بما حصل.

[١٦٤] وفي ثامنه يوم الجمعة نودي في الأسواق بموكب كسوة الكعبة المشرفة من قراميدان والتنبيه باجتماع الأوجاقات وأرباب الأشاير وخلافهم على العادة في عمل الموكب، فلما أصبح يوم السبت اجتمع

الناس بالأسواق وطريق المرور، وجلسوا للفرجة فمروا بذلك وأمامها الوالي والمحتسب وجميع الأشاير بطبولهم وزمورهم، ثم برطلمين الكافر وكَتْخُدا مستحفظان[1] وأمامه نفر الانكشارية[2] من المسلمين نحو مائتين أو أكثر وعدة كثيرة من نصارى الأروام بالأسلحة، ثم مواكب القلقات، ثم موكب ناظر الكسوة، وهو تابع مصطفى كتخدا الباشا، وخلفه نوبة التركية، فكانت هذه الركبة من أغرب المواكب وأعجب العجايب، لما اشتملت عليه من اختلاف الأشكال، وتنوع الأمثال، واجتماع الملل، وارتفاع السفل، وكثرة الحشرات، وعجائب المخلوقات، واجتماع الأضداد، ومخالفة الوضع المعتاد، وكان نسيج الكسوة بدار مصطفى كَتْخُدا المذكور، وهو على خلاف العادة من نسجها بالقلعة.

[١٦٥] وفي يوم الأربعاء ثالث عشرة حضر عدة من الفرنسيس وهم راكبون الهجن ومعهم عدة بيارق وأعلام بعد الظهر، وأخبروا أن الكفرة الفرنسيس ملكوا قلعة يافا وبيدهم مكاتبة من صاري عسكرهم بالإخبار عما وقع.

فلما تحقق الناس صحة هذا الخبر نزل بهم من الكآبة والهم والحزن مالا يوصف، فإنهم كانوا يظنون بل يتيقنون استحالة ذلك خصوصاً في المدة القليلة، ولكن المقضيّ كائن[3].

---

(١) أي نائب المحافظ.

(٢) نوع مخصوص من العسكر العثمانيّ، ومعناه العسكر الجديد، وكانوا من أبناء نصارى البلقان يؤخذون وهم صغار ويربون تربية إسلامية جهادية، لكن ساء حالهم مع تدهور الدولة العثمانية حتى قضى عليهم السلطان محمود خان بعد خمسة قرون من تأسيس نظامهم، وانظر «تأصيل ماورد في تاريخ الجبرتيّ»: ٣١.

(٣) كان الذي صنعه الفرنسيون في يافا أمراً يفوق الوصف، ويخالف كل المخالفة مازعمه الفرنسيون من حقوق الإنسان ومواثيق الإنسانية، فقد استولى الفرنسيون =

[١٦٦] وفي يوم الجمعة خامس عشر شق جماعة من أتباع الشرطة في الأسواق والحمامات والقهاوي، ونبهوا على الناس بترك الفضول والكلام والتلفظ في حق الفرنسيس، ويقولون لهم: من كان يؤمن بالله ورسوله فلينته ويترك الكلام في ذلك، فإن ذلك مما يهيج العداوة، وعرفوهم أنه إن بلغ الحاكم من المتجسسين عن أحد تكلم في ذلك عوقب أوقتل، فلم ينتهوا، وربما قبضوا على البعض وعاقبوه بالضرب والتغريم.

[١٦٧] وفي ذلك اليوم كان التحويل الربيعي وانتقال الشمس لبرج الحمل، وهو أول شهر من شهورهم[١]، فعملوا ليلة السبت شَنّك وحراقة وصواريخ، وتجمعوا بدار الخلاعة نساء ورجالاً وتراقصوا وتسابقوا وأوقدوا سرجاً وشموعاً وغير ذلك، وأظهر النصارى القبطة والشوام الفرح والسرور.

[١٦٨] وفي يوم الأحد سابع عشره رتبوا أوامر وكتبوها في أوراق

= على المدينة وأعملوا السيف في نحو ٢٠٠٠ جندي من الحامية كانوا يحاولون التسليم، وراح الفرنسيون يقتلون أعداءهم كالمجانين طوال ذلك المساء كله، والليل كله، وفي صباح الغد فالرجال والنساء والأطفال والمسيحيون والمسلمون، وكل من له وجه إنسان سقط صريع جنونهم... وكان النهب والسلب وشق البطون وهتك أعراض البنات وهن مازلن في أحضان أمهاتهن المائتات، والأدهى من ذلك أنه بعد أن استسلمت المدينة استسلم نحو ثلاثة آلاف من الجنود والترك المسلمين وأمّنهما القادة الفرنسيون لكن نابليون لم يعجبه ماصنع القادة وأمر بقتل جميع الأسرى ـ ماعدا المصريين ـ بطريقة وحشية وهي القتل بالحراب لأنهم يريدون توفير الذخيرة، ولو ذهبت أسوق لكم نصوص مذكرات القادة الفرنسيين عن هذه المعركة لأدميت القلوب، ولاحول ولاقوة إلا بالله، وانظر «ودخلت الخيل الأزهر»: ٢٤١ـ٢٤٥.

(١) وذلك في أول إبريل قبل أن يحولوا ابتداء السنة إلى أول يناير.

مبصومة[1] ولصقوها بالأسواق أحدها بسبب مرض الطاعون، وآخر بسبب الضيوف الأغراب.

ومضمون الأول بتقاسيمه ومقالاته خطاباً لأهل مصر وبولاق ومصر القديمة ونواحيها أنكم تمتثلوا هذه الأوامر وتحافظوا عليها ولاتخالفوها، وكل من خالفها وقع له مزيد الانتقام والعقاب الأليم والقصاص العظيم، وهي المحافظة من تشويش الكُبّة[2]، وكل من ظننتم أو توهمتم وشككتم فيه ذلك في محل من المحلات أو بيت أو وكالة أو ربع يلزمكم ويتحتم عليكم أن تعملوا كورنتيلة[3]، ويجب قفل ذلك المكان، ويكون شيخ الحارة أو السوق الذي فيه ذلك أن يخبر حالاً قلق الفرنساوية حاكم ذلك الخط، والقلق يخبر شيخ البلد قائمقام مصر، ويكون ذلك فوراً.

وكذلك كل ملة من سكان مصر وأقاليمها وجوانبها والأطباء إذا تحققوا وعملوا ذلك المرض يتوجه كل طبيب إلى قائمقام ويخبره ليأمره بما هو مناسب للصيانة والحفظ من هذا التشويش، وكل من كان عنده خبر من كبار الأخطاط أو مشايخ الحارات وقلقات الجهات ولم يخبر بهذا المرض يعاقب بما يراه قائمقام، ويقاصص مشايخ الحارات بمائة كرباج جزاء التقصير.

وملزوم أيضاً من أصابه هذا التشويش أو حصل في بيته لغيره من عائلته أو عشيرته وانتقل من بيته إلى آخر، كان قصاصه الموت، وهو

---

(١) أي مطبوعة.
(٢) الطاعون، انظر «المعجم الوسيط»: ك ب ب.
(٣) وهي التي نطلق عليها كرنتينة وهي المحجر الصحيّ، وانظر تفصيلاً في أصل تسميتها في «تأصيل ماورد في تاريخ الجبرتيّ»: ١٨١.

الجاني على نفسه بسبب انتقاله، وكل رئيس ملة في خط إذا لم يخبر بالكبة الواقعة في خطه أو بمن مات بها أيضاً حالاً فوريًا كان عقاب ذلك الرئيس وقصاصه الموت، والمغسل إن كان رجلاً أو امرأة إذا رأى الميت أنه مات بالكبة أو شك في موته بها ولم يخبر قبل مضي أربعة وعشرين ساعة كان جزاؤه وقصاصه الموت، وهذه الأوامر الضرورية تلزم أغاة الانجكارية[1] وحكام البلد الفرنساوية والإسلامية تنبيه الرعية واستيقاظهم لها فإنها أمور لعلها مخيفة، وكل من خالف حصل له مزيد الانتقام من قائمقام، وعلى القلقات البحث والتفتيش عن هذه العلة الردية لأجل الصيانة والحفظ لأهل البلد والحذر من المخالفة، والسلام.

[١٦٩] ومضمون الثاني الخطاب السابق من صاري عسكر دوجا الوكيل وحاكم البلد رستين قائمقام:

يلزم المدبرين بالديوان أنهم يشهرون الأمر الذي صار ويتنبهون وينبهون عليها ويأمرون كامل الرعية بالمحافظة عليها، وكل من خالف يحصل له مزيد الانتقام، وهو أنه يتحتم ويلزم كل صاحب خمارة أو وكالة أو بيت الذي يدخل في محله ضيف أو مسافر أو قادم من بلد أو إقليم يلزمه أن يعرف عنه حالاً حاكم البلد ولا يتأخر عن الإخبار إلا مدة أربعة وعشرين ساعة، يعرفه عن مكانه الذي قدم منه وعن سبب قدومه ومدة سفره ومن أي طائفة أو ضيفاً أو تاجراً أو زائراً أو غريماً مخاصماً، لابد لصاحب المكان من إيضاح، والحذر ثم الحذر من التلبيس والخيانة، وإذا لم يقع تعريف عن كل ماذكر في شأن القادم بعد الأربعة وعشرين ساعة بإظهار اسمه وبلده وسبب قدومه يكون

---

(١) أي رؤساء العساكر الانكشارية العثمانية.

صاحب المكان متعدياً ومذنباً وخائناً وموالساً[١] المماليك[٢]، ونخبركم معاشر الرعايا وأرباب الخمامير والوكايل أن تكونوا ملزومين بغرامة عشرين ريال فرانسة في المرة الأولى، وأما في المرة الثانية، فإن الغرامة تضاعف ثلاث مرات، ونخبركم أن الأمر بهذه الأحكام مشترك بينكم وبين الفرنسيس الفاتحين للخمامير والبيوت والوكايل، والسلام.

شهر ذي القعدة

[١٧٠] في سادسه يوم الجمعة حضرت هَجّانة[٣] من الفرنسيس ومعهم مكاتبة مضمونها أنهم أخذوا حيفا، وبعدها ركبوا على عكا وضربوا عليها وهدموا جانباً من سورها، وأنهم بعد أربعة وعشرين ساعة يملكونها، وأنهم استعجلوا في إرسال هذه الهجانة لطول المدة والانتظار لئلا يحصل لأصحابهم القلق فتكونوا مطمئنين، وبعد سبعة أيام نحضر إلى عندكم، والسلام، وقد كذبوا[٤].

[١٧١] في هذا الشهر كتبوا أوراقاً بأوامر صورتها:

من محفل الديوان العموميّ إلى جميع سكان مصر وبولاق ومصر القديمة:

---

(١) قال المحقق: الولس: الخيانة (القاموس)، وفي لغة العوام: التستر.

(٢) أي متستراً عليهم، وإنما بث الفرنسيس تلك المنشورات بين الناس خوفاً من الجواسيس من قبل الدولة العثمانية أو الإنجليز.

(٣) الهجّان: راكب الهَجين، والهجين: هو الخيل الذي تلده البِرْذونة من الحصان العربيّ: انظر «المعجم الوسيط»: هـ ج ن.

(٤) وإنما كذبهم الجبرتيّ لأن عكا لم تقع في يد نابليون واستعصت عليه.

إننا قد تأملنا وميزنا الواسطة الأقرب والأيمن لتلطيف أو لمنع الخطر الضروريّ وهو تشويش الطاعون عدم المخالطة مع النساء المشهورات[1]، لأنهم الواسطة الأقرب للتشويش المذكور، فلأجل ذلك خَمّنّا ورتبنا ومنعنا لمدة ثلاثين يوماً من تاريخه أعلاه لجميع الناس إن كان فرنساوي أو مسلم أو نصراني أو يهودي من أي ملة كان، كل من أدخل إلى مصر أو بولاق أو مصر القديمة من النساء المشهورات إن كان في بيوت العساكر أو كل من كان داخل المدينة فيكون قصاصه بالموت، كذلك من قبل النساء والبنات المشهورات بالعكس إن دخلوا من أنفسهم أيضاً يقاصوا بالموت.

[١٧٢] ومن حوادث هذا الشهر أنه حضر إلى القُلْزم[2] مركبان إنكليز- وقيل أربعة - وقفت قبالة السويس، وضربوا مدافع، ففر أناس من سكان السويس إلى مصر وأخبروا بذلك.

[١٧٣] ومنها أن طائفة من عرب البحيرة جاءوا وضربوا دمنهور وقتلوا عدة من الفرنسيس وعاثوا في تلك النواحي والبلاد حتى وصلوا إلى رشيد والرحمانية يقتلون النفس من الفرنسيس وغيرهم، وينهبون البلاد والزروعات.

[١٧٤] ومنها أن الكيلانيّ المذكور آنفاً[3] توفي إلى رحمة الله - تعالى - وتفرقت طائفته في البلاد، حتى أنهم حضر منهم جملة لمصر، وكان أكثر من نجا مرّ عليهم أهل بلاد الصعيد، فيوهمونهم معاونتهم

---

(١) أي الزواني المشهورات بالزنا.

(٢) أي البحر الأحمر.

(٣) أي الذي جرّد الحملة الحجازية، انظر فقرة [١٥٣].

وعند الحرب يتخلون عنهم، وبعض البلاد يضيفهم ويسلط عليهم الفرنسيس فيقبضون عليهم.

[١٧٥] ومنها أنه حضر لمصر الأكثر من عسكر الفرنسيس الذين كانوا بالجهة القبلية، وضربوا في حال رجوعهم بني عدي - بلدة من بلاد الصعيد مشهورة - وكان أهلها ممتنعين عليهم في دفع المال المكلف، ويرون في أنفسهم الكثرة والمنعة والقوة، فخرجوا عليهم وقاتلوهم فملك عليهم الفرنسيس تلاً عالياً وضربوا عليهم بالمدافع فأتلفوهم وأحرقوا جرونهم[١] ثم كبسوا عليهم، وأسرفوا في قتلهم ونهبهم، وأخذوا أشياء كثيرة وأموالاً عظيمة وودايع[٢].

شهر ذي الحجة

[١٧٦] في ثانيه خرج نحو ألف من العسكر الفرنسيس للمحافظة على البلاد الشرقية، وذهبوا إلى جهة دمنهور وفعلوا بها كما فعلوا ببني عدي من النَّهب والقتل[٣].

---

(١) الجُرْن: موضع التمر الذي يُجفف فيه: «مختار الصحاح»: ج ر ن ، وهو كالبَيْدر للقمح. .

(٢) قال الجنرال بريتيه رئيس أركان حرب الحملة الفرنسية في مذكراته: «أصبحت بني عديّ أكواماً من الخرائب، وتكدست القتلى في شوارعها، ولم تقع مجزرة أشد هولاً مماحلّ ببني عديّ، وقدر الجنرال دافو [قائد الحملة] عدد القتلى من الأهالي بألفي قتيل، ويقدرهم ديزيه [قائد الصعيد] في تقريره إلى نابليون بنحو ثلاثة الآف قتيل»: «ودخلت الخيل الأزهر»: ٢٠٨.

(٣) ذكر الجنرال لانوس في رسالة بعث بها إلى الجنرال دوجا شيئاً من الفظائع التي ارتكبها في دمنهور، فقال: «كانت مدينة دمنهور وأهلها هدفاً لانتقام الجنود، فقد قتلوا من الأهالي نحو ٢٠٠ أو ٣٠٠، وبعد ذلك أمرتُ بتسليم المدينة =

[١٧٧] وكان أشيع بمصر وتناقله الناس - وثبت وجوده في الخارج بعد ذلك - أنه حضر إلى دمنهور رجل مغربيّ وصحبته نحو ثمانين نفراً فكاتب أهل البلاد، ودعا الناس إلى الجهاد فاجتمع عليه أهل البحيرة وغيرهم وحضروا إلى دمنهور وقاتلوا مَن بها من الفرنسيس، واستمر أياماً كثيرة تجتمع عليه أهل تلك النواحي وتفترق، ويغرب هو تارة ويشرق[١].

[١٧٨] وفي سابعه حضر جماعة من فرنسيس الشام إلى الكرنتيلة بالعادلية وفيهم مجاريح، وأخبر عنهم بعضهم أن الحرب لم تزل قائمة بينهم وبين أحمد باشا بعكا وأن مهندس حروبهم - المعروف بأبي خشبة عند العامة[٢] واسمه كفرلي - كان هلك، وحزنوا لموته لأنه من دهاتهم وشياطينهم، وكان له معرفة بتدبير الحروب ومكائد القتال وإقدام عند المصاف، مع ماينضم لذلك من معرفة الأبنية وكيفية وضعها وكيفية أخذ القلاع ومحاصرتها.

وفي يوم الأربعاء كان عيد النحر - وكان حقه يوم الخميس - وعند الغروب من تلك الليلة ضربوا مدافع من القلعة إعلاماً بالعيد، وكذلك

= لفظائع النهب وسفك الدماء، والآن لم يعد لدمنهور وجود، وقد قتل من أهلها نحو١٢٠٠ أو ١٥٠٠ ماتوا قتلاً أو حرقاً»: المصدر السابق: ٢١٤.
هذا عدا عما فعلوه من فظائع في طريقهم إلى دمنهور حيث قتلوا وأحرقوا ونهبوا، «وكان صياح الأهالي وبكاء النساء ونحيبهم يصم الآذان» ولاحول ولاقوة إلا بالله: انظر المصدر السابق: ٢١١.

(١) هذا النداء الجهادي هو من ضمن النداءات والجهود العديدة التي بذلت لجهاد الفرنسيس لكنها كانت كلها بلا تربية مسبقة للناس على تعاليم الإسلام الصحيحة، وكانت - أيضاً- بلا تخطيط صحيح مثمر، وانظر فهرست الفوائد ففيه تفصيل هذا الإجمال.

(٢) قد تقدم مزيد من أخباره في الفقرة رقم [١١٧].

عند الشروق، ولم يقطع في ذلك العيد أضحية على العادة لعدم الأنعام وكونها محجوزة بالكرنتيلة، والناس في غم.

[١٧٩] ومن الحوادث في ذلك اليوم أن رجلا رومياً من باعة الرقيق عنده غلام مملوك ساكن في طبقة بوكالة زين الفقار بالجمالية خرج لصلاة العيد ورجع إلى طبقته فوجد ذلك الغلام متقلداً بسلاح ومتزي بمثل ملابس الغليونجية فقال له: من أين لك هذا اللباس؟ فقال: من عند جارنا فلان العسكري، فأمره بنزع ذلك، فلم يستمع له ولم ينزعها، فشتمه ولطمه على وجهه، وخرج من الطبقة، وحدثته نفسه بقتل سيده، ورجع يريد ذلك، فوجد عند سيده ضيفاً فلم يتجاسر عليه لحضور ذلك الضيف، فوقف خارج الباب ورآه سيده فعرف من عينه الغدر.

فلما قام ذلك الضيف قام معه، وخرج وأغلق الباب على الغلام، فصعد إلى السطح وتسلق إلى سطح آخر، ثم تدلى بحبل إلى أسفل الخان وخرج إلى السوق وسيفه مسلول بيده، ويقول: الجهاد يامسلمين: اذبحوا الفرنسيس، ونحو ذلك من الكلام، ومر إلى جهة الغورية فصادف ثلاثة أشخاص من الفرنسيس فقتل منهم شخصاً وهرب الاثنان، ورجع على أثره والناس يعدون خلفه من بُعد إلى أن وصل إلى درب بالجمالية غير نافذ، فدخله وعبر إلى دار وجدها مفتوحة وربها واقف على بابها، والفرنسيس تجمّع منهم طائفة وظنوا ظناً آخر، وبادروا إلى القلاع وحضر منهم طائفة مع القلق يسألون عن ذلك المملوك.

وهاجت العامة ورمحت الصغار وأغلق بعض من كان فاتحاً في هذا اليوم حانوته، ثم لم تزل الفرنسيس تسأل عن المملوك والناس يقولون ذهب من هنا، حتى وصلوا إلى ذلك الدرب فدخلوه، فلما

أحس بهم نزع ثيابه وتدلى ببئر في تلك الدار، فدخلوا الدار وأخرجوه من البئر وأخذوه وسكنت الفتنة، فسألوه عن أمره، وما السبب في فعله ذلك، فقال: إنه يوم الأضحية فأحببت أضحي على الفرنسيس وسألوه عن السلاح، فقال: إنه سلاحي، فحبسوه لينظروا في أمره، وطلبوا سيده فوجدوه عند الشيخ المهدي، فأخذوا بعض جماعة من أهل الخان ثم أطلقوهم بدون ضرر، وأخذوا سيده من عند الشيخ المهدي وحبسوه، وحضر الأغا وبرطلمين إلى الخان بعد العشاء وطلبوا البواب والخانجي والجيران وصعدوا إلى الطباق وفتشوا على السلاح وقلعوا البلاط فلم يجدوا شيئاً وأرادوا فتح الحواصل ليتوصلوا لنهبها فمنعهم أحمد بن محمود محرم التاجر، فخرجوا وأخذوا معهم الخانجي وجيران الطبقة تتمة سبعة أنفار وحبسوهم أيضاً، وقتلوا المملوك في ثاني يوم، واستمر الجماعة في الحبس إلى أن أطلقوهم بعد أيام عديدة من الحادثة.

[١٨٠] وفي ذلك اليوم أيضاً مرّ نصرانيّ من الشوام على المشهد الحسينيّ وهو راكب على حمار، فرآه ترجمان قَلَق الخطة ويسمى السيد عبدالله فأمره بالنزول إجلالاً للمشهد على العادة، فامتنع فأشهره[١] وضربه وألقاه إلى الأرض، فذهب ذلك النصراني إلى الفرنسيس وشكا إليهم من السيد عبدالله المذكور، فأحضروه وحبسوه، فشفع فيه مخدومه، فلم يطلقوه، وادعى النصراني أنه كان بعيداً عن المشهد، وأحضر من شهد له بذلك، وأنه ضاع له وقت ضربه إياه دراهم كانت في جيبه، واستمر الترجمان محبوساً عدة أيام حتى دفع تلك الدراهم وهي ستة آلاف درهم.

---

(١) قال المحقق: يريد: شهَّر به وأهانه.

[١٨١] وانقضى هذا الشهر ولم يات خبر صحيح عن فرنسيس الشام وماجرى لهم أو عليهم إلا هجوم الإفرنج على حصن عكا، ولم يتركوا من حيلهم ومكايدهم شيئاً إلا فعلوه، ولم ينالوا غرضاً منها، ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين[١].

وانقضت هذه السنة وما تجدد بها من الحوادث التي من أعظمها امتناع سفر الحج من مصر، ولم يرسلوا الكسوة ولا الصرة، وذلك من أشنع الحوادث التي لم يتفق نظيرها في دولة آل عثمان أبداً، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

شهر محرم سنة ١٢١٤

ثم دخلت سنة أربعة عشر ومائتين وألف: استهل المحرم بيوم الأربعاء.

---

(١) يقول الشيخ محمود شاكر:
«بقي هذا القائد المفتون [أي نابليون] نحو سبعة أشهر في القاهرة يخرب ويفعل الأفاعيل، وفي فبراير سنة ١٧٩٩- رمضان ١٢١٣- خرج منها ليدوخ سورية، وظل يقاتل بها نحو ثلاثة أشهر، وحاصر عكّا، ولكن المقاومة التي لقيها هناك اضطرته إلى رفع الحصار عنها في ٣٠ مايو سنة ١٧٩٩- ذي الحجة سنة ١٢١٣- بعد أن فقد آلاف من جيشه، وعشرات من قواده وعلمائه ومستشرقيه وعلى رأسهم المستشرق الداهية «فانتور» خليله ومستشاره في شؤون دار الإسلام.
كانت هزيمته في عكّا هزيمة منكرة فآب إلى القاهرة وفي قلبه الخوف من العواقب التي تفجؤه بها دار الإسلام...»: «رسالة في الطريق إلى ثقافتنا»: ٩٤-٩٥.

[١٨٢] وفي يوم الثلاثاء سابعه حضر جماعة من العسكر بأثقالهم وحضرت مكاتبة من كبير الفرنسيس أنه وصل إلى الصالحية وأرسل (دوجا) الوكيل، ونبه على الناس بالخروج لملاقاته بموجب ورقة حضرت من عنده يأمر بذلك، فلما كان ليلة الجمعة عاشره أرسلوا إلى المشايخ والأوجقلية وغيرهم فاجتمعوا بالأزبكية وقت الفجر بالمشاعل، ودقت الطبول وحضر الحكام والقلقات بمواكب وطبول وزمور ونوبات تركية وطبول شامية وملازمين وجاويشية وغير ذلك، وحضر الوكيل وقائمقام وأكابر عساكرهم وركبوا جميعاً بالترتيب من الأزبكية إلى أن خرجوا إلى العادلية، فقابلوا كبير الفرنسيس هناك وسلموا عليه، ودخل معهم لمصر من باب النصر بموكب هائل بعساكرهم وطبولهم وزمورهم وعرباتهم ونسائهم وأطفالهم في نحو خمس ساعات من النهار إلى أن وصل إلى داره بالأزبكية، وانفض الجمع، وضربوا عدة مدافع عند دخولهم للمدينة، وقد تغيرت ألوان العسكر القادمين واصفرت أبدانهم، وقاسوا مشقة عظيمة من الحر والتعب، ولم يظفروا بمقصودهم من أحمد باشا، ولله الحمد، ورجعوا من غير طائل، وأقاموا على حصار عكة أربعة وستين يوماً، حرباً مستديمة ليلاً ونهاراً، وأبلى أحمد باشا وعسكره بلاءً حسناً.

[١٨٣] وفيه قبضوا على إسماعيل القَلَق[1] الخريطلي، وهو المتولي كَتْخُدا الغرب، وكان ساكناً بخط الجمالية وأخذوا سلاحه

---

(١) الحارس والجنديّ.

وأصعدوه إلى القلعة وحبسوه في[1] أنه عمل في تلك الليلة وليمة، ودعا أصدقاءه وأحبابه وآلات اللهو والطرب وبات سهران طول الليل، فلما كان آخر الليل غلب عليهم السهر والسكر فناموا إلى ضحوة النهار وتأخر عن حضور ملاقاة الفرنسيس، فلما أفاق ركب ولاقاهم عند باب النصر، فنقموا عليه ذلك، وحبسوه كما ذكر، ولما وصل كبير الفرنسيس إلى داره بالأزبكية تجمع هناك أرباب الملاهي والبطالات، ورعاع العالم من الحرافيش وأكلة الحشيش وملاعبي القرود والحواة والنساء الراقصات وأمثال ذلك، كتجمعهم أيام العيد والمواسم، واستمروا على ذلك ثلاثة أيام، وفي كل يوم تعمل الفرنسيس شنك ومدافع وحراقة وصواريخ ونفوط، ثم انصرفوا بعدما أعطاهم دراهم.

شهر صفر الخير

[١٨٤] وفي سادس عشره ورد الخبر بأن عثمان خجا وصل إلى قلعة أبي قير صحبة السيد مصطفى باشا فضربوا على القلعة وقتلوا من كان فيها من الفرنسيس، وعثمان خُجا هو الذي كان متولياً إمارة رشيد من طرف صالح بيك وحج معه ورجع صحبته إلى الشام، فلما توفي صالح بيك[2] سافرإلى الديار الرومية وحضر صحبته السيد مصطفى باشا المذكور.

---

(١) أي بسبب.

(٢) لم أتبين من المراد بصالح هذا.

[١٨٥] فلما تحققت هذه الأخبار كثر اللغَطُ في الناس، وأظهروا البشرى وتجاهروا بلعن النصارى، واتفق أنه تشاجر بعض المسلمين بحارة البرابرة مع بعض نصارى الشوام، فقال المسلم للنصرانيّ: إن شاء الله تعالى بعد أربعة أيام نشتفي منكم وكلام من هذا المعنى، فذهب النصرانيّ إلى الفرنسيس مع عصبة من جنسهم وأخبروهم بالقصة، وزادوا وحرفوا وعرفوهم أن قصد المسلمين إثارة فتنة، فأرسل قائمقام إلى الشيخ المهدي وتكلم معه في شأن ذلك وحاججه، وأصبحوا فاجتمعوا بالديوان فقام المهدي خطيباً، وتكلم كثيراً، ونفى الريبة وكذب أقوال الأخصام، وتشدد في تبرئة المسلمين مما نسب إليهم، وبالغ في الحطيطة والانتقاص من جانب النصارى، وكان هذا المقام من مقاماته المحمودة، ثم جمعوا مشايخ الأخطاط والحارات وحبسوهم.

[١٨٦] وفي ثامن عشره وردت أخبار وعدت مكاتيب لكثير من الأعيان والتجار، كلها على نسق واحد بأن المسلمين ملكوا إسكندرية في ثالث ساعة من يوم السبت سادس عشر صفر، وفرح الناس وهنأ بعضهم بعضاً ثم ظهر عدم صحة ذلك، ولعل ذلك من المكايد.

[١٨٧]وفي ليلة الثلاثاء عشرينه أشيع أن الفرنسيس انتصروا على المسلمين وأخذوا قلعة أبي قير، وأخذ السيد مصطفى باشا أسيراً وعثمان خُجا وعدة من المسلمين[١]، وأخبر الفرنسيس أنه حضرت لهم مكاتبة بذلك من أكابرهم، ولما طلع النهار ضربوا مدافع كثيرة من قلعة الجبل

---

(١) وكانت هذه معركة أبي قير البحرية بين الجيش العثماني والفرنسيين، حيث نزل الجيش العثماني إلى أبي قير وتحصن بها، وكان يبلغ عدده ١٨ ألف مقاتل، فسار نابليون من القاهرة لمحاربتهم فتغلب عليهم، والتجأ من لم يُقتل منهم إلى المراكب، وأسر قائدهم مصطفى باشا وكثيراً من الجنود، وذلك في صفر سنة١٢١٤: انظر «تاريخ الدولة العلية»: ٣٧٦.

وأبراج التلول، وجامع الظاهر وبصحن الأزبكية، فانزعج الناس ونزل بهم من الغم والكآبة مالايزيد عليه، ولاحول ولاقوة إلابالله العلي العظيم، وفي ليلتها-أعني ليلة الأربعاء-عملوا حراقة بالأزبكية وصواريخ ونفوط[1].

شهر ربيع الأول

[١٨٨] وفي ليلة الأحد تاسعه حضر كبير الفرنسيس ودخل إلى داره بالأزبكية وحضر بصحبته عدة ناس من أسارى المسلمين، وشاع الخبر بحضوره، فذهب كثير من الناس إلى الأزبكية أيضاً ليتحققوا الخبر على جليته، فشاهدوا الأسارى وهم فوق بوسط البركة ليراهم الناس، فكفكف الناس دموعهم وكظموا غيظهم وطووا قلوبهم حرقة الأسى ومرارة الأسف، وأظهروا التجلد للعدو، وقد طار من القلب الراحة والهدوء.

وتجلـــدي للشـــامتيـــن أريهـــمُ

أني لريب الدهر لاأتضعضع

ثم إنهم صرفوا الأسارى بعد الحصة من النهار، فأرسلوا بعضهم إلى جامع الظاهر خارج الحسينية، وأصعدوا باقيتهم إلى القلعة، وأما السيد مصطفى باشا فإنهم لم يقدموا به لمصر بل أرسلوه إلى الجيزة مكرماً، وأبقوا عثمان خُجا بالإسكندرية، ولاحول ولاقوة إلا بالله العلي العظيم.

---

(١) فرحاً بنصرهم.

فيـــوم لنـــا ويـــوم علينـــا

ويـــوم نُســـاء ويـــوم نســـر

وما زالت الأيام تأخذ وتعطي، والسهام تصيب وتخطي.

[١٨٩] ولما استقر كبير الفرنسيس بمنزله ذهب للسلام عليه المشايخ والأعيان وسلموا عليه، فلما استقر بهم المجلس، قال لهم على لسان الترجمان: إن صاري عسكر يقول لكم إنه لما سافر إلى الشام كانت حالتكم طيبة في غيابه، وأما في هذه المره فليست كذلك؛ لأنكم كنتم تظنون أن الفرنسيس لايرجعون بل يموتون عن آخرهم، فكنتم فرحانين ومستبشرين، وكنتم تعارضون الآغا في أحكامه، وأن المهدي و الصاوي ماهم (بونو) يعني ماهم طيبين ونحو ذلك، وسبب كلام هذا الحكاية المتقدمة التي حبسوا بسببها مشايخ الحارات فكان الأغا الخبيث يريد أن يقتل في كل يوم ناساً بأدنى سبب، فكان المهدي والصاوي يعارضانه، ويتكلمان معه بالديوان، ويوبخانه ويخوفانه سوء العاقبة، فيرسل إلى كبير الفرنسيس فيطالعه بالأخبار ويشكوهما، فلما حضر عاتبهم في شأن ذلك فلاطفوه حتى انجلى خاطره وأخذ يحدثهم على ماوقع مع العسكر بأبي قير والنصر عليهم وغير ذلك.

[١٩٠] وفي يوم الثلاثاء حادي عشره عُمل المولد النبوي بالأزبكية ودعا الشيخ البكريّ كبير الفرنسيس مع جماعة من أعيانهم وتعشوا عنده وضربوا ببركة الأزبكية مدافع وعملوا حراقة وصواريخ، ونادوا في اليوم بفتح الأسواق والدكاكين ليلاً وإسراج قناديل اصطناع زينة.

[١٩١] وورد الخبر بأن الفرنسيس أحضروا عثمان خُجا ونقلوه من الإسكندرية إلى رشيد فدخلوا به البلد، وهو مكشوف الرأس حافي

القدمين، وطافوا به البلد يزفونه بطبولهم، ثم قطعوا رأسه تحت داره، ثم رفعوا الرأس وعلقوه من شباك داره يراه من يمر بالسوق، رحمه الله.

هروب نابليون من مصر

[١٩٢] وفي ثالث عشره أشيع بسفر كبير الفرنسيس بونابارته إلى جهة بحري، ولم يعلم أي جهة يريد، وسئل بعض أكابرهم فأخبر أن صاري عسكر المنوفية دعاه لضيافة بمنوف حين كان مسافراً جهة أبي قير، فأوعده بالعود إليه بعد وصوله لمصر، وراج ذلك على الناس وظنوا صدقهم.

ولما كان يوم الأحد سادس عشره خرج مسافراً من آخر الليل، وخفي أمره على الناس وانقطع أثره[١].

الفجور الحادث بقدوم الفرنسيين

[١٩٣] وفي يوم الخميس رابع عشرينه ـ الموافق التاسع مسرى القبطي ـ كان وفاء النيل المبارك، فنودي بوفائه على العادة، وخرج

---

(١) خرج نابليون من مصر إلى الإسكندرية إلى فرنسا خفية خشية من الإنجليز الذين كانوا يحاصرونه في البحر، وإنما ذهب إلى فرنسا لوصول الخبر بهزيمة جيوشها أمام النمسا والفوضى التي لحقت بالبلاد فأراد أن يصلح شأنها ويتولى مركزاً مرموقاً فيها، وأذن لقائده من بعده كليبر أن يبرم الصلح ويخرج من مصر لو احتاج لذلك، لعدم إمكان نجدته من فرنسا بشيء لمحاصرة الإنجليز مصر بحرياً: انظر «تاريخ الدولة العلية»: ٣٧٧.

النصارى البلدية من القبط والشوام والأروام، وتأهبوا للخلاعة والقصف والتفرج واللهو، وذهبوا تلك الليلة إلى بولاق ومصر والعتبة والروضة وأكثروا المراكب ونزلوا فيها وصحبتهم الآلات والمغاني، وخرجوا في تلك الليلة عن طورهم، ورفضوا الحشمة، وسلكوا مسلك الأمراء سابقاً من النزول في المراكب الكثيرة المقاذيف، وصحبتهم نساؤهم وقحابهم وشرابهم وخمورهم، وتجاهروا بكل قبح من الضحك والسخرية والكفريات ومحاكاة المسلمين، وبعضهم تسلح وتزيا بزي نساء مصر على سبيل الاستهزاء، وتشبه بهم وحاكى ألفاظهم وغير ذلك، وأجرى الفرنسيس المراكب المزينة، وعليها البيارق، وفيها أنواع الطبول والمزامير في البحر.

[١٩٤] وقد وقع في تلك الليلة بالبحر وسواحله من الفواحش والتجاهر بالمعاصي مالايكيف ولايوصف، وسلك بعض غوغاء العامة وأسافل العالم ورعاعهم مسالك متسفل الخلاعة ورذالة الرقاعة بدون أن ينكر أحد على أحد من الحكام أو غيرهم، بل كل إنسان يفعل ماتشتهيه نفسه، وما يخطر بباله، وإن لم يكن من أمثاله:

إذا كان رب الدار بالدف ضارباً

فشيمةُ أهل الدار كلهم الرقص

وأكثر الفرنسيس في تلك الليلة وصباحها من رمي المدافع والصواريخ من المراكب والسواحل وباتوا يضربون أنواع الطبول والمزامير.

[١٩٥] وفي ثامن عشرينه تشفع أرباب الديوان من أهل يافا[1]

---

(١) أي: في أهل يافا.

المسجونين بالقلعة فوقع الاتفاق على الإفراج عنهم بمصالحة مائة كيس، فاجتمع الرؤساء والتجار وتشاوروا في مجلس خاص بينهم، فاتفق الحال على تقسيطها وتأجيلها في كل عشرين يوماً خمسة وعشرون كيساً، فدفع التجار خمسة وعشرين كيساً، وأفرج عنهم من القلعة، وأجِّل الباقي على الشرح المذكور.

تولي كليبر على مصر

[١٩٦] وفيه ورد من بونابارته صاري عسكر كتاب من الإسكندرية خطاباً لأهل مصر وسكانها، فأحضر قائمقام دوجا الرؤساء المصرية وقرأ عليهم الكتاب، مضمونه:

أنه سافر يوم الجمعة حادي عشرين الشهر المذكور إلى بلاد الفرنساوية لأجل راحة أهل مصر، وتسليك البحر، فيغيب نحو ثلاثة أشهر، ويقدم مع عساكره، فإنه بلغه خروج عمارتهم ليصفى له ملك مصر، ويقطع دابر المفسدين وأن الموَلىَّ على أهل مصر وعلى الفرنسيس كلهم كليبر صاري عسكر دمياط، فوقع الناس في لغط وهرج وتحيروا في كيفية سفره مع وجود مراكب الإنكليز على الثغر، وذهبوا كل مذهب، فلما كان يوم السبت تاسع عشرينه قدم كليبر صبيحة ذلك اليوم، فضربوا لقدومه المدافع من جميع الجهات وتلقته كبار الفرنساوية وأصاغرهم، وذهب إلى بيت بونابارته الذي كان ساكناً به بالأزبكية وسكن مكانه.

[١٩٧] وفي ذلك اليوم قدمت طائفة من العسكر من جهة الشرقية وصحبتهم منهوبات كثيرة من بلد ضربوها ونهبوها، ومعهم نحو سبعين من الرجال والصغار وبعض النساء وهم موثوقون بالحبال فسجنوهم بالقلعة.

[١٩٨] وفيه ذهب أكابر البلد من مشايخ وأعيان لمقابلة كبير الفرنسيس الجديد والسلام عليه، فلم يجتمعوا به ذلك اليوم، وأوعدوا إلى الغد، فانصرفوا وحضروا ثاني يوم، فاجتمعوا به فلم يروا منه بشاشة ولاطلاقة وجه مثل اللعين الأول، فإنه كان عنده مداهنة وطلاقة.

شهر ربيع الثاني

[١٩٩] في أوائله ابتدوا بعمل مولد سيدنا الحسين، وقهروا الناس وكرروا المناداة بفتح الحوانيت والسهر ووقود القناديل عشر ليال متوالية آخرها ليلة الأربعاء ثاني عشره.

[٢٠٠] وفيه طلب كبير الفرنسيس من النصارى القبطة مائة وخمسين ألف ريال فرانسه في مقابلة بواقي سنة ألف ومائتين واثني عشر وشرعوا في تحصيلها.

[٢٠١]وفي يوم الجمعة سادسه ركب صاري عسكر الجديد من الأزبكية ومشى من وسط المدينة في موكب حافل حتى صعد إلى القلعة، وكان أمامه نحو خمسمائة قواس وبأيديهم النبايت، وهم

يأمرون الناس بالقيام والوقوف على الأقدام لمروره، وكان صحبته عدة كثيرة من خيالة الإفرنج وبأيديهم السيوف المسلولة والوالي والأغا وبرطلمين بمواكبهم، وكذلك القلقات والأوجقلية وكل من كان مُولّى من جهتهم ومنضماً إليهم، ماعدا رؤساء الديوان من الفقهاء فلم يطلبوا هم لحضور ذلك الموكب، ولما صعد إلى القلعة ضربوا له عدة مدافع، وتفرج على القلعة، ثم نزل بذلك الموكب إلى داره.

[٢٠٢] وفي عشرينه نُودي بعمل مولد السيد علي البكري ـ المدفون بجامع الشرايبي بالأزبكية بالقرب من الرويعي ـ وأمر الناس بوقود القناديل بالأزقة في تلك الجهات وأذنوا لهم بالذهاب والمجيء ليلاً أو نهاراً، ولاحرج عليهم في ذلك، والسيد علي البكري كان رجل من البُلْه، وكان يمشي بالأسواق عرياناً مكشوف الرأس والسَّوأتين غالباً، وله أخ صاحب دهاء ومكر، واستمر على ذلك مدة سنين، ثم بدا لأخيه أمر فيه لما رأى من ميل الناس لأخيه ومحبتهم له واعتقادهم فيه ـ كما هي عادة أهل مصر في أمثاله ـ فحجر عليه ومنعه من الخروج من البيت وألبسه ثياباً، وأظهر للناس أنه أذن له بذلك وأنه تولى القطبانية، ونحو ذلك، فأقبلت عليه النساء والرجال على زيارته والتبرك به وسماع ألفاظه.

وأخذ أخوه المذكور يرغبهم في ذلك، ويحكي لهم عن كراماته، وأنه يطّلع على المغيبات، وينطق بما في النفوس، ويعلم خطرات القلوب، فانهمكوا على الترداد إليه وقلد بعضهم بعضاً، وأقبلوا عليه بالهدايا والنذور والإمدادات الواسعة من كل شيء، وخصوصاً من نساء الأمراء، فاجتمع عند أخيه أشياء كثيرة من هذه الأمور، وراج حاله، واتسعت أمواله ونفقت سلعته، وسمن أخوه من كثرة الأكل والفراغ

والراحة وعدم المشي، فلم يزل على ذلك إلى أن مات، فدفنه أخوه في هذا المسجد، وعمل عليه مقصورة ومقاماً، وواظب عنده بالمقرئين وأرباب الأشاير والمنشدين والمداح بذكر كراماته ومكاشفاته، ويتواجدون ويتصارخون ويمرغون وجوههم على شبابيكه وأعتابه.

وقالوا سكرنا بحب الإله

وما أسكر القوم إلاَّ القصَع[1]

فهرعت لزيارة قبره النساء والرجال بالنذور وأنواع المأكولات وشموع الوقود، وصار ذلك المسجد مجمعاً وموعداً، فلما حضر الفرنسيس إلى مصر تشاغل عنه الناس، وأهمل شأنه في جملة المهملات، وتُرِك مع جملة المتروكات، فلما فتح أمس الموالد ورخص الفرنسيس ذلك للناس لما رأوا فيها من الخروج عن الشرايع واتباع الشهوات واجتماع الناس والتلاهي وفعل المحرمات، أعيد هذا المولد مع ما أعيد مع جملة ما أعيد[2].

شهر رجب

الصلح المنقوض بين العثمانيين والفرنسيين

[٢٠٣] فيه كثرت الأقوال وتواترت الأخبار بوصول حضرة الوزير

---

(١) أي أواني الطعام.

(٢) وإنما أعادوه - كما أعادوا جملة من الموالد ـ لإلهاء الشعب وصرفه عن التفكير في جهادهم، إذ أمثال هذه الموالد من أعظم المفسدات والمفتِّرات.

الأعظم والصدر المشار إليه الأفخم يوسف باشا إلى الديار الشامية وصحبته حضرة نصوح باشا وعثمان أغا كَتْخُدا حضرة الدولة العلية وحسن أغا نزلة أمين ومصطفى أفندي الدفتردار وباقي رجال الدولة، واستمر الأمر على الانتظار وترجي حصول الفرج آناء الليل وأطراف النهار، فلما كان في منتصفه وصلت الأخبار بوصولهم إلى غزة والعريش فحاصروا قلعة العريش، وقاتلوا من بها من عسكر الفرنسيس حتى ملكوها في تاسع عشرة، وأخذوا الباقي بعد القتل أسرى، واحتووا على ما كان فيها مما أعده الفرنسيس من الذخيرة وآلات الحرب، وصعد مصطفى باشا الذي باشر أخذ القلعة بالحرب مع جملة من العسكر وبعض من غز مصر، وضربت النوبة، وحصل الفرج العظيم بمبدأ هذا الفتح، فاتفق لقضاء المقدور أن وقعت نار على البارود المخزون بالقلعة وكان شيئاً كثيراً فانهدمت ومات معظم من فيها ومصطفى باشا أيضاً ومات من كان خارجاً عنها ويقربها من الحجارة المتطاير بسبب البارود، ولما تحقق الفرنساوي أخذ العريش، وأن العساكر زاحفة إلى جهة الصالحية، تهيأ كبير الفرنسيس للسفر وخرج بعساكره وجنوده حتى وصل إلى الصالحية، وقد كان قبل أخذ المسلمين قلعة العريش أرسل الفرنساوية إلى سنيت كبير الإنكليز ليتوسط معهم في أمر الصلح.

[٢٠٤] وورد فرمان من حضرة الصدر الأعظم[1] قبل وصوله لجهة العريش خطابا إلى جمهور الفرنساوية باستدعاء رجلين من عقلائهم ورؤسائهم لينعقد الصلح بين الفريقين على مايشترطونه،

---

(١) أي الوزير الأول أو رئيس الوزراء.

فوجهوا من طرفهم بوسليك رئيس الكتاب ودزه صاري عسكر الصعيد، فنزلوا في البحر على دمياط وطالت مدة غيابهم، وبعث كليبر رسلاً من طرفه لاستفسار الأخبار.

شهر شعبان

[٢٠٥] واستهل شهر شعبان فورد الخبر بقدومهما في اثنين وعشرين فيه إلى الصالحية، فأرسلوا لها الخيول ومايحتاجون إليه؛ وحضروا إلى مصر، وشاع أمر الصلح، وحضر من طرف الصدر الأعظم رئيس الكتاب ودفتردار أفندي لتقرير الصلح، وجنح كل من الفريقين إلى ذلك لما فيه من كف الحرب وحقن الدماء، وأظهر الفرنسيس بمكرهم الانخداع والخضوع حتى تم عقد الصلح على اثنين وعشرين شرطاً، وورد الخبر بذلك إلى مصر وفرح الناس فرحاً شديداً، وأرسل كبير الفرنسيس مكاتبة بصورة الواقعة إلى دوجا قائمقام، فجمع أهل الديوان وقرأ عليهم ذلك، ولما ورد ذلك القرطاس المتضمن لعقد الصلح والشروط وعربوه وبصموه في طومار كبير[1]، وسموا فيه نسخاً كثيرة فرقت على الأعيان ولصقت بالأسواق.

شهر رمضان المعظم

[٢٠٦] في ثانيه حضر كبير الفرنسيس إلى جهة العادلية وصحبته

---

(١) أي طبعوه في منشور كبير.

أغا من رجال الدولة العلية يسمى محمد أغا، فأرسل كبير الفرنسيس إلى حسن أغا المحتسب يأمره بإن يتلقاه وينزله في بيته ويكرمه إكراماً زائداً، فلما كان بعد العشاء دخل ذلك الأغا إلى مصر في موكب، فازدحم الناس على مشاهدته وحصل فيهم ضجة عظيمة، وارتفعت أصواتهم، وعلا ضجيجهم عند قدومه، وزاد فرحهم وسرورهم، وهنأ بعضهم بعضاً برؤية رجال الدولة العلية، ولم يزل سائراً حتى وصل إلى بيت المحتسب بسويقة اللّالاه فنزل هناك وحضر الناس للسلام عليه بالمشاعل والفوانيس تلك الليلة.

ولما أصبح النهار عمل ديواناً وجمع العلماء والأوجقلية وأعيان المسلمين وكبار النصارى من القبط والشوام وأبرز لهم فرماناً من حضرة الصدر الأعظم قرىء عليهم بالمجلس، دلّ مضمونه على تصرف محمد أغا المذكور على أمر الدواوين والكمارك وجميع الذخاير اللازمة للنفقة للشراء بمعونة حسن أغا المحتسب وحفظ ذلك بالمخازن، وأبرز فرماناً آخر بإقامة حضرة السيد مصطفى باشا قائمقام ووكيلاً عن حضرة الصدر الأعظم إلى حين حضوره، وأن السيد أحمد المحروقى كبير التجار ملزوم ومقيد بتحصيل الثلاثة آلاف كيس السلفة المعينة لترحيل الفرنساوية.

وحضر السيد مصطفى باشا من الجيزة وسكن بيت عبد الرحمن كَتْخُدا بحارة عابدين.

[٢٠٧] واجتهد السيد أحمد المحروقي في توزيع القدر المذكور على التجار وجمعه في أيام قليلة، وقد كان كل من توجه عليه مقدار من ذلك أعطاه عن طيب قلب وإنشراح خاطر، لعلمهم أن ذلك معونة

لترحيل الفرنسيس وخلو أرض مصر منهم، وإذا توجه على واحد منهم الطلب أظهر الفرح والسرور وبادر في تحصيل المطلوب منه، وهو يقول: هذه سنة مباركة ويوم سعيد بذهاب الكلاب الكفرة، كل ذلك بشاهدة الفرنسيس ومسمعهم، وهم يحقدون [على] أهل مصر ويضمرون في نفوسهم، وأما الرعايا من أهل مصر فإنهم نظروا الفرنسيس بعين الذلة والاحتقار، وأنزلوهم عن درجة الاعتبار، وكشفوا نقاب الحياء معهم بالكلية وتطاولوا عليهم بالسب واللعن والسخرية، ولم يملكوا لأنفسهم صبراً حتى ينقضي أمر عدوهم ويرتحل عنهم، على أن ذلك لم يثمر إلا الحقد والعداوة التي تأسست في قلوب الفرنسيس وأوجبت ماحصل بعد ذلك من وقوع العذاب البئيس، وقد قيل: قاتل بجد وإلا فدع، وقال الشعبي[1] من جملة كلامه: وصادفنا فتنة لم نكن فيها بررة أتقياء ولا فجرة أقوياء[2]، ومن أمثال العامة: اصبر على الجار السوء، فإما أن يرحل وإما أن يموت، وفي بعض الآثار: إنا لنبش في وجوه أقوام وقلوبنا تلعنهم[3].

[٢٠٨] وأخذ الفرنسيس في أهبة الرحيل، وشرعوا في بيع أمتعتهم، وما فضل عن سلاحهم ودوابهم، وسلموا غالب الثغور

---

(١) الإمام عامر بن شراحيل بن عبد، أبو عمرو الهمدانيّ، توفي سنة١٠٤ وقد بلغ اثنتين وثمانين سنة، وكان قد خرج مع ابن الأشعث في فتنة ثم نجاه الله منها: انظر سيرته في «سير أعلام النبلاء»: ٤/ ٢٩٤ ـ ٣١٩.

(٢) قال ذلك لما أسره الحجاج بعد خمود فتنة ابن الأشعث.

(٣) هذا الأثر مروي في «الحلية» بسند منقطع، و«المجالسة» للدينوري، وذكره البخاري في «صحيحه» معلقاً: كتاب الأدب، باب المداراة مع الناس، وقال: «ويذكر عن أبي الدرداء: إنا لنكشر في وجوه أقوام وإن قلوبنا لتلعنهم»، انظر فتح الباري ٢٢/ ٣٣٠، وانظر: «المقاصد الحسنة» للسخاوي، ص١٧٢، ولا يصح رفعه إلى النبي ﷺ.

والقلاع ما عدا قلعة مصر والأبراج التي بنوها المحيطة بها، وورد الخبر بوصول حضرة الصدر الأعظم إلى بلبيس وصحبته الأمراء المصرية، وأرسلوا إلى مرادبيك وأكدوا على حضوره، فاستأذن الفرنسيس سراً، فأذن له بالمقابلة وسفيره المتولي نفاق الطرفين عثمان بيك البرديسى[1]، فحضر المذكور وقابل حضرة المشار إليه بصحبته إبراهيم بيك وأخلع عليهما، ورجع مراد بيك فأقام بجهة العادلية، وحضر حسن أغا نزله أمين، ودخل مصر وحضر أيضاً غالب الفارين عند [حلول] مصر الفرنسيس من الأعيان والأوجقلية[2] والأفندية والكتبة، وأخلى الفرنساوية قلاع مصر ونزلوا منها، وأهمل شأنها اتكالاً على تمام أمر الصلح وعدم خيانة الفرنسيس، وأرسل إبراهيم بيك إلى السيد أحمد المحروقي بطلب كساوى وثياب وسراويل المماليك ولخاصة نفسه، فأرسل إليه مطلوبه، وأخرجت لهم الخيام والترتيب والنظام، وهيأت نساء الأمراء والأجناد ترتيباتهم وعاداتهم ونظامهم.

[٢٠٩] ولازمت الفراشون الغدو والرّواح إلى أسيادهم وهم راكبون البغال والرهوانات، وفي حجورهم بقج القماش والثياب المزركشة بالذهب والفضة، وكذلك الخدم يحملون طبالي الأطبخة والأطعمة المغطاة بالثياب الملونة، وهم يغنون برفع أصواتهم ويتجاوبون بكلام وسخريات ولعن للنصارى البلدية والفرنسيس بمرأى

---

(١) الأمير عثمان بك البرديسيّ المرادي. كان ظالماً غشوماً، طائشاً، سيىء التدبير، جرى له أمور، وتقلب في مناصب مصر، وتحالف مع محمد علي باشا الذي غدر به وحرض عليه الأجناد، وخرج مطروداً من القاهرة إلى الصعيد، ومات بمنفلوط سنة ١٢٢١، رحمه الله. انظر «عجائب الآثار»: ٤/ ٤٢ـ٤٣.

(٢) أرباب الحرف، وانظر «تأصيل ماورد في تاريخ الجبرتي»: ١٩٤.

منهم ومسمع إلى غير ذلك مما يحرك الحفيظة ويوغر صدر العدوّ.

فلما استقر ركاب حضرة المشار إليه بمدينة بلبيس، وقد كان أذن للعسكر والمجاهدين والمتطوعين عند تمام عقد الصلح بالرجوع إلى بلادهم، وهو إذ ذاك بالعريش، وترك الأثقال والمدافع والجبخانة ولم يصحب معه إلا اللوازم التي لاغنى عنها، وحضر إلى بلبيس في الثاني والعشرين من شهر رمضان، واستأذن العلماء والتجار والأعيان المصرية السيد مصطفى باشا في التوجه لأجل السلام، فاستأذن ثم أذن لهم، فذهبوا أيضاً إلى كليبر كبير الفرنسيس واستأذنوه فأذن لهم أيضاً، فذهبوا عند ذلك للسلام، فوصلوا لنصوح باشا والي مصر وسلموا عليه وبانوا بوطاقه، ثم استأذن لهم حضرة المشار إليه فأذن لهم، فلما وصلوا إليه واستقر بهم الجلوس استفسر عن أسمائهم وكذلك التجار وأكابر النصارى ثم خلع عليهم خلَعاً سنية ورجعوا المدينة بعد أن سلموا على أكابر الدولة وعلى إبرَاهيم بيك وباقي الأمراء المصرية، ودخلوا المدينة وعليهم تلك الخلع وصحبهم قاضي عسكر، ووصل نصوح باشا والأمراء إلى جهة الخانكة ثم إلى المطرية.

وفيه حضر درويش باشا والي الصعيد إلى خارج القاهرة جهة الشيخ قمر، فمكث أياماً ثم توجه إلى قبلي وصحبته نحو مائة من النفر، وكذلك توجه طائفة من العساكر الإسلامية للسويس ودمياط والمنصورة وانبث العسكر في البلاد ودخلت مصر شيئاً فشيئاً.

شهر شوال

[٢١٠] واستهل شهر شوال، وفي سابعه وقعت حادثة وهو أن

جماعة من العساكر العثمانية تشاجروا مع جماعة من عسكر الفرنساوية، وقتل بينهم شخص فرنساوي، ووقع في الناس زعجة وأغلقوا الحوانيت، وترس العسكر العثماني بالمتاريس ونصبها بخط الجمالية وما والاها، واجتمعوا هناك فوقعت المناوشة في الحرب، وقتل من الفرنسيس أشخاص، وباتوا ليلتهم مزمعين على الحرب ثاني يوم، فتوسطت كبراء العساكر في الصلح وأزالوا المتاريس وانكف كل فريق عن صاحبه، ثم بحث السيد مصطفى باشا عمن أثار الفتنة وهم ستة أنفار فقتلهم، وطيب خاطر الفرنسيس وأمر بخروج العساكر العثمانية من مصر إلى حيث العُرْضي[1]، وإذا دخلوا المدينة فلا يدخلونها بسلاح مطلقاً، وكانوا جماعة من الفرنسيس بذلك خارج البلد.

[٢١١] وفي منتصفه توجه جماعة من كبار الفرنسيس إلى الإسكندرية بمتاعهم وأثقالهم وفيهم دوجا قائمقام ودزه صاري عسكر الصعيد وبوسليك رئيس الكتاب ومدبر الحدود، ونزل جماعة منهم إلى البحر يريدون السفر إلى بلادهم، فيقال إنه تعرض لهم الإنكليز ومنعوهم، فأرسلوا إلى كبيرهم بمصر وعرفوه الحال، فأرسل بذلك إلى حضرة الوزير[2] فسوَّفه، فكان ذلك من أسباب نقض الصلح[3]،

---

(١) أي المعسكر، وانظر «تأصيل ماورد في تاريخ الجبرتّي»: ١٥٠.

(٢) أي العثمانيّ.

(٣) كان من أسباب نقض الصلح أن الأميرال كيث الإنجليزي أرسل إلى كليبر يخبره أن الحكومة الإنجليزية لم تقبل هذا الاتفاق إلا إذا ألقى الفرنسيون سلاحهم بين أيادي الإنجليز، فاغتاظ كليبر، وسار لمحاربة الجيش العثمانيّ الذي أتى إلى مصر بقيادة يوسف باشا لاستلامها ـ فتقابل الجيشان عند المطرية، وبعد محاربة عنيفة انتصر كليبر، وعاد إلى القاهرة فوجدها في قبضة إبراهيم بك ـ وكان قد دخلها وقت اشتغال الفرنسيس بالحرب، فأطلق القنابل عليها وخرّب منها جزءاً عظيماً: انظر «تاريخ الدولة العلية»: ٧٧.

وانتقل عرضي همايون من بلبيس إلى جهة سطح الخانكة قريباً من مصر، وتقدم أمامه عرضي نصوح باشا والأمراء المصرية وجملة من العساكر العثمانية، فنصبوا وطاقهم بالبلد المسماة بالمطرية، وكان ذلك آخر أيام المهلة، وطلب الفرنسيس أجلة[1] ثمانية أيام أخرى، فأجيبوا إلى ذلك، فجعلوها ظرفاً[2] لجمع عساكرهم وطوايفهم من البلاد القبلية والبحرية، ونصبوا وطاقهم بساحل البحر متصلاً بأطراف مصر، وردوا ذخايرهم إلى القلاع كما كانت، واجتهدوا في ترجيع آلات الحرب بعد أن كان سافر معظمها والبارود على الجمال والعربات ليلاً ونهاراً، والناس يتعجبون من ذلك، ومصطفى باشا قائمقام والعساكر العثمانية يشاهدون ذلك فلا يقولون شيئاً، والبعض يقول: إنهم أمروا برد ذلك إلى القلاع، فلما قضوا أشغالهم من أمر القلاع وتحصينها، وأبقوا من أبقوه وقيدوه بها من عساكرهم، واستوثقوا من ذلك خرجوا بأجمعهم إلى ظاهر المدينة جهة قبة النصر، وانتشروا في تلك النواحي، ولم يبق بداخل المدينة منهم إلا من كان بالقلاع وجملة ببيت الألفي وبعض بيوت الأزبكية، وغلب على ظن الناس أنهم برزوا للرحيل.

وفي العشرين منه طلبوا مصطفى باشا وحسن أغا نزله أمين، فلما حضرا إليهم أرسلوهما للجيزة، فلما كان اليوم الثالث والعشرين من شوال ركب كبير الفرنسيس كليبر قبل طلوع الفجر بعساكره وصحبتهم المدافع وآلات الحرب وقسم عساكره طوابير، فمنهم من توجه إلى عرضي همايون، ومنهم من مال على من بجهة المطرية، فدهموهم على حين غفلة من غير أن يكون للمسلمين استعداد للقتال، لأنهم

---

(١) قال المحقق: يريد مهلة، ولم يُسمع مثل هذا المصدر.

(٢) أي مدة.

كانوا مطمئنين لم يخطر ببالهم خيانة الخائنين، وغالب عساكرهم بالمدينة والقرى لتسهيل الكُلَف واللوازم، فضربوا عليهم بالبنادق والمدافع، فركب القوم وناوشوهم القتال، ثم تركوا خيامهم ووطاقهم ومدافعهم، فتركه العسكر الفرنساوي على ماهو عليه، والتحق ذلك الطابور بالطوابير الزاحفة لجهة عرضي همايون، فلما أبلغ حضرة المشار إليه ذلك، وسمع ضرب المدافع، وتحقق الخيانة أمر بالرحيل والرجوع إلى جهة الصالحية حرصاً على هيبة الدولة وحُرمة السلطنة، ولئلا ينسب إليه نقض الصلح والخيانة، ومقابلتهم من جنس فعلهم، ولقلة تعبئة العساكر والاستعداد للحرب، ولكون أكثر العسكر قد كان رجع لبلاده لما تقرر أمر الصلح، ومهمات آلات الحرب تركت بالعريش، اتكالاً على ذلك، وكثير من العساكر أيضاً كان مفرقاً في القرى والبلاد لأغراض ولوازم، فكان الانتقال بالعرضي من حسن السياسة والتدبير، ولقد قال أرباب الحروب العارفون بها: إن أمير الجيوش ينبغي أن يكون كالتاجر الكَيِّس إن رأى ربحاً تقدم وحارب، وإن رأى غير ذلك وفّر نفسه وجيشه ورجع لإعمال حيلة غير الحرب، وهذا كله مندرج تحت: «الحرب خدعة»[1].

وأما عرضي المطرية من نصوح باشا ومن كان معه فإنهم تنحوا عن جهة الفرنسيس وانحازوا لجهة، فلما لحق الطابور الذي ناوشهم القتال ببقية الطوابير- كما تقدم - قصد نصوح باشا ومن بصحبته جهة مصر وتركوا عسكر الفرنسيس وراءهم.

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه: كتاب الجهاد: باب الحرب خدعة.

[٢١٢] وأما أهل مصر فإنهم لما سمعوا صوت المدافع كثر فيهم اللغط والقيل والقال، ولم يدركوا حقيقة الحال، فهاجوا ورمحوا إلى أطارف البلد، وقتلوا أشخاصاً من الفرنساوية صادفوهم خارجين البلد ليذهبوا إلى أصحابهم، وذهبت شرذمة من عامة أهل مصر فانتهبت الخشب وبعض ما وجدوه من نحاس وغيره حيث كان عرضي الفرنسيس، وخرج السيد عمر أفندي نقيب الأشراف والسيد أحمد المحروقي وانضم إليهما غُزّخان الخليلي والمغاربة الذين بمصر، وتبعهم كثير من عامة أهل مصر، وتجمعوا على التلول خارج باب النصر، وبأيدي الكثير منهم العصي والقليل معه السلاح، وكذلك تحزب طوايف كثيرة من العامة ومشوا بأزقة المدينة، وخرج كثير إلى أطراف البلد، وقامت الناس كلهم على ساق وقدم.

[٢١٣] ثم لم يزل الحال كذلك إلى أن دخل وقت العصر، فوصل جمع عظيم من العامة ممن كان خارج البلد ولهم صياح وجلبة وخلفهم إبراهيم بيك، ثم أخرى وخلفهم سليمان أغا، ثم أخرى كذلك، وخلفهم عثمان كَتْخُذا الدولة، ثم نصوح باشا ومعه عدة وافرة من العساكر السلطانية وصحبتهم السيد عمر نقيب الأشراف والسيد أحمد المحروقي وحسن بيك الجداوي وعثمان بيك المرادي وعثمان بيك الأشقر [1] وعثمان بيك الشرقاوي وعثمان أغا الخزندار، وإبراهيم

---

(١) الأمير عثمان بيك الأشقر الإبراهيميّ من مماليك إبراهيم بيك الكبير. اشتراه ورباه وأعتقه، وجعله خازندار مدة، ثم قلده الإمارة في سنة ١١٩٢، وعرف =

كَتْخُدا مراد بيك السناري[1] وصحبتهم مماليكهم وأتباعهم، فدخلوا من باب النصر وباب الفتوح، ومروا على الجمالية حتى وصلوا إلى وكالة ذي الفقار فقال نصوح باشا: قاتلوا النصارى وجاهدوا فيهم.

فلما سمعت العامة منه هذا القول هاجوا ورفعوا أصواتهم ومروا مسرعين يقتلون من يصادفونه من نصارى القبط والشوام وغيرهم، وذهبت طائفة إلى حارات النصارى وبيوتهم التي بناحية بين السورين وباب الشعرية وجهة الموسكي فصاروا يكبسون الدور ويقتلون من يصادفونه من الرجال أو النساء أو الصبيان وينهبون ويأسرون حتى اتصل ذلك بالمسلمين المجاورين لهم فتحزبت أيضاً النصارى واحترسوا، وجمع كل منهم ما قدر عليه من العسكر الفرنساويّ والأروام وقد كانوا قبل ذلك محترسين، وعندهم الأسلحة والبارود والمقاتلون لظنهم وقوع هذا الأمر فوقع الحرب بين الفريقين وصارت النصارى تقاتل وترمي بالبندق من طيقان الدور على المتجمعين بالأزقة من العامة والعسكر، والآخرون يرمون من أسفل ويكبسون الدور.

= بالأشقر لشقرته.

تقلبت به الأيام، ثم تقلد إمارة الحج سنة ١٢١٠، ثم لما دخل الفرنسيون تنقل في البلاد من الصعيد إلى الشام. ثم قتل بأبي قير ـ في المذبحة التي أعدها العثمانيون للمماليك هناك ـ ودفن بالإسكندرية سنة ١٢١٦ رحمه الله تعالى، وكان ذا حشمة وحسن عشرة. انظر «عجائب الآثار»: ٣/١٢٧ ـ ١٢٨.

(١) إبراهيم كَتْخُدا السناري الأسود. أصله من برابرة دنقلة. وكان بواباً في مدينة المنصورة، وفيه نباهة فتعلم اللغة التركية وانتقل إلى الصعيد، وتداخل في الأمراء وأتباعهم، ثم جرت له أحوال اختص بعدها بمراد بيك في حضره وسفره، واشتهر ذكره، وأثرى وتوسع في شراء العقار واقتناء المماليك والجواري البيض، وصار من أعظم الأعيان، وأصبح الواسطة بين الناس وبين مراد بيك، ثم لما خرج الفرنسيون وجاء العثمانيون قتلوه مع من قتلوه في أبي قير سنة ١٢١٦، رحمه الله، انظر المصدر السابق: ٣/٢١٩ ـ ٢٢٠.

وبات نصوح باشا وكتخذا الدولة وإبراهيم بيك وبعض من صناجق مصر والكشاف والأتباع وطوايف من العساكر بخط الجمالية.

فلما أصبح الصباح أرسلوا إلى المطرية وأحضروا منها ثلاثة مدافع وركّبوها بالأزبكية وضربوا بها على بيت الألفي وكان به جملة من عساكر الفرنساوية فضربوا أيضاً بالمدافع والبنادق واستمر الحرب بين الفريقين إلى آخر النهار فسكن الحرب.

وفي هذا اليوم شرع العسكر السلطاني وأهل مصر في صنع متاريس بالأطراف كلها وبجهة الأزبكية وشرعوا في بناء بعض جهات السور، واجتهدوا في تحصين البلد بقدر الطاقة، وبات الناس في هذه الليلة خلف المتاريس، فلما أظلم الليل أطلق الفرنساوية المدافع والبنب على البلد من القلاع ووالوا الضرب بالخصوص على خطة الجمالية لسكون معظم رؤساء العساكر الإسلامية بها، وأكثر العسكر فيها، وفي هذه الليلة أجمع رأي كبير العسكر على الخروج من البلد لعدم آلات الحرب والبارود وعزّة[1] الأقوات، وأن القلاع بيد الفرنساوية ومصر لا يمكن محاصرتها لاتساعها وكثرة أهلها، وليس لها سور محيط بها، وغالب قوت أهلها يُجلب كل يوم من قراها، فلما أحس كبير العسكر بأن الحال يطول في الحرب، أجمعوا على الخروج بالليل، وتسامع الناس بذلك فتجهز المعظم للخروج أيضاً، وغُصَّ خط الجمالية وما والاها من الأخطاط بازدحام الناس الذين يريدون الخروج من المدينة.

ووقع للناس في هذه الليلة من الكرب والمشقة والانزعاج

---

(١) قال المحقق: أي قلة الأقوات.

والخوف مالا يوصف، وتسامع أهل خان الخليلي والغورية ذلك فجاؤوا للجمالية وأكثروا التشنيع على من يريد الخروج، وعضدهم طائفة عساكر الانكشارية، وعمدوا إلى خيول الأمراء فحبسوها ببيت القاضي وبقية الوكايل وأغلقوا باب النصر وبات في تلك الليلة معظم الناس على مصاطب الحوانيت وبعض الأعيان في بيوت أصحابهم بالجمالية وفي أزقة الحارات أيضاً، وكل متهيء للخروج.

وأصبح يوم السبت فتهيأ كبير العساكر والعساكر ومعظم أهل مصر ما عدا الضعيف الذي لا قوة له على الحركة، وتهيأ كل للحرب، وذهب معظم الأمراء المصرية مع نصوح باشا، والأكثر مع العساكر العثمانية إلى جهة الأزبكية؛ لأن معظم الفرنسيس بها، فحبس من ذكرنا في البيوت التي ليس فيها عسكر، والبعض وراء المتاريس، وأخذوا مدافع زيادة على الثلاثة المتقدمة وجدت في بعض بيوت مصر، واستمر عثمان كتخدا بوكالة زين الفقار بالجمالية.

وكان كل من قبض على نصراني أو يهوديّ أو فرنساويّ أخذه وذهب به للجمالية حيث عثمان كَتخُدا ويأخذ منه بخشيشاً، فالبعض من المأسورين يحبس حتى يظهر أمره، وربما قتل البعض لريبة أو شبهة، وكذلك كل من قطع رأساً من رؤوس الفرنساوية يذهب بها إما لنصوح باشا بالأزبكية وإما لعثمان كتخدا بالجمالية، فيأخذ في مقابلة ذلك جملة من الدراهم والدنانير، ثم بعد أيام أغلق باب النصر وباب البرقية وباب القرافة وسائر الأبواب التي في أطراف البلد، وزاد الناس في اصطناع المتاريس وفي الاحتراس.

وبالجملة كل من كان في حارة من أطراف البلد انضم إلى العسكر

الذي بجهته بحيث صار جميع أهل مصر والعساكر كلها واقفة بأطراف البلد عند الأبواب والمتاريس والأسوار، وبعض عساكر من العثمانية وما انضم إليهم من أهل مصر المتسلحين مكث بالجمالية، إذا جاء صارخ من جهة من الجهات أمد بطائفة من هؤلاء، وصار جميع أهل مصر إما بأزقة مصر ليلاً ونهاراً، وهو من لا يمكنه القتال، وإما بالأطراف ووراء المتاريس وهو من عنده إقدام وتمكن من الحرب، ولم ينم أحد ببيته سوى الضعيف والجبان والخائن.

[٢١٤] وأنشأ عثمان كَتْخُدا الدولة معمل بارود ببيت قائد أغا بخط الخرنفش[١]، وأحضر الغندقلية والعربجية والحدادين والسباكين لإنشاء مدافع وبنباً وتصليح بعض مدافع وجدت بمصر في بيوت بعض الأمراء، وعمل عجل للمدافع وغير ذلك من المهمات الحربية، فصار هذا كله يُصنع ببيت القاضي من جهة المشهد الحسينيّ، واهتم في ذلك اهتماماً زائداً، وأعطى أجرة وافرة وفرق في ذلك المهم أموالاً واسعة، وترك الملاذ والرفاهية الملائمة لجنابه، واجتهد في حرب الكفار ونصرة الأبرار، ورأت الناس منه حلماً واسعاً، وصدراً رحباً ويداً بالعطاء مبسوطة، ووجهاً طلقاً، يعظم الكبير والصغير، وكل من طلب منه شيئاً أعطاه من بارود وسلاح ومال وغير ذلك، فجزاه الله خيراً.

---

(١) قال بارتان أحد مهندسي الحملة العسكريين:
«أقيم معمل للبارود في بيت قائد أغا في الخرنفش، ويعمل لصنع القنابل وسبك المدافع، ومصنع لإصلاح الأسلحة، وجمعوا الحديد من المساجد والعمائر والحوانيت، وتطوع الصناع للعمل بلا أجر، وقدموا ما لديهم من آلات وحديد وموازين»: «الحملة الفرنسية: اللحن الأخير»: محمد عودة: مقال بمجلة «الهلال»: عدد ربيع الأول ١٤١٩: ص ١٣٨.

[٢١٥] وتترس حسن بيك الجداوي بناحية الرويعي، وربما فارق المتراس في بعض الليالي لوقوع زحف من العسكر الفرنساوي على بعض الجهات، فيذهب هو ومن معه لنصرة مَن بتلك الجهة، ورأى الناس من إقدامه على الحرب وشجاعته وصبره على مجالدة العدو ليلاً ونهاراً ما ينبىء عن فضيلة نفس وقوة قلب وسمو همة، وقَلّ إن وقع حرب في جهة من الجهات إلا وهو مدبر راحتها ورئيس كماتها.

وحضر محمد بيك الألفي في ثاني يوم، وتترس بجهة الأزبكية حيث إبراهيم بيك ونصوح باشا، وبذل الهمة وظهرت منه ومن مماليكه شجاعة وإقدام.

[٢١٦] وحضر ـ أيضاً ـ رجل مغربيّ يقال إنه الذي كان يحارب الفرنسيس بجهة البحيرة سابقاً، والتف عليه جماعة من المغاربة البلدية وجماعة من أهل الحرمين فمن كان قدم من مكة والمدينة وما والاهما من الشيخ الجيلاني الذي تقدم ذكره[١] وفعل ذلك الرجل المغربي أموراً تنكر عليه، لكنه كان في بعض الأوقات يجتهد في الحرب، إلا أنه ليس في رتبة الجداوي ولا غيره من العساكر العثمانية، وغالب ما وقع من النهب وقتل مَن لا يجوز قتله يكون صدوره عنه.

[٢١٧] واتهم الشيخ البكريّ[٢] بأنه يكاتب الفرنسيس ويرسل لهم الأطعمة، فهجم عليه طائفة من العسكر مع بعض أوباش العامة ونهبوا داره، وسحبوه مع أولاده وحريمه، وأحضروه إلى الجمالية وهو ماش على أقدامه ورأسه مكشوف، وحصلت له إهانة بالغة، وسمع من

---

(١) انظر فقرة [١٥٣].

(٢) أي خليل البكري، وتقدمت ترجمته.

العامة كلاماً مؤلماً وشتماً، فلا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم.

فلما رأى عثمان كَتْخُدا ذلك هاله هذا الأمر واغتم له غماً شديداً، ووعده بخير وطيب خاطره، إذ في هذه الحالة لا يمكن تدارك ما فرط، وأخذه أحمد بن محمود محرم التاجر مع حريمه إلى داره، وأكرمهم وكساهم وأقاموا عنده حتى انقضت الحادثة.

[٢١٨] وباشر السيد أحمد المحروقي وباقي التجار ومساتير الناس الكلف والنفقات والمآكل والمشارب لما في ذلك من المعونة للمجاهدين، وكذلك جميع أهل مصر، كل إنسان سمح بنفسه وبجميع ما يملكه عن طيب قلب وانشراح صدر، وأعان الناس بعضهم بعضاً، وفعل كل إنسان ما في وسعه وطاقته من المعونة.

وأما الفرنسيس فإنه تحصنوا بالقلاع المحيطة بالبلد وببيت الألفي وما والاه من البيوت الخاصة بهم وبيوت القبطة والمجاورين لهم.

واستمر الناس بعد دخول العساكر الإسلامية مصر أياماً قليلة وهم يدخلون ويخرجون في المدينة، والأبواب مفتحة، وأهل الأرياف القريبة تأتي بالميرة وما يحتاجه أهل مصر يبيعونه ثم يذهبون إلى بلادهم، ولم يعلم أحد من أهل مصر ولا غيرهم حقيقة حال الفرنسيس المتوجه مع كبيرهم للحرب، اختلفت الروايات والأخبار، وأما عرضي همايون فإنه ارتحل كما ذكر، ورجع إلى جهة الصالحية وبلبيس جملة من عسكر السلطان، وأما عثمان بيك حسن وسليم بيك وأبو دياب ومن معهما فإنهما تقاتلا مع الفرنسيس ثم رجعا إلى بلبيس لقلة ما معهم من العسكر، وقدمت الفرنسيس على بلبيس فحاصروا من بها من العسكر المتخلف، ولم يكن العسكر المتخلف بها كثيراً ولا مستعداً بالآت

الحربية، فحارب على قدر طاقته، ثم نزل على أمان الفرنسيس، فأخذ سلاحه وتركه يذهب إلى حيث ماشاء، ثم لما لحق عثمان بيك ومن معه إلى الأورضي فأخذوا معهم عدة من العسكر ورجعوا يريدون ملاقاة الفرنسيس، فنزلوا بوهدة بالقرب من القرين على بعد من محط البحر جهة الفرنسيس، فانفرد كبير الفرنسيس عند مقاربته القرين وصحبته نحو أربعين من الخيالة، فخرج عليهم طائفة من القرين بالنبابيت لكونهم رأوه في قلة من عسكره، وعلمهم بعسكر المسلمين فتضاربوا معه، وأصيب كبير الفرنسيس بنبوت وقع على سرج فرسه فكسره ووقع ترجمانه إلى الأرض وأحس المسلمون بذلك، وأقبلوا عليه وحاربوه واستصرخ الفرنسيس عساكرهم، فلحقوا بهم واستمر القتال زمناً طويلاً بين الفريقين، ثم انكشف الفريقان وجلس كل فريق بمكان، فلما دخل الليل واشتد الظلام أحاط العسكر الفرنساوي بعساكر المسلمين، فأصبح المسلمون وقد رأوا إحاطة العسكر بهم من كل جانب، فركبت الخيالة وتبعتهم المشاة واخترقوا تلك الدائرة بالحرب، وسلم من سلم وعطب من عطب.

أما مراد بيك فإنه بمجرد ما عاين هجوم الفرنسيس على الباشا والأمراء بالمطرية، وكان هو بناحية الجبل ركب من ساعته هو ومن معه ومروا من سفح الجبل، وذهب إلى ناحية دير الطين ينتظر ما يحصل ويتجدد من الأمور، وأقام مطمئناً آمنا على نفسه، هذا حاصل خبر الشرقيين.

[٢١٩] ولما تحقق الباشا والأمراء الذين انحصروا بمصر ذلك أخفوا بينهم وأشاعوا خلافه لئلا تنحل عزائم الناس عن القتال وتضعف نفوسهم عن ملاقاة العدو، وأرسلوا جملة من المكاتبات للعرضي في

طلب النجدة والمعونة وجدّوا فيما هم فيه، فتابعوا المناداة على الناس والعسكر باللسان العربي والتركي بالجد في الجهاد والتحريض على الصبر وملاقاة العدو.

ورجعت طائفة من عسكر الفرنسيس من عرضي كبيرهم نجدة للعسكر الذي بمصر، فتقوت بهم نفوس أصحابهم، ووقفت منهم طائفة خارج باب النصر والحسينية، ونهبوا زاوية الشيخ الدمرطاش وما حواليها كقبة الغوري والمنيل.

[٢٢٠] وحضر جماعة من عسكر الأرناؤوط نحو ثلاثمائة كانوا ببعض القرى لجلب الذخيرة والكلف فعارضهم عسكر الفرنسيس الواقف على التلول الخارجية، ووقعت محاربة يسيرة ودخلت الأرناؤوط مصر على حمية، ففرح الناس على قدومهم وضجت العامة لحضورهم، وتسآءلوا فأخبروا أنهم حاضرون مدداً، وسياتي جماعة بعدهم.

[٢٢١] وأما بولاق فإنما قامت على قدم وساق، وتهور في ذلك وتشدد الحاج مصطفى البشتيلي وهَيّج العامة، فأخذوا الأسلحة والعصي والنبابيت وذهبوا إلى وطاق الفرنسيس الذي تركوه بساحل البحر وعنده جماعة منهم للحرس، فقتل من أدركه أهل بولاق منهم، وفرّ من فر ونهبوا ما فيه من الخيام والمتاع وغيره، ورجعوا إلى البلد وفتحوا مخازن الغلال والودايع التي للفرنسيس، وأخذوا ما أحبوا منها، وعملوا كرانك حوالي البلد ومتاريس واستعدوا للحرب والجهاد، واستطالوا على من كان ساكناً ببولاق من نصارى القبط والشوام فأوقعوا بهم بعض نهب وربما قُتل منهم أشخاص.

وأما كبير الفرنسيس فإنه لما تحقق عود العُرضي وبلغته الأخبار عما حصل بمصر من دخول نصوح باشا والأمراء إليها وقيام الرعية كرّ راجعاً حتى وصل إلى داره بالأزبكية وأحاطت عساكره بجميع مصر وبولاق ومنعوا الداخل من الدخول والخارج عن الخروج، وذلك بعد ثمانية أيام من ابتداء الحركة، وقطعوا الجالب عن البلدين وأحاطوا بها إحاطة السوار بالمعصم، فكانت النصارى من القبطة والشوام يهربون بحريمهم وأولادهم ويتسلقون من الحيطان والأسوار ويذهبون إما إلى الجيزة أو مصر العتيقة أو لعرضي الفرنساويّ.

[٢٢٢] وعند ذلك اشتدت الحرب وعظم الكرب، وأكثروا من الرمي المتتابع بالبنادق والمدافع، وواصلوا مع النيران البنبات من أعالي التلول والقلاع خصوصاً البُنبات الكبار على الدوام والاستمرار آناء الليل وأطراف النهار في الغدو والبكور والأسحار، وعدمت الأقوات، وغلت أسعار المبيعات، وعزت المأكولات، وفقدت الحبوب والغلال، وارتفع وجود الخبز في الأسواق، وامتنع الطوافون به على الأطباق، وصارت العسكر يخطفون ما يجدونه بأيدي الناس من المآكل والمشارب، وغلا سعر الماء المأخوذ من الأسبلة والآبار، وأما البحر(١) فلا يكاد يصل إليه أحد، وتكفل التجار ومساتير الناس والأعيان بكلف العساكر المقيمة بالمتاريس المجاورة لهم.

[٢٢٣] وأما أكابر القبطة مثل جرجس الجوهري(٢) وفلتيوس

---

(١) أي نهر النيل.

(٢) المعلم جرجس الجوهريّ القبطيّ كبير المباشرين والكتبة بالديار المصرية، وكان بيده حل الأمور وربطها في جميع الأقاليم المصرية، وكان نافذ الكلمة. ثم إنه تقدم في أيام الفرنسيين فكان رئيس الرؤساء، وكذلك عند مجيء العثمانيين =

وملطي فإنهم طلبوا الأمان من المسلمين لكونهم انحصروا بدورهم وهم بوسطهم، فأرسلوا لهم الأمان وحضروا فقابلوا الباشا والكَتْخُدا.

[٢٢٤] وأما يعقوب اللعين فإنه حاصر في داره بالدرب الواسع جهة الرويعي، واستعد استعداداً شديداً بالسلاح والعسكر المحاربين، فكان معظم حرب الجداوي معه، هذا والمناورة[١] في كل وقت بالتركي والعربي على الناس بالجهاد والمحافظة على المتاريس، ونقل عن مصطفى أغا مستحفظان بأن عنده في داره جماعة من الفرنسيس فهجمت العساكر على داره بضرب الحجر، فوجدوا الفرنسيس، فقتلوا بعضهم وهرب البعض، فقبضوا على ذلك الأغا الخبيث وأحضروه بين يدي عثمان أغا كَتْخُدا الدولة، ثم تسلمه الانكشارية وخنقوه ليلاً بالوكالة التي عند باب النصر، ورموا جيفته خارج باب النصر.

[٢٢٥] وولوا مكانه شاهين كاشفه، فاجتهد واهتم وشدد على الناس وكرر المناداة، ومنعهم من المبيت بدورهم، ومن وجده داخل داره شتمه وضربه، فكان الناس يبيتون بالأزقة والأسواق حتى الأمراء والأعيان، وهلكت البهائم من الجوع لعدم وجود التبن والشعير والفول والدَريس[٢] بحيث صار ينادَى على الحمار والبغل المعد والذي قيمته ثلاثون ريالاً وأكثر بمائة نصف فضة[٣]، ولا يوجد له مشتر، وفي كل

= فإنهم قدموه حتى كانوا يسمونه جرجس أفندي. كان عظيم العطايا للناس خاصة في شهر رمضان. ثم إنه عُورض بالمعلم غالي وجرت له أحوال معه فانحطّ قدره، ولازمته الأمراض حتى مات سنة ١٢٢٥. انظر «عجائب الآثار»: ٤/ ١٢٢٥.

(١) لعلها: المناداة.

(٢) يابس البرسيم: انظر «المعجم الوسيط»: درس.

(٣) نقد تركيّ لاقيمة كبيرة له، إذ تساوي ١ على ٤٠ من القرش: انظر «النقود المتداولة في عصر الجبرتيّ» للدكتور عبدالرحمن فهمي: ٥٧٣.

يوم يتضاعف الحال وتعظم الأهوال، وزحف المسلمون على جهة رصيف الخشاب وترامى الفريقان بالمدافع والنيران حتى احترق ما بينهم من الدور، وهدمت تلك المباني والقصور، التي كانت مطلة على البركة، واحترقت جميع البيوت، من عند باب المفارق بقرب جامع عثمان كتخدا إلى رصيف الخشاب، إلى خطة الساكن، إلى حد بيت كبير الفرنسيس، وصارت كلها خراباً، وكذلك خطة الرويعي بالسيباطين الكبار، وما في ضمن ذلك من البيوت إلى حد حارة النصارى، وصارت كلها تلالاً وخرايب كأنها لم تكن مغنى صبابات ولا معاهد أنس ولذّات.

وفيها يقول صديقنا العلامة، المنوه بذكره ونظمه ونثره[1]:

وكنت كثيراً ما أجول بالزوارق فيها، وأسرح طرفي في محاسن مبانيها وبنيها، فأرى ما يُدخل على النفس السرور، ويذهل العقل حتى كأنه من النشوة مخمور، وطالما مضت لي بها أيام وليالي هن في عقد الدهر من يتيم اللآلي، وأنا أنظر إلى انطباع صورة الدهر في وجناتها، وفيضان لُجين نوره على حافاتها وساحاتها.

قلت: قد جنت عليها أيدي الزمان، وطوارق الحَدَثان[2]، حتى تبدلت محاسنها وأقفرت مساكنها، وهكذا عقبى سوء ما عملوا، فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا.

وأرسلوا إلى مراد بيك بالحضور، أو يرسل الأمراء والأجناد الذين بصحبته ليساعدوا إخوانهم، فلم يُجب إلى ذلك، واعتذر أنه محافظ على الجهة التي هو فيها.

---

(١) أي حسن العطار، وقد تقدمت ترجمته.

(٢) أي الليل والنهار.

[٢٢٦] واستمر الحال على ما هو عليه من اشتعال نيران الحرب، وشدة البلاء والكرب، ووقوع البنب على الدور والمساكن، من القلاع، والهدم والحرق وصراخ النساء من البيوت والصغار من الخوف والجزع، والهلع من القحط وفقد المآكل والمشارب، وغلق الحوانيت والمخابز، ووقوف حال الناس من البيع والشراء وتفليس الناس، وعدم ما ينفقونه إن وجدوا شيئاً، واستمروا في ضرب المدافع والقنابر والبنادق والنيران ليلاً ونهاراً حتى كان الناس لا يتهنون بنوم ولا راحة، ولا جلوس لحظة لطيفة من الزمن يجد فيه الشخص راحة، ومقامهم دائماً بالأزقة والأسواق، وكأنما على رؤوس الجميع الطير، وأما النساء والصبيان فإقامتهم بأسفل الحواصل تحت طباق الأبنية، وصارت مؤونة غالب الناس الأرز، ويطبخون الرز بالعسل وباللبن ويبيعون ذلك في طشوت وأواني بالأسواق.

وطلب الكَتْخُدا دراهم سلفة، دفع منها شيخ السادات عشرة أكياس، ودفع الشيخ مصطفى الصاوي جملة، ووزع على بعض الناس باقي المبلغ المطلوب.

وفي ساعة تهجم الفرنساوية على جهة من الجهات ويحاربون من بها من المقاتلين، ويملكون منهم بعض المتاريس، فتصيح المناداة وتتسامع الناس، ويصرخون على بعضهم البعض، ويقولون: عليكم بالجهة الفلانية، الحقوا إخوانكم، فينفرون إلى تلك الجهة والمتراس حتى تنكشف عنه الفرنساوية وينتقلوا إلى غيرها، فيفعلون كذلك.

[٢٢٧] هذا والأغا والوالي يكرران المناداة وكذلك أولاد العلماء كسيدي محمد نجل الشيخ الجوهري[١] وسيدي محمد نجل الشيخ

---

(١) محمد بن أحمد بن حسن الخالدي الشافعي الشهير بابن الجوهريّ. ولد سنة =

الأمير[1] والسيد عمر نقيب الأشراف وبعض شوربجية الانكشارية[2] أيضاً، ينادون بالتركي كل هؤلاء يمرون بجهات المدينة ليلاً ونهاراً ويحرضون الناس على الجهاد.

[٢٢٨] وجرى على الناس ما لا يسطر في كتاب، ولم يكن لأحد في حساب، ولا يمكن الوقوف على كلياته فضلاً على جزئياته، منها عدم النوم ليلاً ونهاراً، وعدم الطمأنينة، وغلو الأقوات، وفقد الكثير منها خصوصاً الأدهان[3]، وتوقع الهلاك كل لحظة، والتكليف بما لا يطاق، ومغالبة الجهلاء على العقلاء، وتطاول السفهاء على الرؤساء، ولغط الحرافيش، وتهور العامة، وغير ذلك مما لا يمكن حصره.

= ١١٥١، ونشأ في طلب العلم، وكان آية في الفهم والذكاء، وألقى الدروس، وانجمع عن خلطة الناس، وعاشر العلماء والفضلاء مع المروءة الظاهرة، وحج سنة ١١٨٧ وجاور سنة في الحرم وعقد دروساً وانتفع به الطلبة، ثم رجع إلى بلده. وكانت شفاعته لاترد عند الأمراء والأعيان ووفدت عليه الوفود من أقطار العالم الإسلامي، ثم عاد وجاور سنة أخرى ثم عاد إلى مصر، وله عدة مصنفات. ولما دخل الفرنسيون قاسم الناس البلاء ونُهبت داره، توفي سنة ١٢١٥ رحمه الله تعالى. انظر «عجائب الآثار»: ٣/ ١٦٤ ـ ١٦٦.

(١) محمد بن محمد بن أحمد السنباويّ المالكيّ الأزهري الشهير بالأمير. أصله من المغرب، وولد بالصعيد سنة ١١٥٤، ثم ارتحل مع والديه إلى القاهرة وعمره تسع سنوات بعد أن ختم حفظ القرآن وتجويده، ثم حفظ متوناً ودرس على مشايخ حتى مهر وتصدر لإلقاء الدروس واشتهر أمره وشاع فضله. وتوجه إلى اسطنبول وألقى هناك دروساً، وله عدة مصنفات، وكان لطيف المزاج، توفي سنة ١٢٣٢ رحمه الله تعالى. انظر المصدر السابق: ٤/ ٢٨٤ ـ ٢٨٦.

(٢) العسكر العثماني المقيم في مصر.

(٣) وكانت لازمة لحياة الناس آنذاك للإنارة وغيرها.

غوغاء العامة منعت من الصلح وحقن الدماء

[٢٢٩] ولم يزل الحال على هذا المنوال إلى نحو عشرة أيام، وكل هذا والرسل من قبل كبير الفرنسيس، وهم عثمان بيك البرديسى تارة ومصطفى كاشف رستم أخرى، والاثنان من أتباع مراد بيك يترددون في شأن الصلح وخروج العساكر العثمانية من مصر، والتهديد بحرقها وهدمها إن لم يتم هذا الغرض، ثم نصب الفرنج في وسط البركة فسطاطاً لطيفاً وأقاموا عليه علماً وأبطلوا الحرب تلك الليلة، وأرسلوا رسولاً من قبلهم إلى الباشا والكَتْخُدا والأمراء يطلبون المشايخ الذين كانوا مرتبين بالديوان ويتكلمون معهم في شأن هذا الأمر، فأرسلوا الشيخ الشرقاوي والشيخ محمد المهدي والشيخ سليمان الفيومي والشيخ موسى السرسي، فجلسوا وخاطبهم على لسان الترجمان بما حاصله أن كبير الفرنسيس قد أمن أهل مصر أماناً شافياً، وأن الباشا والكَتْخُدا ومن معهما من الأمراء المصرية يتوجهون بعساكرهم إلى أورضي حضرة الوزير، وعلى الفرنساوية القيام بما يحتاجون إليه من الذخيرة والمؤونة، ومن أراد الإقامة بمصر من المماليك والأجناد الداخلة معهم فليقم، ومن أراد الخروج فليخرج، والجرحى من العثمانية يجردون من سلاحهم ويتخلفون ويعالجهم أطباء الفرنساوية حتى يشفوا، ومن أقام منهم بعد البرء فليقم، وإن شاء فليلحق بهم، وعلى مصر الأمان ـ فإنهم رعيتهم ـ وأمثال ذلك من الكلام والشروط التي عددوها.

[٢٣٠] فلما كان من الغد وشاع أمر الصلح ورجعت المشايخ بهذا

الكلام، وسمعه الناس قامت عليهم وشتموهم وسبوهم وأسمعوهم قبيح الكلام، وصاروا يقولون: هؤلاء المشايخ ارتدوا وعملوا فرنسيس، ومرادهم خذلان المسلمين، وأنهم أخذوا دراهم من الفرنسيس، وأكثر السفلة والغوغاء من أمثال هذا الفضول، وتشدد في ذلك الرجل المغربي الملتف عليه أخلاط العالم ونادى من عند نفسه بأن الصلح منقوض، ووافق ذلك أغراض العامة لعدم إدراكهم لعواقب الأمور، فالتفوا عليه وتعضد كل بالآخر، ولأن غرضه هو في دوام الفتنة فإن بها يتوصل لما يريده من النهب والسلب، والتصور بصورة الإمارة باجتماع الأوزاع عليه، وتكلف الناس له بالمآكل والمشرب، هو ومن انضم إليه، واشتطاطه في المآكل مع فقد الناس لأدون ما يوكل، حتى إنه كان إذا نزل جهة من جهات المدينة لإظهار أنه يريد المعونة أو الحرس فيقدمون له بالطعام فيقول: لا آكل إلا الفراخ، ويظهر أنه صائم، فيكلف أهل تلك الجهة أنواع المشقات والتكلفات بتعنته في هذه الشدة بطلب أفخر المأكولات وما هو مفقود، ثم هو مع ذلك لا يغني شيئاً بل إذا هجم العدو على تلك الجهة التي هو فيها فارقها وانتقل لغيرها، وهكذا كان ديدنه.

ثم هو ليس ممن له في مصر ما يخاف عليه من مسكن أو أهل أو مال أو غير ذلك بل كما قيل لا ناقتي فيها ولا جملي، فإذا قُدر ـ والعياذ بالله ـ أن العدو دخل البلد تخلص مع حزبه من بعض الجهات والتحق بالريف وتخلص، وحينئذ يكون كآحاد الناس ويرجع لحالته الأولى وتبطل الهيئة الاجتماعية التي جعلها لجلب الدنيا فَخّاً منصوباً ومَخْرَقَ[1] بها عل سخاف العقول، وأخفاء الأحلام، وهكذا حال الفتن

(١) أي مَوّه.

تكثر فيها الدجاجلة، ولو أن نيته ممحضة لخصوص الجهاد، لكان شواهد علانيته أظهر من نار على علم، أو اقتحم كغيره ممن شاهدناه من المخلصين في الجهاد، وفي بيع نفوسهم في مرضاة رب العباد لظى الهيجاء ولم يتعنت على الفقراء، ولم يجعل همته في السلب مصروفة وحالة سلوكه عند الناس ليست معروفة.

ومهمـا تكـن عنـد امـرىء مـن خليقـة
وإن خـالهـا تخفـى علـى النـاس تعلـم

[٢٣١] وبالجملة فكان هذا الرجل سبباً في تهدم أغلب منازل الأزبكية، ومن جملة ما رميت به مصر من البلاء، وكان مما نادى به حين أشيع أمر الصلح، وتكلم به الأشياخ:

الصلح منقوض، وعليكم بالجهاد، ومن تأخر ضرب عنقه.

وهذا منه افتيات[1] في حق السلطنة، وفضول، ودخول فيما لا يعني، حيث كان في البلد مثل نصوح باشا ومثل الهمام الأعظم والرئيس الأفخم عثمان كَتْخُدا وغير هذين من الأمراء المصرية، فما قَدْر هذا الأهوج حتى ينقض صلحاً أو يبرمه، وأيّ شيء يكون هو حتى ينادي أو يترأس بدون أن ينصبه أحد لذلك، لكنها الفتن يستنسر فيها البُغاث سيما عند هيجان العامة وثورات الرعاع والغوغاء إذا كان ذلك مما يوافق أغراضهم:

وذنــب جــره سفهـــاء قـــوم
وحَــل بغيــر جـانيــه العــذاب

---

(١) أي مسارعة إلى فعل ليس حقاً له.

على أن المشايخ لم يأمروا بشيء، ولم يذكروا صلحاً ولا غيره، إنما بلّغوا صورة المجلس الذي طُلبوا لأجله لحضرة الكَتْخُدا، فبمجرد ذلك قامت العامة هذا المقام وفعلوا مع المشايخ ما فعلوا، وصاروا يقولون: لولا أن الملاعين تَبَيَّن لهم العجز والغلبة ما طلبوا المصالحة، وأخذوا في ضرب البنادق والثوران في الأزقة والضجيج، فأرسل الفرنسيس رسلاً يسألون عن رد الجواب الذي توجه به المشايخ فأرسل الباشا والكَتْخُدا يقولون لهم: إن العساكر لم يرضوا بذلك، وليس في قدرتنا قهرهم على الصلح، فأرسل الفرنساوية جواب ذلك في ورقة ويقولون في ضمنها: وقد عجبنا من قولكم إن العساكر لم يرضوا بالصلح، وكيف يكون الأمير أميراً على جيش لا ينفذ أمره فيهم، ونحو ذلك، وأرسلوا أيضاً إلى أهل بولاق بمثل ذلك، فلم يرضوا، فكرروا عليهم ذلك أربع مرار، وفي الخامسة أرسلوا رجلاً من كبير الفرنساوية خيالاً، وبيده ورقة وهو يقول: أمان أمان سواء سواء، فأنزلوه من على فرسه وقتلوه، واستمروا على تترسهم وتصميمهم على الحرب[1].

وحضر الألفي إلى عثمان كَتْخُدا برأي ابتكره، وهو أن يرفعوا على هلالات المنارات أعلاماً، ويسرجون في المنارات قناديل ليلاً، ليرى ذلك العسكر القادم، فيعلمون بذلك أن البلد بيد المسلمين، وكذلك صنع أهل بولاق.

[٢٣٢] واستمر الحرب بين الفريقين إلى يوم الخميس ثاني عشرينه، الموافق لعاشر برموده القبطي، وسادس نيسان الرومي، فاتفق

---

(١) لم يكن ينبغي أن يُسمع إلى رأي العامة أو يلتفت إليهم حقناً لدماء المسلمين ولكنها الفتن لا تبقي ولا تذر، وتكون البصائر فيها مطموسة، وذوو العقول مؤخرين.

أنه وقع غيم ومطر ورعد واشتد ذلك بعد المغرب، وتوحلت السكك وحلاً كثيراً، وسالت المياه في الجهات فاشتغل الناس بتجفيف الأرض وكسح الوحل والمياه، فهجمت الفرنسيس بعد المغرب على أطراف البلد، وجاء المعظم منهم جهة باب النصر والعطوف والحسينية، والوقت إذ ذاك مظلم والغيم مطبق والمطر متكاثر، فهرعت الناس المقاتلة لتلك الجهات، ولَبَّخَتْ الأمراء والعساكر بسراويلهم ومراكبهم في الطين والوحل، وانزعج الناس من هذه الكبسة مالم ينزعجوا في غيرها.

وقد أعد الفرنسيس للحريق فتايل مغموسة بالزيت والقطران وكعكات غليظة ملونة على أعناقهم معمولة بالنفط والأرواح المصنوعة المقطرة التي تشتعل ويقوى لهبها بالماء وأوصلوا الضرب بالبنادق والبنبات، وبذل المسلمون في هذه الليلة جهدهم وطاقتهم، وقاتلوا بشدة همة وقوة عزيمة وتحول الأغا وأكثر المقاتلة إلى الجهة التي زحف معظمهم عليها، وهاجمت العامة، وصرخت النساء والصبيان، ولاقى الناس في تلك الليلة شدة عظيمة.

وأما بولاق فإنهم كبسوا عليها في وقت الفجر من ناحية البحر، ومن ناحية بوابة أبي العلا بالمدافع وآلات الحرب، وحصر أهل البلد وأشعلوا الحريق في معظم الجهات العامرة، ووالوا ضرب المدافع، وتحصن جمع من المسلمين وتترسوا بجامع أبي العلا وقاتلوا من داخله وعلى منارته حتى قتلوا عن آخرهم، وغاية الأمر ملكوا بولاق، وفعلوا بأهلها ما تشيب من سماعه النواصي، وصارت القتلى مطروحة في الطرقات والأزقة، واحترقت الأبنية والدور خصوصاً البيوت المطلة على النيل والرباع، وكذلك الأطراف، وهرب كثير من الناس عندما أيقنوا بالغلبة، فنجوا بأنفسهم.

ثم بعد أن ملكوا البلد أحاطوا بها، ومنعوا من يخرج عنها، واستولوا على الحانات والوكايل وما بها من الحواصل والطباق، وأخذوا جميع مافيها من الودايع التي للناس والمتاجر، وأخذوا مافي البيوت والحوانيت، وأخذوا بعض نساء مأسورات، واستولوا على جميع ما في البلد من غلال وسكر وكتان وقطن وأبازير وأرز وأدهان وأصناف عطرية ومالا تسعه السطور، ومالا يحيط به كتاب ولا منشور، والذي وجدوه منكفئاً في داره ولم يقاتل ولم يجدوا عنده سلاحاً نهبوا متاعه وعروه من ثيابه، ومضوا وتركوه حياً، وأصبح من بقي من ضعفاء أهل بولاق وأعيانهم الذين لم يقاتلوا فقراء لم يملكون ما يستر عورتهم، وذلك يوم الجمعة ثالث عشرينه.

[٢٣٣] واختفى الحاج مصطفى البشتيلي[١] فدلوا عليه، وكذلك باقي رؤساء أهل بولاق، فحبسوا البشتيلي بالتكية وباقيهم عند الفرنسيس ببيت الألفي، وضيقوا عليهم حتى منعوهم البول.

وفي اليوم الثالث أطلقوهم وسلموهم البشتيلي، وأمروا عصبته بقتله فطافوا به ببولاق ثم قتلوه بالنبابيت[٢]، ورتبوا من أهل بولاق تسعة أشخاص ممن بقي من أعيانها في ديوان، وألزموهم بقبض مائة ألف ريال فرنساوي من أهل بولاق بعد الذي وقع لهم.

[٢٣٤] وأما المدينة فلم يزل الحال بها على النسق المتقدم ذكره من الحرب والكرب والحرق والنهب والسلب إلى سادس عشرينه، حتى ضاق خناق الناس من استمرار الانزعاج والحريق والسهر وعدم

---

(١) أي الذي كان قائماً بالجهاد في بولاق، انظر الفقرة [٢٢١].

(٢) العصي الغليظة، وقد مرّ تعريفها.

الراحة لحظة من ليل أو نهار مع ماهم فيه من عدم القوت حتى هلكت الناس، وخصوصاً الفقراء والدواب وإيذاء العسكر للرعية، وأخذهم مايجدونه معهم، والحال كل وقت في ازدياد، وأمراء المسلمين في ضعف لعدم الميرة والمدد، والأعداء كل يوم يزحفون إلى قدام والمسلمون يتأخرون إلى ورائه، فدخل الفرنسيس من باب الحديد وناحية كوم الريش وقنطرة الحاجب وتلك النواحي وهم يحرقون بالفتايل والنيران على الشرح المتقدم، ويملكون المتاريس، وكان شاهين أغا مترساً بكوم الريش فأصابته جراحة فقام من مكانه ورجع القهقرى، فعند قيامه من متاريسه ورجوعه إلى خلف وقعت الهزيمة وداست الناس بعضهم بعضاً.

[٢٣٥] هذا والبرديسى والأشقر ومصطفى كاشف رستم يسعون في الصلح إلى أن تمموه على الموادعة وترك القتال، وأن الفرنسيس يمهلون العساكر والأمراء ثلاثة أيام حتى يقضوا أشغالهم ويذهبوا من حيث أتوا، وجعلوا مجرى الخليج حداً بين الفريقين لا يتعدى أحد من الفريقين بر الخليج الآخر، وبطل الحرب وخمدت النار، وأخذ العسكر والأمراء في أهبة الرحيل وقضاء أشغالهم.

وكان مما شرط في الصلح تزويد الفرنساوية لهم وأعطاؤهم جمالاً وغير ذلك، فوفى كبير الفرنسيس بذلك، وكتبوا بعقد الصلح ورقة شرطوا فيها أنهم يتركون عند الفرنسيس البرديسيّ والأشقر(١) رهينة، وأن يذهب داماس بعساكر خلف العساكر العثمانية لحد الصالحية، ومن أراد الخروج من أهل مصر فليخرج خلا عثمان بيك

(١) كلاهما اسمه عثمان، وقد تقدمت ترجمتها.

الأشقر، فإنه إذا رجع الثلاثة أنفار من الفرنسيس يذهب هو مع البرديسيّ إلى مراد بيك بالصعيد، إلى آخر المضمون، وأرسلوا الثلاثة المذكورين إلى خطة الجمالية ومعهم الألفي ماشياً هو ومماليكه وأجناده وبأيديهم البندق والثلاثة الفرنسيس مشاة مع الألفي والمماليك محدقة بهم من جميع الجوانب ، مخافة من ثوران العامة عليهم فيقتلوا واحداً منهم أو يهينوه فيختل أمر الصلح ويتسع الفساد، وخيولهم تقاد بين أيديهم.

فلما وصلوا للجمالية ثارت العامة وصاحوا وصرخوا وقالوا: الصلح منقوض، ولايكون إلا القتال، وأرادو الفتك بالأنفار الثلاثة الرهائن، فأصعدهم محمد بيك الألفي بجامع الجمالي، وأوقف حراساً على بابه من مماليكه، وبيدهم السلاح حتى بردت نار العامة وبطل صياحهم، فذهبوا بهم لبعض البيوت بالجمالية، واستمروا كذلك حتى سافروا مع عثمان كتخدا، وكذلك ثارت العامة في هذا الوقت بعثمان كتخدا، فأغلق دونهم باب ذي الفقار الذي كان جالساً به، وزجرهم العسكر وطرودهم.

[٢٣٦] وركب المغربيّ فذهب إلى الحسينية لإظهار أنه يريد محاربة الفرنسيس، وأنه ينقض الصلح فحضر بعض عقلاء أهل الحسينية إلى عثمان كتخدا يأخذون منه إذناً في موافقة المغربي أو منعه، فلم يأذن لهم، وأمرهم بمنعه، وركب المحروقي ومر بسوق الخشب وأمامه شخص ينادي بلزوم المتاريس وأنه لاصلح فمنعه نزله أمين، وفتح باب الخان وخرج منه عسكر بأيدهم العصي فطردوا العامة ففروا، وسكن الحال.

شهر ذي الحجة

واستهل شهر ذي الحجه بيوم الجمعة.

فيه خرج العثمانية وعسكرهم وإبراهيم بيك وأمراؤه والألفي والسيد عمر النقيب والسيد أحمد المحروقي وكثير من أهل مصر راكبين وماشين، وكذلك حسن بيك الجداوي، وأما عثمان بيك حسن فإنه استمر بأورضي همايون.

[٢٣٧] فكانت مدة الحرب والمحاصرة بما فيها من ثلاثة أيام الهدنة سبعة وثلاثون يوماً، وقع بها من الحروب والكرب والانزعاج والشتات والهجاج وخراب الدور وعظيم الأمور وقتل الرجال ونهب وسلب الأموال وتسلط الأشرار وهتك الأحرار[١]، وخصوصاً ما أوقع الفرنساوية بالناس بعد ذلك مما سيتلى عليك بعضه، وضرب في هذه

---

(١) كتب أحد الضباط في مذكراته:
«فجأة تحولت القاهرة إلى مدينة مقاتلة، نصبت المتاريس في كل شوارعها، وانهمك المقاتلون في البحث عن كل ما يصلح من سلاح للقتال، وخرجت كميات أسلحة كبيرة كانت مخبأة وأفلتت من عمليات التفتيش الواسعة... ونظم المقاتلون أنفسهم حسب الأحياء، وأثار هذا التنظيم العفوي دهشة كبيرة لدينا، واتجه الهجوم الرئيسي نحو مقر القيادة العامة، وحاول الكولونيل فردان فك الحصار لكنه اصطدم بمقاومة شرسة، على أن أشد ما آثار الدهشة والمرارة العنيفة أن جميع الرجال المصريين الذين كانوا في خدمتنا ومرتبطين ارتباطاً وثيقاً بنا والذين أغرقنا عليهم كل أنواع العطف والعطاء كانوا أول من بادروا بتزعم المتمردين، وأصبحوا بين يوم وليلة أشد أعدائنا شراسة» انظر «الحملة الفرنسية: اللحن الأخير»: مجلة الهلال: ١٣٩ عدد ربيع الأول ١٤١٩.

الواقعة معظم عماير مصر وعدة جهات من أخطاط مصر الجليلة[1] وخصوصاً بركة الأزبكية ذات المحاسن البهية، وأما بركة الرطلي وما حولها من الدور والمنتزهات والبساتين فإنها صارت كلها تلالاً وخرائب وكيمان أتربة، وقد كانت هذه البركة من أجل منتزهات مصر قديماً وحديثاً، وعرفت ببركة الرطلي لأنه كان في شرقها زاوية بها نخل كثير، وفيها شخص يصنع الأرطال الحديد التي يزن بها البياعون يقال له الشيخ علي الرطلي فنسبت اليه.

الذل والهوان الذي حاق المسلمين بعد الصلح

ودخل الفرنسيس إلى المدينة يسعون، وإلى الناس بعين الحقد ينظرون، واستولوا على ماكان صنعه وأعده العساكر العثمانية من المدافع والقنابر والبارود والكلل وآلات الحرب جميعه.

[٢٣٨] وركب المشايخ والأعيان عصر ذلك اليوم وذهبوا إلى كبير الفرنسيس، فلما وصلوا إلى داره وجلسوا ساعة أبرز إليهم ورقة مكتوب فيها: النصرة لله، يريد أن المنصور يعمل بالشفقة والرحمة مع الناس، وبناء على ذلك صاري عسكر العام يريد أن ينعم بالعفو للعام

---

(١) كتب مؤرخ فرنسيّ للحملة:
«لجأت القوات الفرنسية لاستراتيجية جديدة هي «الحريق المنهجي» للبيوت، ودمرت الحي بيتاً بيتاً عن آخره، واستباح الجنود كل شيء: السلب والنهب والاغتصاب ـ وكان يحدث لأول مرة وعلى أوسع مدى ـ وبلغت الفظائع حداً أثار خوف كليبر وقلقه من العواقب، وأصدر على الفور أمراً بمعاقبة كل من يُضبط متلبساً بالنهب والسلب والاغتصاب بالإعدام، ومع وعد بأن الغنائم ستوزع بمعرفة القادة!!»: المصدر السابق: ١٤٠.

والخاص على أهل مصر، وعلى أهل بر مصر، ولو كانوا خالصوا العثماني في الحروب، وأنهم يشتغلون بمعايشهم وصنايعهم، ثم نبه عليهم بحضورهم إلى قبة النصر بكرة تاريخه، ثم قاموا من عنده وشقوا المدينة وطافوا بالأسواق وبين أيديهم المناداة للرعية بالأمان والاطمئنان.

فلما أصبح ذلك اليوم خرجت المشايخ والأوجاقلية والقَلَقات والنصارى القبط والشوام وغيرهم، ودخل الموكب من باب النصر وقدامهم جماعة من القواسة يأمرون الناس بالقيام، وبعض الفرنساوية راكبين خيل بأيديهم سيوف مسلولة ينهرون الناس يأمرونهم بالقيام، ومن تباطأ في القيام أهانوه، فاستمرت الناس وقوفاً من ابتداء سير الموكب إلى انتهائه، ثم تلا الطائفة الآمرة للناس بالوقوف جمع كثير من الهجانة الفرنساوية بأيدهم سيوف مسلولة، وكلهم لابسون جوخاً أحمر وعلى رؤوسهم طراطير من الفراوي على غير هيئة خيالتهم ومشاتهم، ثم تتالى بعد هؤلاء طوائف العساكر ببوقاتهم وطبولهم وزمورهم واختلاف أشكالهم وأجناسهم وملابسهم من خيالة ورجالة إلى أن قدم كبير الفرنسيس وخلف ظهره عثمان بيك البرديسي وعثمان بيك الأشقر ووراءهم طوائف من خيالة الفرنسيس ، ولما انقضى أمر الموكب ، نادوا بزينة البلد ثلاثة أيام، آخرها الثلاثاء مع السهر ووقود القناديل، ثم دعاهم في يوم الأربعاء ومد لهم سماطاً عظيماً، فيه أصناف المأكولات على طريقة أهل مصر.

وبعد انقضاء الوليمة والطعام خاطبهم على لسان الترجمان:

إن صاري عسكر يقول لكم: إنكم تأتون إليه بعد غد يوم الجمعة ويعمل معكم تدبيراً ويدير لكم الديوان، لأجل تنظيم البلد، وصلاح

حالكم وحال الرعية، ولبّسُوا في ذلك اليوم محمد أغا الطناني أغاة مستحفظان[١]، ولبسوا البكري[٢] فروة وأعطوه بيت البارودي عوضاً عن بيته بالأزبكية، ثم انفض المجلس وقاموا من عنده مستبشرين مغترين بالصورة الظاهرة، وركب الأغا ونادى في البلد بالأمن والأمان.

[٢٣٩] فلما كان في صبحها يوم الجمعة بكروا في الذهاب إلى بيت كبير الفرنسيس، ولما جلسوا بالديوان الخارج أهملوا حصة طويلة لم يُؤذنْ لهم، ولم يُخاطبوا، ثم طلبوا إلى المجلس الداخل، وأهملوا كذلك حصة مثل الأولى، ثم خرج عليهم كبير الفرنسيس وصحبته الترجمان وجماعة من أعيانهم، فوضع له كرسي بوسط المجلس، ووقف الترجمان وأصحابه حوله واصطفت الأوجاقلية الحكام ناحية، وأعيان النصارى والتجار ناحية، وحضر عثمان بيك الأشقر وعثمان بيك البرديسي، فأخرج صاري عسكر ورقة من كمه وتكلم بما فيها، وترجم عنه الترجمان فقال للحاضرين:

إن صاري عسكر يقول لكم: إنه عفى عنكم مع استحقاقكم للعقوبة، وإنما يطلب منكم عشرة آلاف ألف ريال إفرنجي[٣]، وذلك مقدار ألفي ألف فرانسي، منها على شيخ السادات ماية وخمسون ألفاً، والشيخ محمد بن الجوهري خمسون ألفاً، وأخوه السيد عبدالفتاح[٤]

---

(١) أي جعلوه محافظ القاهرة.

(٢) أي خليل البكري، وقد سبقت ترجمته.

(٣) أي عشرة ملايين، وذلك مبلغ عظيم هائل.

(٤) العمدة الوجيه عبدالفتاح بن أحمد بن الحسن الجوهري، ولد سنة ١١٤١، ونشأ في حجر أبيه، وحضر بعض دروس العلم لكنه لم يكن معتنياً به، وكان يعاني التجارة فلما توفي أخوه العالم الشيخ محمد وامتنع أخوه الأصغر من الإقراء تصدر هو للإقراء صورة حفاظاً على اسم الأسرة ـ وكانت أسرة علم ـ وتزيا بزي =

مثلها، والشيخ مصطفى الصاوي مثلها، والشيخ العناني خمسة عشر ألفاً ومئتان، وخمسون ألفاً نقتطعها عنكم من المبلغ نظير نهب الفارين مع العثماني مثل السيدين عمر المحروقي وحسين أغاشنن، وتدبروا رأيكم في الباقي توزعوه على أهل البلد، وقام من فوره ودخل مع أصحابه إلى مكانه، وأغلق بينه وبينهم الباب، ووقف عسكر على الباب الذي فيه الجماعة يمنعون من يخرج من الجالسين، فبهت الجماعة واصفرت وجوههم، وتحيرت أفكارهم، ونظر بعضهم إلى بعض، وتراموا على يعقوب القبطي وأنظاره، فدخل على كبير الفرنسيس وخرج يقول: إنه قال يبقى منكم خمسة عشر شخصاً رهينة حتى يتغلق المطلوب، فقالوا: وكيف نعمل؟ ولم يزالوا في هذه الحيرة والتداخل على القبطة إلى قبيل العصر، حتى بال أكثرهم على ثيابه، وبعضهم شرشر من الشبابيك المطلة على البركة[1].

والشيخ محمد المهدي يتشاور مع يعقوب ومن له التكلم في تدبير ذلك وتوزيعه وترتيبه، وعملوا بذلك قوائم وشرعوا في تحرير دفاتر حتى ضاق الوقت، فاستأذنوا للجماعة، فأذنوا لهم بالذهاب، وركب شيخ السادات فألزموه عشرة من العسكر ببنادقهم وذهبوا معه إلى داره، وأما الشيخ الصاوي والسيد عبدالفتاح الجوهري فحبسوهما ببيت قائمقام، والشيخ العناني لم يحضر تلك الجمعية، بل هرب من قبل، وكان داره قد احترق مدة الحرب بسوق الخشب، ولما لم يجدوه

= الفقهاء وأقبل على طلب العلم، وأقرأ دروس الحديث بالمشهد الحسيني في رمضان على قلة بضاعته، وكان تاجراً ثرياً يتردد إلى الحرمين، ولما صادره الفرنسيون حصل له كرب وانفعال ثم توفي بعد شهور، سنة ١٢١٥ رحمه الله تعالى، انظر «عجائب الآثار»: ٣/١٦٦.

(١) أي بال من ثقوب الشبابيك، وهذا غاية الذل والهوان، والعياذ بالله.

أضافوا غرامته على باقي الغرامات، وانفض المجلس على ذلك، وركب كبير الفرنسيس من يومه وعدى إلى الجيزة وأقام بقصر مراد بيك.

[٢٤٠] وفوض أمر ذلك ليعقوب القبطي يفعل في المسلمين ما يشاء، وأقام بمصر قائمقام، والخزندار لمرجع الأمر والمشورة والتدبير وقبض الأموال، وشرعوا في توزيع الغرائم[١] وتقسيمها على عموم الناس وخاصتهم من الملتزمين والتجار، والمتسببين وجماعة الغورية وخان الخليلي، والصاغة والنحاسين والدلالين والقبانية حتى قضاة المحاكم، وأهل الجمالية وسائر الأخطاط بما تحوي من الوكايل والعطارين والزياتين والجزارين والمزينين والحدادين وجميع الصنايع والحرف، حتى الحواة والقريداتية[٢] والأمور السافلة، كل طائفة من هذه الطوائف ألزمت بمال له صورة مثل ثلاثين ألف ريال فرنساوي إلى ثلاثمائة فما فوق، وأما شيخ السادات فإنه لما توجه إلى داره وصحبته العسكر جلس العسكر عند بابه.

فلما مضت حصة من الليل حضر إليه مقدار عشرة من العسكر أيضاً فأركبوه وطلعوا به إلى القلعة وحبسوه في مكان، فأرسل إلى عثمان بيك البرديسي فتكلم في شأنه، فقال كبير الفرنسيس: أما القتل فلا تقتله، وأما المال لابد من دفعه، ثم قبضوا على مقدمه وفراشه وحبسوهما أيضاً، ثم أنزلوه إلى بيت قائمقام فحبس به يومين، ثم أصعدوه إلى القلعة ثانياً وسجنوه في حاصل مظلم ينام فيه من غير فراش، فطلب زين الفقار كتخُدا فطلع إليه هو وبرطلمين فتوسطا في إنزاله لداره ليقضي أشغاله ويسعى في تحصيل المطلوب فأنزلوه، فجمع ما أمكنه من النقد وما

---

(١) أي الغرامات المطلوبة، كما سبق.

(٢) الحواة: هم صنف من السحرة الذين يستخدمون الحيات ونحوها ويسخرونها لهم. والقرداتية: وهم الذين يلعبون بالقرود.

وجده من المصاغ والفراء والملابس فقوموه بأبخس الأثمان، فبلغ المدفوع نقدية ومقومات إحدى وعشرين ألف فرانسي.

كل هذا والمحافظون عليه من العسكر ملازمون له لا يفارقونه ولا يتركونه يدخل إلى حريمه، وكان حريمه اختفوا بمكان، فلما فرغوا في تقويم الأعيان وقبض الدراهم، جاشوا خلال الديار يفتشون ويحفرون الأرض فلم يجدوا شيئاً، ثم نقلوه إلى بيت قائمقام وشددوا عليه بالحبس والضرب وطلبوا حريمه وابنه فلم يجدوهما، فأحضروا ابن السندوبي تابعه وقرروه وهددوه فعرفهم بمكانهما، فأحضروهما وحبسوا ابنه عند أغاة الانكشارية، وحبسوا حريمه معه لترى وتشاهد ما هو فيه من الضيق والإهانة فتقر بالدراهم، ثم إن الشيخ الشرقاوي والمهدي والفيومي وزين الفقار كتخدا تشفعوا في نقلها إلى مكان آخر فنقلوها إلى بيت الفيومي، وبقي الشيخ على حاله، وأخذوا يقررون أتباعه على ما يعلمونه، وتغيب أكثر أتباعه واختفى، وقد وقعت المراجعة والشفاعة في غرامة الشيخ الصاوي والشيخ عبدالفتاح الجوهري، وتقرر على كل منهما خمسة عشر ألف فرنساوي، وردوا الباقي على الفردة العامة.

وأما الشيخ محمد ابن الشيخ الجوهريّ فإنه اختفى فلم يجدوه، فنهبوا داره ودار نسيبه وصهره المعروف بالشويخ، ثم إنه توسل سراً بالست نفيسة زوجة مراد بيك، فأرسلت إلى مراد بيك فأرسل من طرفه كاشفاً وتشفع فيه، فقبلوا شفاعته ورفعوها عنه وردوها أيضاً على الفردة العامة، وكان هذا شأنهم كلما وقعت المرافعة في شيء ردوه على الباقي ولا ينقصون مما قرره في الأصل شيئاً.

[٢٤١] ثم إن يعقوب اللعين عمل ديواناً لخاصة نفسه، ورتبه ببيت البارودي، وأحضر المباشرين ومشايخ الحرف والأخطاط، وكتب

القوائم، وقرر على الأماكن والعقارات والأوقاف أجرة سنة، وألزم كل كبير في خطة بتحصيل ما تقرر على جهته، وأعطوهم عسكراً من الفرنسيس يستعينون بهم في التحصيل، وعمل كل كبير في جهة له ديواناً، واجتمع عنده كتبة مختصة به قبطة ومسلمون وأعوان وبعض من عسكر الفرنسيس، فطلبوا من الناس ضعف ما قرره يعقوب ليكتسبوه لأنفسهم وبثوا أعوانهم من القواسة وعسكر الفرنسيس في طلب الناس وحبسهم وضربهم وعقابهم، والمرجع في ذلك كله إلى الديوان الكبير، وهو ديوان يعقوب، فدهي الناس بهذه الداهية التي لم يصابوا بمثلها ولا ما يقاربها، ومضى عيد النحر ولم يشعر به أحد و نزل بهم من البلاء والذل ما لا يوصف، فإن الواحد من الناس غنياً كان أو فقيراً لا بد وأن يكون من ذوي الصنائع أو الحرف فيلزمه شقْص[1] ما، وزع عليه في حرفته أو حرفتيه وأجرة داره أيضاً وحانوته سنة معجلة، فكان يأتي على الشخص الواحد غرامتان أو ثلاث أو أكثر؛ إذ يتجر الإنسان في بضائع متعددة، وكل نوع من أنواع المتاجر ألزم أهله بغرامة، وفرغت الناس من الدراهم، واحتاج كل واحد إلى الاقتراض، فلم يجد من يدفع له على سبيل الاقتراض؛ لاشتغال كل إنسان بغرامته ومصيبته، فاضطروا لبيع المتاع، فلم يجدوا من يشتريه أيضاً، وإذا أعطوهم ذلك فلا يقبلوه، فضاق خناق الناس وتمنوا الموت فلم يجدوه.

ثم وقع الترجي في قبول المصاغ والحلي وأواني الذهب والفضة، فإذا أحضر قُوم بأبخس الأثمان، وأما أثاثات البيوت من فرش ونحاس وملبس فلا يوجد من يأخذها.

[٢٤٢] وأمروا بجمع البغال ومنعوا المسلمين من ركوبها مطلقاً

---

(١) قال المحقق: الشقص بالكسر، السهم والنصيب.

سوى خمسة أنفار وهم الشرقاوي والمهدي والفيومي والأمير وأحمد بن محمود محرم، والنصارى لا حرج عليهم.

[٢٤٣] وفي كل وقت وحين يشتد الطلب وينبث المعينون من القواسة والعساكر في طلب الناس وهجم الدور وسحب الأشخاص بالكره والعنف حتى النساء من أكابر وأصاغر فيأتون بهم على أسوأ حال؛ ويهينونهم ويحبسونهم ويضربونهم، والذي لم يجدوه كان فاراً أو مخبأ يقبضون على ابنه أو زوجته أو قريبه أو ينهبون داره، فإن لم يجدوا شيئاً ردوا غرامته على أبناء جنسه، وأهل حرفته، إن كانت الغرامة من قبل الحرفة، فإن كانت من قبل الحانوت أو المنزل، ردوها على جيرانه.

[٢٤٤] وتطاولت النصارى البلدية[1] على المسلمين بالسب والضرب والاستهزاء والسخرية، ونالوا منهم أغراضهم، وطعنوا في دين الإسلام، وصرحوا بانقضائه، وإذا ضربوا مسلماً وتألم واستغاث يقولون له: وأين محمدكم الذي تزعمون أنه يشفع لكم؟، وأمثال هذا الكلام الذي يقشعر القلب من سماعه.

هذا والكتبة والمهندسون والبانون يطوفون ويحررون أجر الأماكن والعقارات ويكتبون أسماء أربابها وقيمتها، وخرجت الناس من المدينة وهربوا إلى الأرياف.

[٢٤٥] ثم رجع أكثر الناس الفارين لضيق القرى، وعدم ما يتعيشون به فيها، واختلاف الأرياف وانزعاجها بقطاع الطريق والعرب والمناسر بالليل والنهار، والقتل فيما بينهم، وتعدي القوي على الضعيف، واستمرت أسواق المدينةمقفرة، والطرق معفرة، والحوانيت

---

(١) أي الذين هم من أهل مصر من القبط والأروام.

مقفولة والعقول مخبولة، والوكائل مغلوقة، والنفوس مطبوقة، والغرامات هاطلة، والأرزاق عاطلة، والمطالب والمصائب عميمة، والعكوسات مقصودة، والشفاعات مردودة.

وإذا أراد الإنسان أن يفر إلى أبعد مكان، وينجو بنفسه ويرضى بغير أبناء جنسه لا يجد طريقاً للذهاب، وخصوصاً من أشرار الأعراب، الذين هم أقبح الأجناس، وأعظم بلاء محيط بالناس، وبالجملة فالأمر عظيم، والخطب جسيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[1].

ووقع التشديد في الطلب والانتقام بأدنى سبب، وانقضى هذا وما جرى فيه من الحوادث العظام بإقليم مصر والشام والروم والبيت الحرام، فمنها وهو أعظمها تعطيل الثغور ومنع المسافرين براً وبحراً.

[٢٤٦] ووقوف الإنكليز بثغر الإسكندرية ودمياط يمنعون الصادر والوارد[2]، وتخطوا بمراكبهم أيضاً إلى بحر القلزم[3].

[٢٤٧] ومنها انقطاع الحج في هذا العام أيضاً.

[٢٤٨] ومنها وقوف العرب وقطاع الطريق بجميع الجهات القبلية والبحرية والشرقية والغربية والمنوفية والدقهلية وسائر النواحي، فمنعوا السبل وقطعوا طريق السُفّار، ونهبوا المارين من أبناء السبيل والتجار، وتسلطوا على القرى والفلاحين وأهل البلاد بالعري والخطف للمتاع

---

(١) سورة هود، آية: ١٠٢.
(٢) نكاية في الفرنسيين وتشديداً عليهم، ومساعدة للعثمانيين لما فيها من موافقة لمصالحهم.
(٣) أي البحر الأحمر.

والمواشي من البقر والغنم والجمال والحمير وإفساد المزارع ورعيها، حتى كان أهل البلاد لا يمكنهم الخروج بمواشيهم إلى المزارع للرعي وللسقي لترصد العرب لذلك، ووثب أهل القرى على بعضهم وتلبسوا بأنواع الشرور، واستعان بعضهم على بعض بالعرب فداخلوهم وتطاولوا عليهم وضربوا عليهم الضرائب، وتقوى القوي على الضعيف، وطمعت العرب في أهل البلاد وطالبوهم بالثارات والعوايد القديمة الكذابة، وآن وقت حصاد الزروع فاضطروا لمسالمتهم.

إفساد الفرنسيين في قرى مصر وبلدانها

ولما انقضت حروب الفرنسيس نزل عسكرهم إلى البلاد واحتجوا على الفلاحين بمصادقتهم للعرب، فنهبوهم وطالبوهم بالمغارم والكلف الشاقة، فإذا انتقلوا عنهم رجعت العرب على إثرهم فلا يمكن أهل البلاد منعهم، وهكذا استمر الحال.

[٢٤٩] ومنها أنه لما حضرت عساكر العثمانية وشاع أمر الصلح وخضوع الفرنساوية نزل طائفة من الفرنسيس إلى المنوفية، وطلبوا من أهلها كلفة لرحيلهم، فلما مروا بالمحلة الكبيرة تعصب أهلها واجتمعوا على قاضيها وخرجوا لحربهم، فأكمن الفرنسيس لهم وضربوهم بالمدافع والبنادق فمات من أهل البلد نيف وستمائة إنسان، وفيهم القاضي وغيره، ولم ينج منهم إلا من فر.

[٢٥٠] وكذلك أهل طندتا[١] عند حضور الفرنسيس إليهم صادف

---

(١) أي طنطا.

أنه وصل إليهم رجل من الجزارين المنتسبين للعثمانية من جهة الشرق بقصد زيارة سيدي أحمد البدوي وهو راكب على فرس وحوله نحو خمسة أنفار، وكان بعض الفرنسيس بداخل البلدة يقضون أشغالهم، فصاحت السوقية والبياعة عند رؤية ذلك الرجل بقولهم: نصر الله الإسلام، وهاجوا وماجوا وزغرطت النساء والصبيان، وسخروا بالفرنسيس وتراموا على رؤسهم وضربوهم وجرجروهم وطردوهم[1].

فتسحبوا من عندهم فغابوا ثلاثة أيام، ورجعوا إليهم بجمع من عسكرهم ومعهم آلات الحرب والمدافع فاحتاطوا بالبلدة وضربوا عليها مدفعاً، ثم هجموا على البلد ودخلوها، وبأيديهم السيوف مسلولة ويقدمهم طبلهم، وطلبوا خَدَمة الضريح الذين يقال لهم «أولاد الخادم» وهم ملتزمون البدلة وأكابرها ومتهمون بكثرة المال، وكانوا قبل ذلك بنحو ثلاثة أشهر قبضوا عليهم بإيعاز النصارى القبط وأخذوا منهم خمسة عشر ألف ريال فرانسي بحجة مسالمتهم للعرب، فلما وصلوا إلى دورهم طلبوهم وأخذوهم خارج البلد وقيدوهم، وأقاموا نحو خمسة أيام يأخذون كل يوم من البلد كُلفة وقدرها من الدراهم ستمائة ريال، ومن الأغنام والجواميس والأقوات شيء كثير، ثم ارتحلوا، وأخذوا المذكورين صحبتهم إلى منوف، وحبسوهم أياماً ثم نقولهم إلى الجيزة في مدة الحرب بمصر.

فلما انقضت تلك الأيام ومشت عساكرهم في البلاد، نزلت طائفة إلى طنطا وبصحبتهم الجماعة المذكورون فردوا عليهم إحدى وخمسين

---

(١) مساكين أولئك العامة الذين يفرحون بكل عثماني ظناً منهم أن الفرج قريب، وأن العثمانيين قادمون لتخليصهم من الفرنسيين.

ألف ريال فرانسي، وعلى أهل البلد مائة ألف، وأقاموا حول البلد محافظين عليهم، وأطلقوا بعضهم وحجزوا المسمى بمصطفى الخادم؛ لأنه صاحب الأكثر في الوظيفة والالتزام، وطالبوه بالمال، وفي كل وقت ينوعون عليه العقاب والعذاب والضرب حتى على كفوف يديه ورجليه، ويربطونه بالشمس في قوة الحر والوقت صيف، وهو رجل جسيم كبير الكرش فظهرت له نفاخات، ثم أخذوا خليفة المقام وذهبوا به إلى منوف ثم ردوه وولوه رئاسة جمع الدراهم المطلوبة من البلد، فوزعت على الدور والحوانيت والمعاصر وغير ذلك، واستمر الحال على ذلك إلى آخر العام، حتى أخذوا الطلايع الذهب التي على المقام، وكانت من ذهب خالص وزنها نحو خمسة آلاف مثقال[١].

[٢٥١] وأما المحلة الكبرى، فإنهم رجعوا عليها وجعلوا عليها نيفاً ومائة ألف ريال فرانسة وأخذوا في تحصليها وتوزيعها على الناس، وهجموا عليهم في الدور، وتتبعوا الأغنياء من أهلها، كل ذلك مع استمرار طلب الكلف الشاقة في كل يوم منها ومن طنطا والتعنت عليهم وتسلط طوائف الكشوفية التابعين لهم، الذين هم أقبح في الظلم من الفرنسيس بل ومن العرب، فإنهم معظم البلاء أيضاً؛ لأنهم يعرفون دسائس البلاد وخفاياتها، ويتتبعون أحوال أهلها ويتجسسون على عوراتهم ويُغْرون بهم.

[٢٥٢] ومنها أنه بعد انقضاء المحاربة، واستيلاء الفرنسيس على المخازن والغلال التي كان جمعها العثمانية من البلاد الشرقية وبعض

---

(١) يظهر بهذا كيف كانت تضيع أموال المسلمين عند الدجالين الذين يدّعون أنهم خدمة المقامات، وما ضعف الإسلام في مصر والشام إلا بسبب هؤلاء الأدعياء، قاتلهم الله.

البلاد الغربية وغيرها والشعير والتين، طلب الفرنساوية مثل ذلك وفرضوا على البلاد غلالاً وشعيراً وفولاً وتبناً وزادوا خيلاً وجمالاً، فوقع على كل إقليم ألف فرس وألف جمل سوى ما يدفع مصالحة على قبولها نحو ثمنها وأزيد، وكذلك التعنت في نقص الغلال وغربلتها وغير ذلك.

وكل ذلك بإرشاد النصارى القبطة؛ لأنهم هم الذين تقلدوا المناصب الجليلة وتقاسموا الأقاليم والتزموا لهم بجمع الأموال، ونزل كل كبير منهم إلى إقليم وأقام أبهة نفسه وتمثل في صورة أمير كبير ومعه عدة من العساكر الفرنساوية، وصحبته الكتبة والصيارف والأتباع والأجناد من الغز البطالة وغيرهم والخيام والخدم والفراشون والطباخون والحُجّاب، وتقاد بين يديه البغال والخيل المسومة، والمقدمون وبأيديهم الحراب المفضضة والمذهبة والأسلحة الكاملة، ويرسل إلى ولايات الأقاليم من جهة المستوفين من القبط أيضاً بمنزلة الكشاف ومعهم العسكر من الفرنسيس والطوائف والجاويشية والصيارف والمقدمون على الشرح المار، فينزلون على البلاد والقرى ويطلبون المال والكُلف الشاقة بالعسف ويضربون لهم أجلاً بالساعات، فإن مضت ولم يوفوهم المطلوب حل بهم ماحل من الحرق والنهب والسلب والسبي، وخصوصاً إذا فر مشايخ البلدة من خوفهم وعدم قدرتهم، وإلا قبضوا عليهم وضربوهم بالمقارع والكسارات على مفاصلهم وركبهم، وسحبوهم معهم في الحبال، وأذاقوهم العذاب والنكال، وخاف الباقون فصانعوهم وأتباعهم بالبراطيل[1] والرشوات.

[٢٥٣] وانضم إليهم الأسافل من القبط والأراذل من المنافقين،

---

(١) جمع برْطيل، وهو الرشوة، وانظر «المعجم الوسيط»: ب ر ط ل.

وتقربوا إليهم بما يستميلون به قلوبهم وما يستجلبونه لهم من المنافع والمظالم، وأجهدوا أنفسهم في التشفي من بعضهم وما يوجبه الحقد والتحاسد الكامن في قلوبهم.

شهر محرم سنة ١٢١٥

[٢٥٤] كان ابتداء المحرم يوم الأحد وفي حادي عشرينه أعادوا الشيخ أحمد العريشيّ[١] إلى القضاء كما كان وعملوا له موكباً، وركب معه أعيان الفرنسيس وصواري عساكرهم بطبولهم، وزمورهم وبجانبه قائمقام عبدالله منوا[٢] الذي كان صاري عسكر برشيد، فلم يزالوا معه حتى وصل إلى المحكمة.

مقتل كليبر

[٢٥٥] وفي ذلك اليوم وقعت نادرة غريبة وهو أن كليبر كبير

---

(١) الفقيه العلامة الشيخ أحمد اللّحام اليونسيّ ـ المعروف بالعريشي ـ الحنفيّ. حضر من بلدته خان يونس سنة ١١٧٨، وأكب على طلب العلم، وتولى رواق الشوام في الأزهر. وكان فصيحاً مستحضراً ومتضلعاً من المعقول والمنقول، وقصده الناس للإفتاء واعتمدوا أجوبته، وتداخل في القضايا واشتهر ذكره، وأثرى. ثم إن الفرنسيين لما دخلوا مصر وهرب القاضي العثمانيّ عينوه مكانه واحترموه، ثم خلعوه لمّا قتل كليبر لأن سليمان الحلبي كان ماكثاً في رواق الشوام فظنوه متواطئاً معهم ثم لما تبين لهم براءته أعادوه قاضياً. ثم لما دخل العثمانيون أتوا معهم بقاضيهم. توفي رحمه الله تعالى سنة ١٢١٨، انظر«عجائب الآثار»: ٣/ ٢٨٩.

(٢) كان منوا هذا قد ادعى الإسلام وتزوج بامرأة مسلمة من بلدة رشيد كما سيأتي بعد ذلك، إن شاء الله تعالى.

الفرنسيس كان مع كبير المهندسين من الفرنسيس يسيران بدهليز البستان الذي في داره فدخل عليه شخص وقصده، فأشار عليه بالرجوع، وقال له: مافيش، وكررها، فلم يرجع وأوهمه أنه صاحب حاجة، وهو ملهوف، فلما دنا منه مد إليه يده اليسار، فمد إليه الآخر يده، فقبض عليها وضربه بخنجر كان أعده في يده اليمنى ثلاث ضربات متوالية، فسقط إلى الأرض صارخاً، فصاح رفيقه، فذهب إليه وضربه أيضاً ضربات وهرب، فسمع العسكر صرخة المهندس، فدخلوا مسرعين فوجدوا كبيرهم مطروحاً وبه بعض الرمق، فانزعجوا وضربوا طبلهم وجردوا من كل ناحية يفتشون على القاتل، واجتمع العساكر ورؤساؤهم وهرعوا إلى الحصون والقلاع، وظنوا أنها من فعل أهل مصر، فاحتاطوا بالبلد وعمروا المدافع والبنبات وقالوا: لابد من قتل أهل مصر عن آخرهم، ووقعت هوجة عظيمة في الناس وشدة انزعاج، وأكثرهم لا يدري حقيقة الحال.

ولم يزالوا يفتشون على ذلك القاتل حتى وجدوه مرمياً في البستان المجاور لبيت صاري عسكر المعروف بغيط مصباح، بجانب حيط متهدم، فقبضوا عليه، فوجدوه شامياً، فأحضروه وسألوه عن اسمه وعمره وبلده، فوجدوه حلبياً واسمه سليمان[1]، فسألوه عن محل

---

(١) سليمان بن محمد أمين الحلبي، سوريّ الأصل. ولد ونشأ بحلب، وأقام ثلاث سنوات بالقاهرة يتعلم بالأزهر، وعاد إلى حلب فحج مرتين، وزار القدس وغزة، وقابل بعض قواد الجيش العثمانيّ فعاهدهم على أن يقتل كليبر، وحمل من علماء غزة رسائل إلى بعض علماء الأزهر يوصونهم بمساعدته، وقصد القاهرة، فقضى ٣١ يوماً يتعقب كليبر حتى ظفر به فطعنه بخنجر، وفرّ سليمان فقبض عليه، وحوكم أمام محكمة عسكرية فرنسية فقضت بإعدامه صلباً على المخازوق بعد أن تحرق يده اليمنى ثم يترك طعاماً للعقبان، ونفذ فيه ذلك يوم ١٧ يونيو سنة ١٨٠٠، واحتفظ الفرنسيون بالهيكل العظميّ من جسم سليمان فوضعوه في متحف حديقة الحيوانات والنباتات في باريس، =

مأواه فأخبرهم أنه يأوي ويبيت بالجامع الأزهر، فسألوه عن معارفه ورفقائه وهل أخبر أحداً بفعله؟ وهل شاركه أحد في رأيه؟ وأقره على فعله أو نهاه عن ذلك، وكم له بمصر، وعن صنعته وملته، فأخبرهم أنه على ملة النبي ﷺ[1]، وعمره أربعة وعشرون سنة، وصنعته كاتب عربي، وله في مصر خمسة أشهر، وأنه حضر إلى مصر سابقاً وسكن بها ثلاث سنوات، فسألوه: هل يعرف الوزير الأعظم، فأخبر أنه لا يعرفه، ولم يزالوا يسألونه عن مسائل ويدققون معه، وهو يخلط لهم ويغالطهم، فلما علموا منه المغالطة ضربوه وعاقبوه، حتى أقر لهم أنه حضر من غزة من نحو ثلاثين يوماً، وحضر على هجين في ستة أيام بقصد قتل صاري عسكر، وأن الذي أرسله أغاة الانكشارية، وذلك بعد رجوع العثمانية من مصر إلى الشام.

فسألوه: هل سارَّ أحداً من أهل مصر وأخبروه عن حقيقة حاله وكشف له سره، فأخبرهم أنه السيد محمد القدسي والسيد أحمد الوالي والشيخ عبدالله الغزي والسيد عبدالقادر الغزي، وأشاروا عليه أن يرجع عن هذا الفعل فإنه لا يمكنه ويموت، وأن أمس قال لهم: إن مراده يقضي غرضه في غد، ثم إنه ذهب إلى الجيزة واستخبر من نَوَاتيّة القنجة[2] التي لصاري عسكر حتى علم بنزوله وتعديته إلى مصر، فلَم يزل يراصده، حتى وصل إلى داره بالأزبكية وقضى غرضه.

ثم إنهم تركوا ما كانوا عليه من حرب البلد حين تبينت لهم حقيقة

= كما حفظوا جمجمته في غرفة التشريح بمدرسة الطب بباريس، وما زال الخنجر الذي طعن به كليبر محفوظاً في مدينة كركسون بفرنسا، انظر «الأعلام»: ٣/ ١٣٣.

(١) قال المحقق: لعلها على دين النبي ﷺ.

(٢) القنجة نوع من السُفن: انظر «تأصيل ماورد في تاريخ الجبرتي»: ١٧٢.
والنوتيّ: الملاح الذي يدير السفينة، جمعها نَواتيّ: انظر «المعجم الوسيط»: ن و ت.

الحال، وأمروا بإحضار الشيخ عبدالله الشرقاوي والشيخ أحمد العريشي وأعلموهم بذلك، وعوقوهم إلى نصف الليل، وألزموهم بإحضار الجماعة الذي ذكرهم، فركبوا وصحبتهم الأغا وحضروا إلى الجامع الأزهر، وطلبوا الجماعة فوجدوا ثلاثة، ولم يجدوا الرابع، فأخذهم الأغا وحبسهم ببيت قائمقام بالأزبكية.

ثم أنهم رتبوا صورة محاكمة من رؤسائهم ومديريهم، وعملوا صورة دعوى وشهود وتحاكموا فيما بينهم بعد إقامة الدعوى والتفحص فحكموا بقتل الثلاثة أنفار المذكورين، لكونهم لما سمعوا منه وأخبرهم ليلة أمس بأنه عازم على قصده صبح تاريخه كان الواجب عليهم أن يخبروا الفرنسيس بذلك، وكان من جملة من أخبر عنهم أنه عاشره واجتمع به مصطفى أفندي البرصلي الخطاط، فأحضروه أيضاً وسألوه ونجاه الله منهم لكونه لم يخبره بقصده، وأنه عاشره في مدة إقامته السابقة بمصر، وكان يتعلم منه تجويد الخط، فحكموا ببراءته وأطلقوا سبيله، وانقضت الحكومة وألفوا في ذلك كتاباً في حجم الثلاثة كراريس، ذكروا فيه صورة الواقعة وكيفيتها والفحص عن القاتل وإحضار الشهود وإقرارهم وترتيب المحكمة ومحاكمة القضاة وأسمائهم وتفصيل الدعوى، وبصموا[1] في ذلك جملة نسخ باللغات الثلاثة: العربية والتركية والفرنساوية[2]، ولما

---

(١) أي طبعوا.

(٢) أشاد الجبرتي في كتابه «عجائب الآثار» بطريقة إقامتهم المحاكمة، وقارن بينها وبين ما يحدث في مصر زمان محمد علي من الظلم والاعتداء فقال:

«وقبضوا عليه، وقرروه، ولم يعجلوا بقتله، وقتل من أخبر عنهم بمجرد الإقرار بعد أن عثروا عليه ووجدوا معه آلة القتل مضمخة بدم صاري عسكرهم وأميرهم، بل رتبوا حكومة ومحاكمة، وأحضروا القاتل وكرروا عيه السؤال والاستفهام مرة بالقول ومرة بالعقوبة، ثم أحضروا من أخبر عنهم وسألوهم على انفراد ومجتمعين، ثم نفذوا الحكومة بما اقتضاه التحكيم، وأطلقوا مصطفى أفندي البرصلي الخطاط حيث لم يلزمه حكم ولم يتوجه عليه =

فرغوا من ذلك اشتغلوا بأمر صاري عسكرهم المقتول، فنقلوه إلى بيت حسن كاشف جركس، الذي بالناصرية، وصنعوا له صندوقاً من رصاص، وربما أخرجوا حشوته وطلوه بالأدهان الماسكة لأجزائه ووضعوه في ذلك الصندوق، ولحموا عليه الغطاء بالرصاص مذوب.

وكانت قتلته يوم السبت حادي وعشرينه وقضوا أشغالهم في يومين، ونادوا ليلة الثالث في المدينة بالكنس والرش في جهات عينها حكام الشرطة، فلما أصبحوا وضعوا ذلك الصندوق في عربة، ووضعوا عليه برنيطته وسيفه والشيش الذي قتل به، وهو مغموس بدمه، وعملوا في العربة أربعة بيارق صغار في أركانها معمولة بشعر، وذهبوا إلى الأزبكية من طريق المدابغ، واجتمع أكابرهم وعساكرهم، وكذلك أحضروا أكابر المسلمين من المشايخ والوجقلية والتجار وخرجوا بموكب مُشَهَّر ركباناً ومشاة ويضربون بطبولهم بغير الطريقة المعتادة، والعسكر بأيديهم البنادق وهي منكسة إلى أسفل، وكل شخص منهم معصب ذراعه بخرقة حرير سوداء، ولبَّسوا ذلك الصندوق بالقطيفة السوداء وعليها قصب مخيش.

ثم انجرت جنازته، وضربوا لها مدافع وبيارق، فلما وصلوا إلى تل العقارب حيث القلعة التي بنوها هناك، وضربوا عدة مدافع، وكانوا

= قصاص... بخلاف ما رأينا بعد ذلك من أفعال أوباش العساكر الذين يدّعون الإسلام ويزعمون أنهم مجاهدون، وقتلهم الأنفس[وتجرئهم] على هدم البنية الأساسية بمجرد شهواتهم الحيوانية مما سيُتلى عليك بعضه بعد» : «عجائب الآثار» : الجزء الثالث.

والعجب من الشيخ الجبرتي أن يعجب بطريقة محاكمة هؤلاء، ونسي أن مئات الآلاف قد قتلهم الفرنسيون دون محاكمة ودون ذنب إلا أنهم دافعوا عن أرضهم ودينهم وعرضهم، وقد سبق عرض صور كثيرة لذلك الظلم الفضيع، لكن الرجل تأثر مما يحدث في زمان محمد علي من الظلم وقال ما قاله نسياناً منه لما حصل من الفرنسيس من الظلم العظيم دون محاكمة ولا قضاة.

أحضروا سليمان الحلبي القاتل والثلاثة أنفار المظلومين، فخوزقوا في ذلك الوقت الشهيد سليمان[1]، وضربوا رقاب الثلاثة، وحرقوا أبدانهم، ورفعوا رؤوسهم على خوازيق بجانبه، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم، ثم ساروا بالجنازة إلى أن وصلوا باب قصر العيني، فرفعوا الصندوق الرصاص ووضعوه على علوة من التراب، بوسط تخشيبة صنعوها، وأعدوها لذلك، وعملوا حولها درابزون وفوقه كساء أبيض، وزرعوا حوله أعواد سرو، ووقف عند بابها شخصان من العسكر ببنادقهما، ملازمين ليلاً ونهاراً يتناوبان الملازمة على الدوام، وانقضى أمره وذهب إلى لعنة الله[2].

[٢٥٦] وولوا عوضه قائمقام الذي يسمى عبدالله جاك مينو، وهو الذي كان متولياً على رشيد عند أول قدومهم، وكان أظهر أنه أسلم، وتسمى بعبدالله وتزوج بامرأة مسلمة غصباً من أهلها[3]، وولوا قائمقام عوضه بليار.

---

(١) أي قتلوه بالخازوق، وهو أصعب أنواع القتل، نسأل الله أن يتقبله شهيداً.

(٢) قال الأستاذ محمود شاكر:

«وما كاد كليبر يستقر على عرش خلافة نابليون أشهراً قلائل حتى أفاقت القاهرة من ذهولها، واستعدت لمقاومة الغزاة، وانفجرت الثورة فيها شهراً كاملاً . . . وارتكب كليبر في سبيل إخمادها أفظع ما يرتكبه قاطع طريق مجنون من الفظائع والجرائم، وضرب القاهرة بمدافعه فخرب الدور والقصور، والمساجد، والحمامات، والزوايا والقباب والأسوار حتى بقي ذلك كله خراباً متصلاً ـ كما يقول الجبرتيّ ـ . . . وأخمدت الثورة، وظن كليبر أن مصر كلها قد دانت له بالطاعة ولكنه لم يهنأ بظنه هذا شهرين حتى انقض عليه عُقاب كاسر هو المجاهد سليمان الحلبيّ فعاجله بطعنة خنجر في قلبه فخرّ وهو يصيح . . ما كان أذكى نابليون! لقد توقع هذا المصير فنجا بجلده هارباً . .»: «رسالة في الطريق إلى ثقافتنا»: ٩٤.

(٣) قال الأستاذ محمود شاكر:

«ثم خلف كليبر على عرش نابليون في مصر القائد الميكافلي الشقيّ الكذاب، المنافق الأرعن في يونيو ١٨٠٠ـ المحرم ١٢١٥ـ كان حاكماً لرشيد من قبل نابليون، فأصاخ سمعه لسخفاء الاستشراق ومخادعيه الكبار فقرّر ـ أو قرروا له ـ =

[٢٥٧] فلما أصبح ثاني يوم حضر قائمقام والأغا إلى الأزهر، ودخل إليه وشق في جهاته وأروقته بحضرة المشايخ، وفي ثاني يوم أيضاً حضر كبيرهم وقائمقام والأغا وطافوا به أيضاً، وأرادوا حفر أماكن للتفتيش على السلاح ونحو ذلك، ثم ذهبوا فشرع المجاورون به في نقل أمتعتهم منه ونقل كتبهم وإخلاء الأروقة، ونقلوا الكتب الموقوفة به إلى أماكن خارجة عن الجامع، وكتبوا أسماء المجاورين في ورقة وأمروهم أن لا يبيت عندهم غريب ولا يأووا إليهم آفاقيا[١] مطلقاً، وأخرجوا منه المجاورين من طائفة الترك، ثم إن الشيخ الشرقاويّ والمهدي والصاوي توجهوا في عصيرتها إلى عند كبير الفرنسيس منو، واستأذنوه في قفل الجامع وتسميره.

= أن يتقرب إلى شعوب دار الإسلام بإعلان إسلامه بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأنه أحب الإسلام وأهله ورغب فيهما، تاركاً لدين النصرانية والأديان الرديئة [كما جاء في نص وثيقة زواجه] ثم ظن أكذب الظن أنه من أسرة فرنسية عريقة فهو خليق بأن يصاهر أسرة من أهل رشيد، شريفة النسب من بيت النبوة، فأجمع أمره على محاولة التقدم إلى الشيخ الجارم عريق النسب أن يزوجه إحدى ابنتيه، فلم يكد الخبر ينمي إلى الشيخ حتى أسرع مبادراً فزوجهما رجلين من المسلمين قبل أن يتقدم هذا الخبيث العريق الخباثة ولكن وقع في حبائل مينو السيد محمد البواب ـ أحد أعيان رشيد ـ ولا ندري كيف كان ذلك، فزوجه ابنته المطلقة زبيدة في الخامس والعشرين من رمضان سنة ١٢١٣...»: المصدر السابق: ٩٥.

والعجيب أن هذا الأفاك لما طرد من مصر اصطحب زوجه وولده إلى فرنسا وتعرضت الزوجة هناك لمحنة شديدة عندما أصرّ قائد الحملة الفرنسية وابن الثورة العلمانية على تنصير ابنه وعارضت هي، واحتال عليها مينو بفتوى مستشرق زعم لها أن الأديان كلها واحد، وقرأ لابنة الحمامي الرشيدي آية من القرآن تثبت ذلك، والغريب أنه لم يقتنع لا هو ولا مينو للآية وإلا لما أصر على تنصير ابنه»: «ودخلت الخيل الأزهر»: ٤٠٨.

(١) وهو الذي يأتي من الآفاق.

[٢٥٨] فقال بعض القبطة الحاضرون للأشياخ: هذا لا يصح ولا يتفق، فحنق عليه الشيخ الشرقاويّ وقال: اكفونا شر دسائسكم ياقَبَطَة، وقصد المشايخ من ذلك منع الريبة بالكلية، فإن الأزهر لسعته لا يمكن الإحاطة به، فربما دس العدو من يبيت به واحتج بذلك على إنجاز غرضه ونيل مراده من المسلمين والفقهاء ولا يمكن الاحتراس من ذلك، فأذن كبير الفرنسيس بذلك لما فيه من موافقة غرضه باطناً، فلما أصبحوا أقفلوه وسمروا أبوابه من سائر الجهات.

شهر صفر

استهل بيوم الثلاثاء.

في أوائله سافر بعض الأعيان من المشايخ وغيرهم إلى بلاد الأرياف بعيالهم وحريمهم، وبعضهم بعث حريمه وأقام هو، فسافر الشيخ محمد الحريري وأخذ معه حريم الشيخ السحيمي وصهره الشيخ المهدي، فلما رآهم الناس عزم الكثير منهم على الرحلة واكتروا المراكب والجمال وغير ذلك، فلما أشيع ذلك كتب الفرنسيس أوراقاً ونادوا في الأسواق بعدم انتقال الناس ورجوع المسافرين، ومن لم يرجع بعد خمسة عشر يوماً نهبت داره، فرجع أكثر الناس ممن سافر وعزم على السفر إلا من أخذ له ورقة بالإذن من مشاهير الناس، أو احتج بعذر، كأن يكون في خدمة لهم، أو قَبْضِ خَراج من التزامه.

مضاعفة الغرامات على أهل مصر

[٢٥٩] وفيه قرروا فردة أخرى[1] وقدرها أربعة ملايين، وقدر المليون مائة وستة وثمانون ألف فرانسة، وكان الناس ماصدقوا قرب إتمام الفردة الأولى بعدما قاسوا من الشدائد مالا يوصف، ومات أكثرهم في الحبوس وتحت العقوبة، وهرب الكثير منهم وخرجوا على وجوههم في البلاد، فدهوا بهذه الداهية العظيمة، ففردوا على العقار والدور مائتي ألف فرانسة، وعلى الملتزمين مائة وستين ألفاً، وعلى التجار مائتي ألف، وعلى أرباب الحرف المستورين ستين ألفاً، وأسقطوا في نظير المنهوبات مائة ألف، وقسموا البلد ثمانية أخطاط، وجعلوا على كل خط خمسة وعشرين ألفاً، ووكلوا بقبض ذلك مشايخ الحارات، والأمير الساكن بتلك الخطة، فشرعوا في توزيع ذلك على الدور الساكنة، وقسموها أعلى وأوسط وأدنى، وجعلوا العالي ستين ريالاً، والأوسط أربعين، والأدنى عشرين، ويدفع المستأجر قدر مايدفع المالك، والدار التي يجدونها مغلقة وصاحبها غائب عنها يأخذون ما عليها من جيرانها.

[٢٦٠] وفي سادس عشرينه أفرجوا عن شيخ السادات، ونزل إلى بيته بعد أن غلق الذي قرر عليه، واستولوا على حصصه وإقطاعه وقطعوا مرتباته، وكذلك جهات حريمه والحصص الموقوفة على زاوية أجداده، وشرطوا عليه عدم الاجتماع بالناس، وأن لا يركب بغير إذن منهم، ويقتصد في أموره ومعاشه، ويقلل أتباعه.

---

(١) أي غرامة.

[٢٦١] فيه نادوا على الناس الخارجين من مصر من خوف الفردة[1] وغيرها بأن من لم يحضر بعد اثنين وثلاثين يوماً من وقت المناداة نهبت داره وأحيط بموجوده وكان من المذنبين، واشتد الأمر بالناس وضاقت صدورهم وتابعوا نهب الدور بأدنى شبهة، ولا شفيع تقبل شفاعته، أو متكلم تسمع كلمته.

[٢٦٢] واحتجب كبير الفرنسيس عن الناس وامتنع من مقابلة المسلمين، وكذلك قلده عظماؤهم، وانحرفت طباعهم عن المسلمين زيادة عن أول، واستوحشوا منهم.

[٢٦٣] ونزل بالرعية الذل والهوان، وتطاولت عليهم الفرنسيس بالإهانة حتى صاروا يأمرونهم بالقيام إليهم عند مرورهم، ثم شددوا في ذلك حتى كان إذا مرّ بعض عظمائهم بالشارع ولم يقم إليه بعض الناس رجعت اليه الأعوان وقبضوا عليه وأصعدوه إلى الحبس بالقلعة، وضربوه تأديباً وزجراً، واستمر عدة أيام ثم يطلقونه بشفاعة بعض الأعيان.

[٢٦٤] وفيه أنزلوا مصطفى باشا من الحبس وأهدوا إليه هدايا وأمتعة وأرسلوه إلى دمياط، فأقام بها أياماً وتوفي لرحمة الله تعالى، ولقد كان شجاعاً صارماً ورئيساً حازماً، اعترف له أعداؤه بإقدامه في وقعة أبي قير، وكاد يبيدهم لولا مادهمه من تزايد مددهم الكثير، ومع

---

(١) أي الغرامة.

ذلك فلم يقع في حبالتهم حتى أفنى الكثير من أبطالهم وحماتهم، صبر في ذلك اليوم على المجالدة والحرب وأدار راحات الهيجا بالطعن والضرب، ولم يأل جهداً في نكايتهم حتى أتاح له المقدور ماهو في اللوح، قبل أن يخلق، مقدر مسطور، فاستسلم للقضاء وقبل المحتم بالرضا، وتمثل بقول [من] قال في مثل هذه الحال:

ومن ظن ممن يلاقي الحروب

بأن لايصاب فقد ظن عجزاً

شهر ربيع الثاني

[٢٦٥] فيه اشتد أمر المطالبة بالمال، وعين لذلك رجل نصرانيّ قبطي يسمى شكر الله، فظهر منه للناس مالا يوصف، فكان يدخل إلى دار أي شخص كان لطلب المال وصحبته العساكر من الفرنسيس، وبأيديهم آلات الهدم فيأمرهم بهدم الدار إن لم يدفعوا له المقرر وقت تاريخه من غير تأخير وخصوصاً مافعله ببولاق، فإنه كان يحبس الرجال مع النساء ويُدَخِّن[1] عليهم بالقطن والمشاق وينوع عليهم العذاب ثم رجع إلى مصر يفعل ذلك.

[٢٦٦] وفيه أغلقوا جميع الوكايل والحانات على حين غفلة في يوم واحد، وختموا على جميعهم، ثم كانوا يفتحونهم وينهبون مافيهم من جميع البضايع والأقمشة والعطري والدخان واللبن وغير ذلك خاناً

---

(١) أي ويحرق القطن بجانبهم حتى يتأذوا بدخانه، لعنه الله.

بعد خان، فإذا فتحوا حاصلاً من الحواصل قدموا مافيه بما أحبوا بأبخس الأثمان، وحسبوا غرامته فإن بقي لهم شيء أخذوه من حاصل آخر جاره وإن زاد له شيء أحالوه على جاره كذلك، وهكذا حتى أخلوا جميع الوكايل والخانات من سائر البضائع على الرجال والجمال والحمير والبغال وأصحابها تنظر وقلوبهم تتقطع حسرة على نهب أموالهم، وإذا فتحوا حاصلاً ومخزناً دخله أمناؤهم ووكلاؤهم فيأخذون مايجدونه من الودايع الخفيفة وصرر الدراهم والدنانير ويخفونها، وصاحب المحل لايقدر على الدنو منه، ولايتكلم بل ربما هرب أو كان غائباً.

[٢٦٧] وفيه حرروا دفاتر العشور وأحصوا جميع الأشياء الجليلة والحقيرة ورتبوها بدفاتر، وجعلوها أقلاماً مفردة يتقلدها من يقوم بدفع مالها المحرر، وجعلوا جامع أزبك الذي بالأزبكية سوقاً لمزاد ذلك بكيفية يطول شرحها، وأقاموا على ذلك أياماً كثيرة يجتمعون لذلك في كل يوم، ويشترك الاثنان فأكثر في القلم الواحد وفي أقلام متعددة.

وفيه كثر الهدم في الدور وخصوصاً في دور الأمراء ومن فر من الناس، وكثر الاهتمام بتعمير القلاع وتحصينها وإنشاء قلاع في عدة جهات، وبنوا بها المخازن والمساكن وصهاريج الماء وحواصل الجخانات واستمر الحال على هذا النسق.

شهر جمادى الأولى

[٢٦٨] واستهل شهر جمادى الأولى سنة ١٢١٥، والأمور من أنواع

ماذكر تتضاعف والظلمات تتكاثف وشرعوا في هدم أخطاط الحسينية وخارج باب الفتوح وباب النصر من الحارات والدور والبيوت والمساكن والمساجد والحمامات والحوانيت والأضرحة، فكانوا إذا دهموا داراً وركبوها للهدم لايمكنون أهلها من نقل متاعهم ولا أخذ شيء من أنقاض دارهم، فينهبونها ويهدمونها وينقلون الأنقاض النافعة من الأخشاب والبلاط إلى حيث عماراتهم وأبنيتهم ومايقع يبيعون منه ما أحبوا بأبخس الأثمان ولوقود النيران، وما بقي من كسارات الخشب يجعله الفَعَلة حِزماً ويبيعونه على الناس بأغلى الأثمان لعدم حطب الوقود.

[٢٦٩] فانهدم للناس من الأملاك والعقار مالا يقدر قدره وذلك مع مطالبتهم بما تقرر على أملاكهم ودورهم من الفَرْدة[١] فيجتمع على الشخص النهب والهدم والمطالبة في آن واحد، وبعد أن يدفع ما على داره وما صدق أنه غلق ما عليه دهموه بالهدم، فيستغيث فلا يغاث، فترى الناس حيارى وسكارى.

ثم بعد ذلك كله يطالب بالمنكسر من الفردة، وذلك أنهم لمَّا قسموا الأخطاط كما تقدم، وتولى ذلك أمير الخطة وشيخ الحارة والكتبة والأعوان وزعوا ذلك برأيهم ومقتضى أغراضهم، فأول مايجتمعون بديوانهم يشرع الكتبة في كتابة التنابيه، وهي أوراق صغار باسم الشخص والقدر المقرر عليه وعلى عقاره بحسب اجتهادهم ورأيهم، وفي هامشها حق طريق المعين، ويعطون لكل واحد من أولئك القواسة عدة من تلك الأوراق، فقبل أن يفتح الإنسان عينيه لا يشعر إلا والمعين واقف على بابه وبيده ذلك التنبيه فيوعده حتى يسعى

(١) أي الغرامة.

على حاله فلا يجد بداً من دفع حق الطريق، فما هو إلا أن يفارقه حتى يأتيه آخر بتنبيه مثله، فيفعل معه مثل الأول وهكذا على عدد الساعات، فإن لم يجد المعين المطلوب وقف ذلك القواس على داره، ورفع سوطه وتطاول على حريمه أو خادمه بالسب والشتم، فيسعى الشخص جهده حتى يغلق ماتقرر عليه الحال بشفاعة ذي وجاهة أو نصراني، وما يظن أنه خلص إلا والطلب لاحقه أيضاً بمعين وتنبيه، فيقول: ماهذا؟ فيقال له: إن الفردة لم تكمل وبقي منها كذا وكذا؛ وجعلنا على العشرة خمسة أو ثلاثة أو ماسولت لهم أنفسهم، فيرى الشخص أنه لابد من ذلك، فما هو إلا أن خلص أيضاً إلا ويطالب بمنكسر آخر، وهكذا كان الحال ومثل ذلك ماقرر على الملتزمين، فكانت هذه الكسورات من أعظم الدواهي.

شهر جمادى الثاني

[٢٧٠] فيه قرروا على مشايخ البلاد مقررات يقومون بدفعها في كل سنة أعلى وأدنى وأوسط، الأعلى وهي البلدة التي مجتمع طينها[١] ألف فدان فأكثر خمسمائة ريال، والأوسط وهي ما كانت خمسمائة فدان فأزيد ثلاثمائة ريال، والأدنى مائة وخمسون، وجعلوا الشيخ سليمان الفيوميّ وكيلاً في ذلك، فيكون عبارة عن شيخ المشايخ وعليه

---

(١) أي مقدار مساحتها.

حساب ذلك، وهو من تحت يد الوكيل الفرنساويّ الذي يقال له بريزون، فلما شاع ذلك ضجت المشايخ لأن منهم من لايملك عشاه، فاتفقوا على توزيع ذلك على الأطيان، وزيدت في الخراج، واستملوا البلاد والكفور[1] من القبطة، فأملوها عليهم حتى الكفور التي أخرجت من مدة سنين، بل سموا أسماء من غير مسميات.

[٢٧١] وفيه شرعوا في ترتيب الديوان على نسق غير الأول من تسعة أنفار مُتَعَمِّمن أي علماء لاغير، وليس فيهم قبطي ولا وجقلي ولا شامي ولا غير ذلك، بل هو ديوان واحد مركب من تسعة أشخاص[2] وكاتبين مسلمين وكاتب فرنساوي وترجمانين كبير وصغير، والوكيل المسمى بلسانهم كمساري، ومعناه لفظ الوكيل، واسم ذلك الوكيل فوريه، ويقال له مدبر سياسة الأحكام الشرعية، وجعلوا لخدمة ذلك الديوان مقدماً وخمسة رجال قوامة، وفي خامس عشره شرعوا في جلسة ذلك الديوان.

[٢٧٢] وفي ثالث عشرينه أمروا بجمع الشحاذين أي السُؤّال، وينفق عليهم نظار الأوقاف.

[٢٧٣] وفيه أيضاً أمروا بضبط إيراد الأوقاف، وجمعوا المباشرين لذلك، وكذلك الرِّزَق الأحباسية والأطيان المرصدة على مصالح المساجد والزوايا، وأرسلوا بذلك إلى حكام البلاد والأقاليم.

---

(١) الكَفْر وحدة أصغر من القرية.

(٢) وهو الديوان الذي عُين فيه الجبرتي عضواً، كما في «مؤرخو مصر الإسلامية»: ١٧٩ نقلاً عن تاريخ الجبرتيّ: ٣/ ١٤٤.

[٢٧٤] وفي غايته[١] حضر رجل إلى الديوان يشكو ويستغيث بأن قُلّق الفرنسيس قبض على ولده وحبسه عند قايمقام، وهو رجل زيات، وسبب ذلك أن امرأة جاءت إليه تشتري سمناً، فقال لها: لم يكن عندي سمن، فكررت عليه السؤال حتى حنق منها، فقالت له: كأنك تخزنه حتى تبيعه على عسكر العثمانيّ، تريد بذلك السخرية، فقال لها: نعم رغماً على أنفك وأنف الفرنسيس، فنقل ذلك غلام كان حاضراً معهما حتى أنهوه إلى قايمقام، فأحضره وحبسه، ويقول أبوه: أخاف أن يقتلوه، فقال الوكيل: لا يقتل بمجرد هذا القول وكن مطمئناً؛ فإن الفرنسيس لايظلمون، فلما كان في اليوم الثاني قُتل ذلك الرجل ومعه أربعة أنفار لايُدرى ذنبهم، وذهبوا إلى رحمة الله سبحانه وتعالى.

شهر رجب

[٢٧٥] واستهلّ شهر رجب، والطلب والهدم والنهب والسلب مستمر ومتزايد، وأبرزوا أوامر أيضاً بتقرير مليون على الصنايع والحرف يقومون بدفعه كل سنة، وهو مائة ألف ريال فرانسة وستة وثمانون ألف فرانسة، ويكون الدفع على ثلاث مرات، كل أربعة أشهر يدفعون من المقرر الثلث، وهو اثنان وستون ألفاً، فتحيرت أفكار الناس بما دهاهم، واختلطت أذهانهم وزاد وسواسهم، وأشيع أن يعقوب القبطيّ هو الذي تكافل بقبض ذلك من المسلمين، ويقلد أمر

---

(١) أي نهاية جمادى الآخر.

ذلك إلى شكر الله وأقرانه من شياطين أقباط النصارى، واختلفت الروايات، فقيل: إن قصده توزيعها وأن يجعلها على العقارات والدور، وقيل: بل قصده توزيعها بحسب الفردة السابقة[1]، وذلك عشرها لأن الفردة كانت عشرة ملايين، فالذي دفع عشرة في الفردة السابقة، يدفع واحداً في فردة المليون، وذلك على الدوام والاستمرار، ثم قيدوا لذلك شخصاً فرنساوياً يقال له دناويل، وسموه مدبر الحرف، فجمع الحرف وفرض عليهم كل عشرة أربعة، فمن دفع عشرة في الفردة يدفع أربعة الآن فعورض في ذلك، فقال: هذا باعتبار من خرج من البلد ومن لم يدخل في هذه كالمشايخ والفقهاء والفارين فإن الذي جعل عليهم أضيف على من بقي، فاجتمعت التجار وتشاوروا فيما بينهم في شأن ذلك، فرأوا أن هذا شيء لاطاقة للناس به من وجوه: الأول: وقف الحال وكساد الصنائع وانقطاع الأسفار وقلة ذات اليد وذهاب البقية التي كانت في أيدي الناس في النوازل والفرد والدواهي المتتابعة.

الثاني: أن الموكلين بالفردة السابقة وزعوا على التجار والمتسببين وكل من كان له اسم في الدفتر من مدة سنين ثم ذهب مافي يده وافتقر حاله وخلا حانوته وكيسه، فألزموه بشِقْص[2] من ذلك وكلف به وكتب اسمه في دفتر الدافعين، ويلزمه ما يلزمهم، وليس ذلك في الإمكان.

الثالث: أن الحرفة التي دفعت مثلاً ثلاثين ألفاً يلزمها ثلاثة آلاف في السنة على الرأي الأول وعلى الثاني اثني عشر ألفاً، وقد قل عددهم، وأغلقت أكثر حوانيتهم لفقرهم وهجاجهم، وخصوصاً إذ

---

(١) أي الغرامة السابقة.

(٢) قال المحقق: الشقص: السهم والنصيب، والقليل من الكثير(القاموس).

ألزموا بذلك المليون يفر الباقون ويبقى من لايمكنه الفرار، ولا قدرة للبعض بما يلزم الكل.

واستهل شهر شعبان

[٢٧٦] فيه حضر التجار إلى الديوان وذكروا أمر المليون، وأن قصدهم يجعلونه موزعاً على الرؤوس ولايمكن غير ذلك، وطال الكلام والبحث في خصوص ذلك، ثم انحط الأمر على تفويض ذلك لرأي العقلاء من المسلمين، وأنهم يجتمعون ويدبرون رأيهم في ذلك، بشرط أن لايتداخل معهم في هذا الأمر نصراني قبطي، وهم الضامنون لتحصيله بشرط عدم وقوع الهرج في الناس والجور، وأن لايجعلوا شيئاً على النساء ولا على الصبيان ولا الفقهاء ولا الخدم ولا فقراء الرعية، ويراعى في ذلك حال الناس وقدرتهم وصناعتهم ومكاسبهم، ثم ترجوا عندهم في أن يضيفوا إلى المدينة بولاق ومصر القديمة، فلم يجابوا لذلك وجعلوهما مستقلين، وقدروا عليهما قدراً آخر على ماقرروه على مصر.

وفيه لخصوا عرضاً خطاباً لكبير الفرنسيس، ولطفوا فيه العبارات فأجابوهم إلى طلْبتهم ماعدا بولاق ومصر القديمة، وأخرجوا من أرباب الحرف الصيارَف والكيالين والقبانية، وقرروا عليهم بمفردهم ستين ألف فرانسة خلاف مايجيء عليهم من المليون أيضاً، يقومون بدفعها في كل سنة، ووجه تخصيص الثلاث حرف دون غيرها أن صنعتهم من غير رأس مال.

[٢٧٧] وفيه أرسل كبير الفرنسيس يسأل المشايخ عن الذين يدورون بالأسواق ويكشفون عوراتهم، ويصيحون ويصرخون ويدعون الولاية وتعتقدهم العامة، ولا يصلون صلاة المسلمين، ولايصومون، أهذا جائز في الإسلام أو حرام في الشريعة؟ فأجابوه بأن ذلك حرام ومخالف لديننا وشرعنا وسنتنا، فشكرهم على ذلك وأمر الحكام بمنعهم والقبض على من يرونه بهذا الوصف، فإن كان مجنوناً رُبط في المارستان، أو غير مجنون فإما أن يرجع عن حالته أو يخرج من البلد.

[٢٧٨] وفيه أرسل رئيس الأطباء الفرنساوي نسخاً من رسالة ألفها في علاج الجدريّ لأرباب الديوان لكل واحد نسخة على سبيل المحبة - بزعمه - والهدية ليتناقلها الناس ويستعملوا ماأشار إليه فيها من العلاجات لهذا الداء العضال، فقبلوا منه ذلك وأرسلوا له جواباً يشكرون همته في ذلك.

وفيه كمل المكان الذي أنشأوه بالأزبكية عند المكان المعروف بـ«باب الهوى»، وذلك المكان الذي أنشأوه يسمى في لغتهم بـ«الكُمُدي»، وهو عبارة عن محل يجتمعون به كل عشر ليال ليلةً يتفرجون به على ملاعيب يعملونها قدر أربع ساعات من الليل، وذلك بلغتهم، ولايدخل أحد إليه إلا بورقة معلومة وهيئة مخصوصه[1].

[٢٧٩] وفي سادس عشره ذكروا في الديوان أن صاري عسكر أمر وكيل الديوان أنه يذكر مشايخ الديوان أن قصده ضبط وإحصاء من يموت ومن يولد من المسلمين، وأخبرهم أن بونابارته كان في عزمه ذلك، وأن يقيد له من يتصدى لذلك ويدبره ويرتبه ويعمل له جامكية[2] وافرة فلم

---

(١) قال المحقق: يشير بذلك إلى إنشاء المسرح.

(٢) أي راتباً.

يتم مراده، والآن يريد تتميم ذلك ويطلب منهم تدبير ذلك كيف يكون، وذكر لهم أن في ذلك حكماً وفوائد، منها ضبط الأنساب ومعرفة الأعمار، فقال بعض العارفين والحاضرين: ويُعلم من ذلك انقضاء عدة الأزواج أيضاً، ثم اتفق الرأي على أن يعلموا بذلك القلقات المقيدين بالحارات والأخطاط وهم يقيدون على مشايخ الحارات بالاستقصاء عن ذلك من خدمة الموتى والمغسلين والنساء القوابل وما في معنى ذلك، ثم ذكر الوكيل أن صاري عسكر ولد له مولود، فينبغي ويلزم أن تكتبوا له تهنئة بذلك المولود الذي ولد له من المرأة المسلمة الرشيدية وجواباً عن هذا الرأي، فكتبوا ذلك في ورقة كبيرة[1].

شهر شوال

عمل المحجر الصحي

[٢٨٠] فيه بدأ أمر الطاعون فانزعج الفرنساوية من ذلك وجردوا مجالسهم من الفرش وكنسوها وغسلوها وشرعوا في عمل كونتينات ومحافظات.

[٢٨١] وفي ثامنه قال وكيل الديوان للمشايخ: إن حضرة صاري عسكر بعث إلي كتاباً معناه إيضاح ما يتعلق بأمر الكرنتينة، ويرى رأيكم في ذلك، وهل توافقون على رأي الفرنساوية أم تخالفون؛ فقالوا: حتى ننظر ماهو المقصود؟ فقال حضرة أرباب الديوان: يجب عليهم أن يعملوا الطريقة التي تكون سبباً لانقطاع هذه العلة، فإننا نبغي لهم

---

(١) الظاهر ـ والله أعلم ـ أن مرادهم من الإحصاء معرفة قوة المسلمين وعددهم حتى يتمكنوا من السيطرة الكلية عليهم.

ولغيرهم الخير، وإن أجابوا فذاك وإلا فيلزمون ولو قهراً، وربما استعملنا القصاص ولو بالموت عند المخالفة، ومن الذي يتغافل عما يكون سبباً لقطع هذا الداء، فإن رأينا قد انعقد على ذلك، ويجب أن يتفق معنا أرباب الديوان لأن حفظ الصحة واجب، والذي نرى أن كثيراً من الناس ولاسيما المتشرعون يستعملون الطبيب عند المرض رعاية لحفظ الصحة، وما نحن فيه من ذلك.

ونذكر لكم أن بلاد الغرب قد اعتمدوا فعل الكرنتينة الآن، فعلماء القاهرة أولى بأن لايتأخروا عن استعمال الوسائط؛ إذ قد ربطت الأسباب بالمسببات فقيل له: وما الذي تأمرون به أن يُفعْلَ؟ فقال: هو الحذر لاغير، وهو الغاية والنتيجة، وهو أنه إذا دخل الطاعون بيتاً، لايدخل فيه أحد ولايخرج منه أحد، مع مايترتب على ذلك من القوانين المختصة به، وخدمة المريض وعلاجه، وسيوضح لكم ذلك فيما بعد، يعني بعد أن تذعنوا للطاعة وعدم المخالفة، وطال البحث والمناقشة في ذلك بين أرباب الديوان والوكيل، وانفض المجلس على أن الوكيل سيفاوض صاري عسكر في ذلك ثم يدبرون أمراً وطريقة يكون فيها الراحة للمسلمين والفرنسيس، فإن هذا فيه مشقة على المسلمين لعدم ألفتهم لهذه الأمور.

وفي يوم الخميس سادس عشرينه أرسل كبير الفرنسيس وطلب رؤساء الديوان والتجار إلى منزله فأعلمهم أنه مسافر إلى بحري[1] وتارك بمصر

---

(١) أي إلى الوجه البحريّ، وذلك أن العثمانيين والإنجليز علموا بموت كليبر وقد خرج نابليون ومعه أمهر القواد الفرنسيين فتيقنوا من ضعف الفرنسيين، فأنزلوا بأبي قير ثلاثين ألف مقاتل في أوائل سنة١٨٠١، فسار القائد منو لمحاربتهم فانهزم أمامهم في ٢١ مارس، ورجع إلى الإسكندرية ليتحصن بها، وظل فيها =

قايمقام بليار وجملة من العساكر والكتبة والمهندسين وأوصاهم بأن يكون نظرهم على البلد، وركب من فوره مسافراً من غير عَوْد ولا رجعة.

وفي عشرينه وقع بمجلس الديوان بين الوكيل والمشايخ مفاوضة ومناقشة، وذلك أنه لما أشيع خبر ورود المراكب إلى أبي قير[1] قلت الغلال وارتفعت أثمانها، فتفاوضوا في شأن ذلك وأنه لابد من اعتناء الحكام بزجر الباعة، وطواف المحتسب وشيخ البلد.

قال بعض الحاضرين: العقلاء لايسعون في الفساد وإذا تحركت فتنة لزموا بيوتهم.

فقال الوكيل: ينبغي للعقلاء ولأمثالكم نصيحة المفسدين، فإن البلاء يعم المفسد وغيره.

فقال بعضهم: هذا ليس بجيد، بل العقاب لايكون إلا على المذنب، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[2].

وقال آخر من المجلس: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[3].

فقال الوكيل: المفسدون فيما تقدم أهاجوا الفتنة فعمت العقوبة، والمدافع والبُنبات لاعقل لها حتى تميز بين المفسد والمصلح فإنها لاتقرأ القرآن.

وقال آخر: المصلح نيته تخلصه.

= رافضاً التسليم حتى استسلم قائده على القاهرة بليار كما سيطالع القارىء الكريم ذلك قريباً، إن شاء الله تعالى، وانظر «تاريخ الدولة العلية»: ٣٧٨.

(١) أي مراكب العثمانيين الواصلة إلى ميناء أبي قير المصريّ.

(٢) سورة المدثر: آية ٣٨.

(٣) سورة فاطر: آية ١٨.

فقال الوكيل: إن المصلح من يشمل صلاحه الرعية؛ فإن صلاحه في حد ذاته يخصه فقط، والثاني أكثر نفعاً.

وطال البحث والمناقشة في نحو ذلك.

[٢٨٢] وفيه نادوا في الأسواق بالأمان وعدم الانزعاج من أمر الكرنتيلة، وأن من مات لاتحرق إلاثيابه التي على بدنه لاغير، وكان أشيع في الناس أن من مات بدار أحرقوا تلك الدار، وقصدهم عمل الكرنتيلة على البلد بتمامها، فحصل من هذا المشاع في الناس كرب عظيم ووهم جسيم، فنودي بذلك ليسكن روع الناس.

شهر ذي القعدة

وفي سادسه توفي محمد أغا مستحفظان مطعوناً[١]... ولم يقلدوا عوضه أحداً بل أذنوا لعبد العال أن يركب عوضاً عنه، وذلك بمعونة نصر الله النصراني ترجمان قائمقام مصر، فاستقر عبد العال المذكور أغاة مستحفظان ومحتسباً، فكان ذلك من جملة النوادر والعبر؛ فإن عبد العال هذا كان من أسافل الناس العامة وأراذلهم، وكان أجيراً لبعض نصارى الشوام يخدمه، ثم توسط لمصطفى أغا السابق بسبب معرفته للنصارى التراجمين[٢] حتى تقدم بواسطتة وقلدوه الأغوية فعمله كتخداه، ومشيره، فلما تولى محمد أغا تقيد معه كما

---

(١) أي بمرض الطاعون.

(٢) قال المحقق: يريد: المترجمين.

كان مع مصطفى أغا، ولكن دون الحالة التي كان عليها مع ذلك لصلاحية محمد أغا عن ذلك المقتول، فلما توفي في هذا الوقت نزل لعبد العال الأمر[١] لاشتغال الوقت بما هو الأهم من انفتاح الحرب والطاعون وغير ذلك[٢].

[٢٨٣] وفي يوم الثلاثاء تاسعه أشيع في الناس أن حضرة الصدر الأعظم[٣] تحرك للقدوم إلى جهة الديار المصرية، وأن بعض العساكر الإسلامية وصلوا إلى العريش، ووصلت الأخبار إلى الفرنسيس، فداخلهم الوهم والخوف ووقع بهم الإرهاب والانزعاج، ولما كان عشاء تلك الليلة أرسلوا خلف مشايخ الديوان، فلما تكامل حضورهم حضر فورية وكيل الديوان وصحبته آخر من الفرنسيس من طرف قايمقام، فتكلم فورية كلاماً كثيراً ليزيل عنهم الوهم ويؤانسهم بزخرف القول كقوله إنه يحب المسلمين، ويميل بطبعه إليهم وخصوصاً العلماء وأهل الفضائل، ويفرح لفرحهم ويغم لغمهم، ولايحب إلا الخير، وسياسة الأحكام تقتضي بعض الأمور المخالفة للمزاج وأن صاري عسكر قبل ذهابه رسم لهم رسوماً وأمرهم بإجرائها والمشي عليها في أوقاتها، وأنه عند سفره قصد أن يعوق المشائخ وأعيان الناس ويتركهم في الترسيم رهينة عن المسلمين، فلما ظهر له وتحقق أن الذين وردوا إلى ابي قير ليسوا من المسلمين، وإنما هم إنكليزية ونابلطية وأعداء

---

(١) أي تولى محافظاً للقاهرة، وهذا معنى أغا مستحفظان.

(٢) أي لم يكن عند الفرنسيين وقت للتدقيق فيمن يتولى هذا المنصب فولوه عبد العال وإن لم يكن كفؤاً، وعبد العال هذا خرج مع الفرنسيين لما خرجوا وتنصر في فرنسا، وقيل إنه أسلم على فراش الموت، انظر فقرة [٣٢٢].

(٣) أي رئيس الوزراء العثماني.

للفرنساوية وللمسلمين أيضاً وليسوا من ملتهم حتى يخشى من ميلهم إليهم، أو يتعصبون من أجلهم، والآن بلغنا أن أورضي المسلمين تحرك إلى هذا الطرف فلزم الأمر لتعويق بعض الأعيان، وذلك من قوانين الحروب عندنا، ولا يكون عندكم تكدر ولا وهم بسبب ذلك، فليس إلا الإعزاز والإكرام أينما كنتم والوكيل يكون نظُره دائماً معهم، ولا يغفل عن تعليل مزاجهم في كل وقت.

انتهى الكلام وانقضى المجلس على تعويق أربعة أشخاص من المشايخ وهم الشيخ الشرقاوي والشيخ المهدي والشيخ الصاوي والشيخ الفيومي، فأصعدوهم إلى القلعة في الرابعة من الليل، وأجلسوهم بمسجد سيدى ساريه ونقلوا إلى مكانهم الشيخ السادات، فاستمر معهم في المسجد، وأطلقوا لكل شيخ خادماً يطلع إليه وينزل ليقضي له أشغاله وما يحتاج إليه من منزله، والذي يريد من أصحابهم وأحبابهم زيارتهم أخذ له ورقة بالإذن من قائمقام ويطلع بها فلايمنع.

وكذلك أصعدوا إبراهيم أفندي كاتب البهار وأحمد بن محمود محرم وحسين قرا كاتب وغيرهم، وأمروا المشايخ والذين لم يحبسوا بتقيدهم[١] ونظرهم إلى البلد والعامة، وأنهم يترددون على بليار قائمقام، ويعلمونه بالأمور التي ينشأ عنها الشرور والفتن، وأهمل ديوان المليون والمطالبة بثلثه، وكذلك كسرة الفردة، ونَفَّس الله عن الناس، وكذلك تسوهل في أمر الكرنتيلة وإجازة الأموات وعدم الكشف عليهم، وتصديق الناس بما يخبرونه به في مرض من يموت؛ وذلك لكثرة أشغالهم وحركاتهم وتحصنهم ونقل متاعهم وصناديقهم وفرشهم وذخائرهم إلى القلعة الكبيرة على الجمال والحمير ليلاً ونهاراً،

---

(١) أي بتقيدهم بالأوامر الفرنساوية.

والطاعون متعلق فيهم ويموت منهم العدة في كل يوم.

وفي حادي عشره أفرجوا عن الشيخ سليمان الفيوميّ وأنزلوه من القلعة ليكون مع من لم يحبس، وأمرهم الوكيل بالتقيد والحضور إلى الديوان على عاداتهم، ولايهملونه، فكانوا يحضرون ويجلسون حصة يتحدثون مع بعضهم ثم ينصرفون إلى منازلهم، وكذلك أمروا القاضي بأن يحضر ويجلس من غير سابقة له بذلك، وذلك حفظاً للناموس[1] لاغير.

[٢٨٤] وفيه سُمع ونقل عن بعض الفرنسيس أنه وقع الحرب بين الفرنساوية والإنكليزية وكانت الهزيمة على الفرنسيس، وقتل منهم نحو ألفين وسبعمائة، وانحازوا إلى داخل الإسكندرية وتحصنوا بها، وقويت القراين الدالة على صحة هذه الأخبار، وظهرت لوايح الخذلان في وجوه الفرنسيس مع شدة تجلدهم وكتمان أمرهم وتنميق أكاذيبهم.

شهر ذي الحجة الحرام

[٢٨٥] وفيه أشيع أن العساكر العثمانية والإنكليز ملكوا ثغر رشيد وأبراجها، وحاربوا من كان بها من الفرنسيس حتى قتل من قتل وأسر من أسر وهرب الباقون، ولله الحمد.

[٢٨٦] وفيه - أي في غرة الحجة - طُعن[2] مصطفى أغا أبطال، فلما ظهر ذلك رفعوه بطريقة مهانة وأنزلوه إلى الكرنتيلة بباب الغرب

(١) أي لقانون إقامة الديوان.

(٢) أي أصابه الطاعون، نسأل الله السلامة والعافية.

والقوه بها، ثم تكلم في شأنه أرباب الديوان وتَشفعوا فأنزلوه إلى داره فمات بها، وكذلك وقع لحسين باشا قرا إبراهيم التاجر في ثاني يوم، وفي كل يوم يموت من الفرنسيس الثلاثون والأربعون وينزلون بهم من كرنتيلة القلعة على أخشاب مثل الأبواب كل ثلاثة أو أربعة سوا، يحملهم الحمالون وأمامهم اثنان من الفرنسيس يمنعون الناس ويباعدونهم عن القرب منهم، إلى أن يخرجوا بهم من باب القرافة، فيلقوهم في حفرة عميقة قد أعدها الحفارون، ويهيلون عليهم التراب حتى يعلوهم ثم يلقون صفاً آخر ويغطونهم بالتراب وهكذا حتى تمتلىء الحفرة ويبقى بينها وبين الأرض نحو الذراع فيكبسونها بالتراب والأحجار، ويحفرون أيضاً غيرها كذلك فيكون في الحفرة الواحدة اثني عشر وستة عشر فوق بعضهم البعض وبينهم التراب، ويرمونهم بثيابهم وأغطيتهم.

[٢٨٧] وفي يوم الخميس سادس الحجة حضر استوف الخازندار وجرجس الجوهري ومن معهم من القبطة وغيرهم ماعدا الفرنسيس الذين ذهبوا معهم، فأرسلت أوراق بحضور مشايخ الديوان والتجار والأعيان من الغد، فلما كان في صبحها حصلت الجمعية، وحضر الخزندار والوكيل وعبد العال والحاج عبد الله التاودي ـ شيخ الغورية ـ والحاج عمر الملطيليّ وكليمان الترجمان فتكلّم استوف وترجم عنه الترجمان بقوله: إن صاري عسكر الكبير «منو» يقريكم السلام ويثني عليكم كثيراً وسينجلي هذا الحادث ـ إن شاء الله تعالى ـ ويقدم في خير، ويرى أهل مصر مايسرهم، وقد هلك من الإنكليز خلق كثير، وباقيهم أكثرهم مرمودين الأعين وبمرض الزحير[١]، وجاءت طائفة

---

(١) أي الدوسنتاريا.

منهم إلى الفرنساوية وانضموا إليهم من جوعهم وعطشهم، ولتعلموا أن الفرنساوية لم يسلموا في رشيد قهراً عنهم، وكذلك أخلينا دمياط لأجل أن يطمعوا ويدخلوا إلى البلاد وتتفرق عساكرهم فنتمكن عند ذلك من استئصالهم، ونخبركم أنه قد وردت إلى إسكندرية مركب من فرانسة وأخبرت أن الصلح قد تم مع كامل القرانات[1] ماعدا الإنكليز فإنهم لم يدخلوا في الصلح وقصدهم عدم سكون الحروب والفتن ليستولوا على أموال الناس.

واعلموا أن المشايخ المحبوسين وغيرهم بالقلعة لا بأس عليهم، وإنما القصد من تعويقهم وحبسهم دفع الفتن والخوف عليهم، وشريعة الفرنساوية اقتضت ذلك ولايمكن مخالفتها، ومخالفتها كمخالفة القرآن العظيم عندكم، وقد بلغنا أن العثماني أرسل إلى عسكره بالكف عن الفرنساوية والرجوع عن قتالهم، فخالف عليه بعض السفهاء منهم، وخرجوا عن طاعته وأقاموا الحرب بدون إذنه، فأجابه بعض الحاضرين من المنافقين بقوله: إن القصد حصول الراحة والصلح، والفرنساوية عندنا أحسن حالاً من الإنكليز، لأننا قد عرفنا أخلاقهم، ثم قال الخازندار: إن الفرنساوية لايحبون الكذب ولا يعهد عليهم، فلازم أن تصدقوا كل ماأخبروكم به، فقال بعض الحاضرين إنما يكذب الحشاشون، والفرنساوية لا يأكلون الحشيش.

ثم قال الخازندار: إن وقع من أهل مصر فشل أو فساد عوقبوا أكثر من عام أول، واعلموا أن الفرنساوية لايتركون الديار المصرية ولا

---

(١) أي الملوك النصارى الذين لايصلون إلى رتبة الأباطرة: انظر «تأصيل ماورد في تاريخ الجبرتي»: ١٦٦.

يخرجون منها أبداً، لأنها صارت بلادهم وداخلة في حكمهم[1]، وعلى الفرض والتقدير إذا غلبوا على مصر فإنهم يخرجون منها إلى الصعيد ثم يرجعون إليها ثانياً، ولايخطر في بالكم قلة عساكرهم فإنهم على قلب رجل واحد، وإذا اجتمعوا كانوا كثيراً، وطال الكلام في مثل هذه التمويهات والأكاذيب والخرافات وأجوبة الحاضرين بحسب المقتضيات.

ثم قال الخازندار: القصد منكم معاونة الفرنساوية ومساعدتهم وغلاقة نصف المليون، ونشفع بعد ذلك عند صاري عسكر في فوات النصف الثاني حكم ما عرفكم قائمقام بليار، فاجتهدوا في غلاقه من الأغنياء واتركوا الفقراء، ولكن ينبغي التعجيل فإن الأمر لازم لأجل نفقة العسكر ثم قال لهم: ينبغي أن تكتبوا جواباً لصاري عسكر تعرفوه فيه عن راحة أهل البلد وسكون الحال وقيامكم بوظائفكم، وهو إن شاء الله يحضر إليكم عن قريب، وانفض المجلس وكتب الجواب، وأرسل.

[٢٨٨] وفي ثامن عشرينه، وصلت البشائر بوصول الصدر الأعظم والملاذ الأفخم وحلول ركابه ببلبيس، وذلك يوم الجمعة رابع عشرينه، فأقبل السرور وانشرحت الصدور.

[٢٨٩] وانقضت هذه السنة بحوادثها التي لايمكن ضبط بعض كلياتها فضلاً عن جزئياتها، فمنها توالي الهدم والخراب وتغيير المعالم وتنويع المظالم، وعم الخراب خطة الحسينية خارج باب الفتوح والخروبي فهدموا تلك الجهات والأخطاط والحارات والدروب ومافي ضمن ذلك من الخانات والوكايل والرباع والدور والحمامات

---

(١) الحمد لله الذي كذبه وخذله.

والمساجد والمزارات والزوايا والتكايا، وبقي سور المدينة الأصلي ظاهراً مكشوفاً فعمروه ورَمّوا[1] ماتشعث منه، وأوصلوا بعضه ببعض بالبناء ورفعوا بنيانه، وركزوا عند كل باب عدة من العسكر مقيمين وملازمين ليلاً ونهاراً.

ومنها توالي خراب بركة الفيل بأسرها ودورها وقصورها وبيوت الأمراء التي كانت بها حتى صارت كلها تلالاً وخرايب بحيث لايتصور الرائي إعادتها ـ إلا أن يشاء الله ـ وأخذوا أخشابها لعمارة القلاع ووقود النيران والبيع، وكذلك ماكان بها من الرصاص والحديد والرخام.

[٢٩٠] وأخربوا أيضاً جامع أزبك العظيم وجعلوه سوقاً لبيع أقلام المكوس[2]، وأخربوا أيضاً جامع الرويعي، وجعلوه خمارة، وجامع عثمان كَتْخُدا القزدغلي، وجامع خير بك حديد، وجامع البنهاوي والطرطوشي والعدوي، وجامع عبد الرحمن كَتْخُدا المقابل لباب الفتوح هدموه حتى لم يبق له أثر ألبتة.

الفجور الحادث بقدوم الفرنسيين

[٢٩١] ومنها تبرج النساء وخروج غالبهن عن الحشمة والحياء، وهو أنه لما حضر الفرنسيس إلى مصر ومع البعض منهم نساؤهم كانوا يمشون في الشوارع مع نسائهم وهن حاسرات الوجوه، لابسات

---

(١) قال المحقق: أي أصلحوا.

(٢) أي الضرائب المخصصة.

الفستانات والمناديل الحرير الملونة، ويسدلن على مناكبهن الطِّرَح الكشميريّ والمزركشات المصنوعة، ويركبن الخيول والحمير ويسقنها سوقاً عنيفاً مع الضحك والقهقهة، ومداعبة المكارية معهم وحرافيش العامة، فمالت إليهم نفوس أهل الأهواء من النساء الأسافل والفواحش؛ فتداخلن مع الفرنسيس لخضوعهم للنساء وبذل الأموال لهن.

وكان ذلك التداخل أولاً مع بعض احتشام وخشية عار ومبالغة في إخفائه؛ فلما وقعت الفتنة الأخيرة بمصر وحاربت الفرنسيس بولاق، وفتكوا في أهلها، وغنموا أموالها، وأخذوا ما استحسنوه من النساء والبنات؛ صرن مأسورات عندهن، فزينوهن بزي نسائهم وأجروهن على طريقتهن في كامل الأحوال، فخلع أكثرهن نقاب الحياء بالكلية، وتداخل مع أولئك المأسورات غيرهن من النساء الفواجر، حتى كثرت الفواحش من النساء؛ مع ماحل بالمسلمين من الذل والهوان وسلب الأموال، واجتماع خيرات الدنيا في حوز الفرنسيس، وشدة رغبتهم في النساء، وخضوعهم لهن وموافقة مرادهن وعدم مخالفة هواهن، ولو شتمنه أوضربنه بتاسومقها[1] على قفاه، ولو كانت هي في غاية القبح؛ فطرحن الحشمة والوقار والمبالاة والاعتبار، واستملن نظراءهن واختلسن عقولهن لميل النفوس إلى الشهوات وخصوصاً عقول القاصرات، وخطب الكثير منهم بنات الأعيان وتزوجوهن رغبة في سلطانهم ونوالهم، فيُظهر حالة العقد الإسلام وينطق بالشهادتين؛ لأنه ليس له عقيدة يخشى فسادها.

[٢٩٢] وصار مع حكام الأخطاط منهم النساء المسلمات متزيات

---

(١) أي بمداسها، والعياذ بالله من هذا الذل بدعوى التقدم.

بزيهم، ومشوا معهم في الأخطاط للنظر في أمور الرعية والأحكام العادية والأمر والنهي والمناداة، وتمشي المرأة بنفسها أو معها بعض أترابها وأضيافها على مثل شكلها، وأمامها القواسة والخدم وبأيديهم العصي يفرجون لهن الناس، ويوسعون من أجل مرورهن الطرقات مثل مايمر الحاكم ويأمرن وينهين في الأحكام.

[٢٩٣] ولما وفى النيل ودخل الماء في الخليج وجرت فيه السفن، وقع عند ذلك من تبرج النساء واختلاطهن بالفرنسيس ومصاحبتهم لهن في المراكب والرقص والغناء والشرب في النهار والليل؛ في الفوانيس والشموع الموقدة، وعليهن الملابس الفاخرة والحلي والجواهر المرصعة، وصحبتهم آلات الطرب، وخَدَمة السفن يكثرون من الهزل والمجون، ويتجاوبون برفع الصوت في تحريك المقاذيف بسخايف موضوعاتهم وكثايف مطبوعاتهم، وخصوصاً إذا دبت الحشيشة في رؤوسهم وتحكمت في عقولهم، فيصرخون ويطبلون ويرقصون ويزمرون ويتجاوبون بمحاكاة ألفاظ الفرنساوية في غنائهم، وتقليد كلامهم شيء كثير[١].

[٢٩٤] وأما الجوار السود فإنهن لما علمن رغبة القوم في مطلق الأنثى ذهبن إليهم أفواجاً فرادى وأزواجاً، فنططن الحيطان وتسلقن إليهم من الطيقان، ودلوهم على مخبآت أسيادهن وخبايا أموالهم ومتاعهم وغير ذلك[٢].

---

(١) قد يتعجب المرء من حصول ذلك ولكن للاستخراب «الاستعمار» الكثير من الوسائل لتخريب الأديان والأخلاق والنفوس، ومادهى العالم الإسلاميَّ أمرٌ ـ بعد تخريب عقائده ـ أعظم من ذهاب حياء كثير من النساء المسلمات وضياع دينهن.

(٢) قد يكون من أسباب ميل الجواري السود إلى الفرنسيين عدم مخالطة الإسلام =

[٢٩٥] ومنها أن يعقوب القبطي اللعين لما تظاهر مع الفرنساوية وقلدوه صاري عسكر القَبَطة، جمع شبان القبط وحلق لحاهم وزياهم بزي مشابه لعسكر الفرنساوية، مميزاً عنهم بقبعات يلبسونها على رؤوسهم مشابهة لشكل البرنيطة، وعليها قطعة فروة سوداء من جلد الغنم في غاية البشاعة؛ مع مايضاف إليها من قبح صورهم وسواد أجسامهم، وزفارة أبدانهم، وجعلهم عسكره وعزْوته، وجمعهم من أقصى الصعيد، وهدم الأماكن المجاورة لحارة النصارى التي هو ساكن بها؛ خلف الجامع الأحمر وبنى له قلعة وسوّرها بسور عظيم وأبراج وباب كبير يحيط به بدنات عظام، وكذلك بنى أبراجاً في ظاهر الحارة جهة بركة الأزبكية،. وفي جميع السور المحيط والأبراج طيقان للمدافع وبنادق الرصاص على هيئة سور مصر الذي رمّه الفرنساوية، ورتب على باب القلعة الخارج والداخل عدة من العسكر الملازمين للوقوف ليلاً ونهاراً وبأيديهم البنادق على طريقة الفرنساوية.

[٢٩٦] ومنها قطعهم الأشجار والنخيل من جميع البساتين والجناين الكائنة بمصر وبولاق ومصر القديمة والروضة، بل وجميع القطر المصري كالشرقية والغربية والمنوفية وبساتين رشيد ودمياط، كل ذلك لعمل القلاع وتحصين الأسوار في جميع الجهات وعمل العجل والعربات والمتاريس ووقود النار.

[٢٩٧] ومنها تكسير المراكب والسفن وأخذ أخشابها أيضاً مع شدة الاحتياج إليها وعدم إنشاء سفن جديدة لافتقار الناس ورؤساء المراكب وعدم الخشب والقار والحديد وبقية الآلات، وعدم الأمن

= الصحيح لقلوبهن وعقولهن مع الظلم الواقع عليهن، والله أعلم.

عليها لو فُرِض، حتى أنهم حال حلولهم الديار المصرية وسكنهم بالأزبكية كَسروا جميع القنج والأغربة[1] التي كانت مركوزة تحت بيوت الأعيان بقصد التنزه، وكذلك ماكان ببركة الفيل؛ وقس على ذلك حتى أن القطر المصري الآن في شدة الاحتياج لذلك، وشحت البضايع وغلت الأسعار وتعطلت الأسباب وضاقت المعايش وتضاعفت أجر حمل التجارات في السفن لقلتها، وبطلت المتاجر.

ومنها هدم القبب والمدافن الكائنة بالقرافة تحت القلعة خوفاً من تترس المحاربين بها؛ فكانوا يهدمون ذاك بالبارود على طريقة اللغم؛ فيسقط المكان بجميع أجزائه من شدة البارود وانحباسه في الأرض، فهدموا شيئاً كثيراً على هذه الصورة؛ وكذلك أزالوا جانباً كبيراً من الجبل المقطم بالبارود من الجهة المحاذية للقلعة خوفاً من تمكن الخصم منها والرمي على القلعة.

ومنها زيادة النيل الزيادة المفرطة التي لم يعهد مثلها في هذه السنين، حتى غرقت الأراضي وحوصرت البلاد وتعطلت الطرق، فصارت الأرض كلها لجة ماء وغرقت غالب القرى التي على السواحل، فتهدم من دورها شيء كثير.

[٢٩٨] ومنها وقوع الطاعون بمصر والشام، وكان معظم عمله ببلاد الصعيد، أخبرني صاحبنا العمدة الفاضل الشيخ حسن العطار المصريّ نزيل أسيوط مكاتبة ونصها:

---

(١) سبق تعريف القنجة ـ وجمعها القُنُج ـ بأنها نوع من السفن، أما الأغربة فهي جمع غراب، وهي سفينة حربية قديمة ذات أشرعة ومجاديف: انظر «تأصيل ماورد في تاريخ الجبرتي»: ١٥٤.

ونعرفكم أنه قد وقع في قطر الصعيد طاعون لم يُعهد ولم نسمع بمثله وخصوصاً ماوقع منه بأسيوط، وقد انتشر هذا البلاء في جميع البلاد وشاهدنا منه العجائب، وذلك أنه أباد معظم أهل البلاد، وكان أكثره في الرجال، سيما الشباب والعظماء وكل ذي منقبة وفضيلة وأغلقت الأسواق وعَزّت الأكفان، وصار المعظم من الناس بين ميت ومشيع ومريض وعائد، حتى أن الإنسان لايدري بموت صاحبه أو قريبه إلا بعد أيام، ويتعطل الميت في بيته من أجل تجهيزه فلا يوجد النعش ولا المغسل ولا من يحمل الميت إلا بعد المشقة الشديدة، وإن أكبر كبير إذا مات لايكاد يمشي معه مازاد على عشرة أنفار تُكترى، وماتت العلماء والقراء والملتزمون والرؤساء وأرباب الحرف، ولقد مكثت شهراً بدون حلق شعر رأسي لعدم الحلاق، وكان مبدأ هذا الأمر من شعبان، وأخذ في الزيادة في شهر ذي القعدة والحجة حتى بلغ النهاية.

فكان يموت كل يوم من أسيوط خاصة زيادة على الستمائة، وصار الإنسان إذا خرج من بيته لايرى إلا جنازة أو مريضاً أو مشتغلاً بتجهيز ميت، ولا يسمع إلا النواح والبكاء، وتعطلت المساجد من الأذان والإمامة لموت أرباب الوظائف واشتغال من بقي منهم بالمشي أمام الجنائز والسبح والسهر، وتعطل الزرع من الحصاد ونشف على وجه الأرض وأبادته الرياح لعدم وجدان من يحصده، وعلى التخمين مات الثلثان من الناس هذا مع سعي العرب في البلاد بالفساد والتخويف بسبب خلو البلاد من الناس والحكام إلى أن قال: ولو شئت أن أشرح لك ياسيدي ماحصل من أمر الطاعون لملأت الصحف مع عدم الإيفاء، وتاريخه ثامن عشرين الحجة سنة١٢١٥.

[٢٩٩] وأما الذين ماتوا في هذه السنة من الأعيان فالأمير مراد بيك

محمد مات بسُهاج قادماً إلى مصر باستدعاء الفرنسيس ودفن بها، وكان موته رابع شهر الحجة، وهو من مماليك محمد بيك أبو الذهب[1].

اشترى محمد بيك مراد بيك المذكور في سنة اثنين وثمانين ومائة وألف، فأقام في الرق أياماً قليلة، ثم أعتقه وأمّره وأنعم عليه بالإقطاعات الجليلة، وقدمه على أقرانه، وتزوج بالست فاطمة زوجة الأمير صالح بيك، وسكن داره العظيمة، بخطة قلعة الكبش ولما مات علي بيك تزوج بسُرِّيته أيضاً وهي ست نفيسة الشهيرة الذكر بالخبر، ولما انفرد محمد بيك بإمارة مصر كان هو وإبراهيم بيك أكبر أمرائه المشار إليهما دون غيرهما، فلما سافر محمد بيك إلى الديار الشامية محارباً للظاهر عمر[2]؛ أقام عوضه في إمارة مصر إبراهيم بيك وأخذ صحبته مراد بيك وباقي أمرائه، فلما مات محمد بيك بعكا؛ اجتمع رأي مماليكه وأمرائه على رآسة مراد بيك وتقدمه عليهم، وحملوا جثة سيدهم وحضروا بأجمعهم إلى مصر، فاتفق رأي الجميع على إمارة من

---

(١) أحد قادة المماليك المصريين، ستجد بعض أخباره في ترجمة ظاهر العمر القادمة.

(٢) ظاهر العُمَر: ظاهر بن عمر بن أبي زيدان، داهية شجاع. يقال إن أصله من المدينة وهاجر أحد جدوده إلى فلسطين، وكان أبوه عمر حاكماً على صفد ـ بفلسطين ـ ومايليها في أيام ولاية الأمير بشير الشهابي على فلسطين. ولد ظاهر في صفد سنة١١٠٦ وتولى إدارة عكا، ثم خلف أباه على صفد، واستفحل أمره وصار حاكم عكا وصفد والناصرة وطبرية، وغضبت عليه الحكومة العثمانية لأنه أخذ مدافع تملكها فأرسلت له والي دمشق فهزمه ظاهر وتم له امتلاك ولاية صيدا وعكا وحيفا ويافا والرملة وجبل نابلس، وشرقي الأردن، وصفد، وجبل عامل. واعترفت الحكومة العثمانية ولايته اضطراراً، ثم خرج عليه رجل يُدعى أبا الذهب كان من قواد الجيش المصريّ فأمدته الحكومة بقوة فانخذل ظاهر، ومات أبو الذهب فجأة في صيدا سنة١١٨٨ فعاد ظاهر إلى ولايته الواسعة، واستمر إلى أن جهزت الحكومة أسطولاً لأخذ عكا فبينما كان ظاهر متهيئاً للمقاومة غدر به مغربي من رجاله فقتل وزالت دولته سنة ١١٩٦ . انظر«الأعلام»: ٣/ ٢٣٧.

استخلفه سيدهم وقدمه دون غيره، وهو إبراهيم بيك ورضي الجميع بتقدمه ورياسته لوفور عقله وسكون جأشه، فاستقر بمشيخة مصر ورياستها، ونائب نوابها ووزرائها، وعكف مراد بيك على لذاته وشهواته وقضى أكثر زمانه خارج المدينة، مرة بقصره الذي أنشأه بالروضة وأخرى بجزيرة الذهب، وأخرى بقصر قيمان جهة العادلية.

[٣٠٠] كل ذلك مع مشاركته لإبراهيم بيك في الأحكام والنقض والإبرام والإيراد والإصدار، ومقاسمة الأموال والدواوين وتغليق مماليكه وأتباعه الولايات والمناصب، وأخذ في بذل الأموال وإنفاقها على أمرائه وأتباعه، فانضم إليه بعض أمراء علي بيك وغيرهم، ممن ماتت أسيادهم، فأكرمهم وواساهم ورخص لمماليكه في هفواتهم وسامحهم في زلاتهم، وحظي عنده كل جريء غشوم عسوف ذميم ظلوم، فانقلبت أوضاعهم، وتبدلت طباعهم، وشرهت نفوسهم، وعلت رؤوسهم، فتناظروا وتفاخروا، وطمعوا في أستاذهم، وشمخت آنافهم عليه، وأغاروا حتى على ما في بدنه، واشتهر بالكرم والعطاء فقصده الراغبون وامتدحه الشعراء والغاوون؛ وأخذ الشيء من غير حقه وأعطاه لغير مستحقه كما قال القائل:

وإنهـا خطـرات مـن وسـاوسـه

يعطـي ويمنـع لابخـلاً ولاكـرمـا

[٣٠١] ثم لما ضاق عليه المسلك، ورأى أن رضا العالم غاية لاتدرك، أخذ يتحجب عن الناس، فعظم فيه الهاجس والوسواس، وكان يغلب على طبعه الخوف والجبن مع التهور والطيش والتورط في الإقدام مع عدم الشجاعة، ولم يعهد عليه أنه انتصر في حرب باشره

أبداً، على مافيه من الادّعاء والغرور والكبر والخُيَلاء والصلف والظلم والجور، كما قال القائل:

أسد عليَّ وفي الحروب نعامة

فتخاء تنفر من صفير الصافر[١]

[٣٠٢] ولما قدم حسن باشا إلى مصر وخرج المترجَم مع عشيرته هاربين إلى الصعيد حتى انقضت أيام حسن باشا وإسماعيل بيك ومن كان معه، ورجعوا ثانياً بعد أربع سنين وشيء من الشهور من غير عقد ولاعهد ولاحرب، تعاظم في نفسه جداً، واختص بمساكن إسماعيل بيك، وجعل إقامته بقصر الجيزة وزاد في بنائه وتنميقه، وبنى تحته رصيفاً محكماً، وأنشأ بداخله بستاناً عظيماً نقل إليه أصناف النخل والأشجار والكروم، واستخلص إقليم الجيزة لنفسه شراء ومعاوضة وغصباً، وعمّر أيضاً قصر جزيرة الذهب، وجعل بها بستاناً عظيماً، وكذلك قصر ترسا وبستان المجنون، وصار ينتقل في تلك القصور والبساتين، ويركب للصيد في غالب أوقاته، واقتنى المواشي من الأبقار والجواميس والأغنام المختلفة الأجناس؛ فكان عنده بالجيزة من ذلك شيء كثير جداً.

وعمل له ترسخانة عظيمة[٢]، وطلب صناع آلات الحرب من المدافع والبنب والكلل والمكاحل، واتخذ بها أيضاً معامل البارود وأخذ جميع الحدادين والسباكين والنجارين، فجمع الحديد المجلوب

---

(١) هذا البيت قاله شبيب زعيم الخوارج للحجاج طالباً منه مبارزة زوج شبيب: غزالة، ومعنى فتخاء: تَعِبة مرتخية.

(٢) أي دار أسلحة ويستعملهَا الجبرتي بمعنى الأسلحة نفسها.

والرصاص والفحم والحطب حتى شحت جميع هذه الأدوات لكونه كان يأخذ كل ماوجده منها.

وأوقف الأعوان في كل جهة يحجزون المراكب التي تأتي من البلاد بالأحطاب يأخذونها ويجمعونها للطلب، ويبيعون لأنفسهم ما أحبوا ويأخذون الجعالات على مايسمحون به أو يطلقونه لأربابه بالوسائط والشفاعات، وأحضر ناساً من الغليونجية ونصارى الأروام وصناع المراكب فأنشأوا له عدة مراكب حربية وغلايين، وجعلوا بها مدافع وآلات حرب على هيئة مراكب الروم، صرف عليها أموالاً عظيمة، ورتب لها عساكر وبحرية وأدر عليهم الجماكي[1] والأرزاق الكثيرة

[٣٠٣] وجعل عليهم رئيساً كبيراً رجلاً نصرانياً يقال له نقولا، بنى له داراً عظيمة بالجيزة ومصر، وله عِزْوة من نصارى الأروام المرتبين عسكراً، وكان نقولا المذكور يركب الَخيل، ويلبس الملابس الفاخرة، ويمشي في شوارع مصر راكباً وأمامه وخلفه قواسة يوسعون له الطريق على هيئة ركوب الأمراء، كل ذلك خطرات من وساوسه لايُدرى لأي شيء هذا الاهتمام ولأي شيء حاجة إنفاق هذا المال في الخشب والحديد وإعطائه لنصارى الأروام.

[٣٠٤] وبقيت آلات الحرب جميعها والبارود بحواصله والكلل والبنبات حتى أخذ جميعه الفرنسيس فيقال: إنه كان بحواصل الترسخانة من جنس الكلل إحدى عشر ألف كلة ـ كذا نقل عن معلم الترسخانة ـ أخذ جميع ذلك الفرنسيس يوم استيلائهم على الجيزة.

---

(١) أي الرواتب.

[٣٠٥] ومما اتفق أنه وقعت مشاجرة في بعض الأيام بين بعض نصارى الأروام الغليونجية وبعض السوقة بمصر القديمة فتعصب النصارى على أهل البلد وحاربوهم وقتلوا منهم نيفاً وعشرين رجلاً، وانتهت الشكوى إلى الأمير فطلب كبيرهم فعصى عليه وامتنع من مقابلته، وعمر مدافع المراكب ووجهها جهة قصره، فلم يسعه إلا التغافل، وراحت على من راح.

[٣٠٦] واستوزر له رجلاً بربرياً وهو المسمى بإبراهيم كَتْخُدا السُناري[١] وجعله كتخداه ومشيره، وبلغ من العظمة ونفوذ الكلمة بإقليم مصر مالم يبلغه أعظم أمير بها، وبنى له داراً عظيماً بالناصرية واقتنى المماليك الحسان والسراري البيض والحبوش والخدم، وتعلم اللغة التركية والأوضاع الشيطانية، واختص ذلك البربري برجل فرّاش من رعاع الناس، وجعله كَتْخُداه يأتمر بأمره ويتوسل به أعاظم الناس في قضاء أشغالهم، ولما حسن لمراد بيك الإقامة بالجيزة، واختار السكن بها، وزين له الشيطان العزلة عن أقرانه، وترك لإبراهيم بيك أمر الحكام والدواوين ومقتضيات نواب السلطنة مع كونه لا ينفذ أمراً دون رأيه ومشورته، واحتجب هو عن الاجتماع بالناس بالكلية حتى عن الأمراء الكبار من أقرانه كان بينه وبينهم إبراهيم كتخدا المذكور فكان هو عبارة عنه، وربما نقض القضايا التي انبرم أمرها عند إبراهيم بيك أو غيره بنفسه، أو عن لسان مخدومه.

[٣٠٧] وأقام المترجم على عزلته بالبر الغربيّ نحو ست سنوات متوالية، لا يعدي إلى البر الشرقي أبداً، فلا يحضر الديوان ولا يتردد

---

(١) سبقت ترجمته.

إلى الأقران، وإذا حضر الباشا المولى على مصر ووصل إلى بر أنبابة ركب وسلم عليه مع الأمراء، ورجع إلى قصره فلا يراه بعد ذلك أبداً، وتعاظم في نفسه وتكبر على أقرانه وأبناء جنسه، فتزاحمت على سدته الطلاب وتكالبت على جيفته الكلاب، فانزوى من نبشهم وتوارى من نهشهم، فإذا بلغه قدوم أو وصول من يرتجيه وكان يستحي من رده أو يخشى عاقبة صده، ركب في الحال وصعد إلى الجبال، وربما وصل الغريم على غفلة فإن صادفه واجتمع عليه أعطاه ما في يديه وأوعده بالخير، وأوهبه ملك الغير.

[٣٠٨] ثم أخذ يبعث بدواوين الأعشار والمكوسات والبهار، فيحول عليهم الحْوالات، ويتابع لممليكه ختم الوصولات، فتجاذب هو وإبراهيم بيك ذلك الإيراد، وتعارضت أوراقها وحافا في المعتاد، ثم اصطلحا على أن تكون له الدواوين البحرية ولقسيمه مايراد من الأصناف الحجازية، وما انضاف إلى قَلَم البهار، وحُسب في دفاتر التجار، فانفرد كل منهما بوظيفته وفعل بها من الإجحاف ماسُطر في صحيفته، فأحدث المترجم ديواناً خاصاً بثغر رشيد على الغلال التي تحمل إلى بلاد الإفرنج وسموه ديوان البدعة، وأذن ببيع الغلال لمن يبيعها إلى بلاد الإفرنج وغيرها، وجعل على كل أردب[1] ديناراً خلاف البراني، والتزم بذلك رجل سَرّاج من أعوانه الموصوفين بالجود، وسكن برشيد وبقيت له بها وجاهة وكلمة نافذة، فجمع من ذلك أموالاً وإيراداً عظيماً.

وكانت هذه البدعة السيئة من أعظم أسباب قوة الفرنسيس

---

(١) مكيال ضخم بمصر يضم أربعة وعشرين صاعاً: «ترتيب القاموس المحيط»: ر د ب.

وطمعهم في الإقليم المصريّ، مع ما أضيف لذلك من أخذ أموالهم ونهب تجارهم وبضاعاتهم من غير ثمن، واقتدى به أمراؤه وتناظروا في ذلك وفعل كلٌّ ما وصلت إليه همته، واختص بالسيد محمد كريم السكندريّ ورفع شأنه بين أقرانه، فمهد له الأمور بالثغر وأجرى أحكامه به، وفتح له باب المصادرات والغرامات، ودله على مخبآت الأمور وأخذ أموال التجار من المسلمين وأجناس الإفرنج؛ حتى تجسمت العداوة بين المصريين والفرنسيس، وكان هو من أعظم الأسباب في تملك الفرنسيس للثغر.

[٣٠٩] ومما سولت له به نفس المترجم بإرشاد بعض الفقهاء عمارة جامع عمرو بن العاص ـ وهو الجامع العتيق ـ وذلك أن هذا الجامع لما خرب بخراب مدينة الفسطاط وبقيت البلاد تلالاً وخصوصاً ما قرب من ذلك الجامع، لم يزل الجامع في اضمحلال حتى مال شقه وسقفه وأعمدته فعزم على تجديده وعمارته ليرفع به دينه الخَلق[1]، فاهتم لذلك وقيد به نديمه قاسم المعروف بالمصلي وصرف عليه أموالاً عظيمة أخذها من غير حلها، فأقام أركانه، وشيد بنيانه، ونصب أعمدته، وكمَّل زخرفته وبنى به منارتين، وجدد جميع سقفه بالخشب النقي، وبيضه جميعه، فتم على أحسن مايكون، وفرشه بالحصر الفيومي وعلق به القناديل، وحصلت به الجمعية آخر جمعة برمضان سنة ١٢١٢ فحضر الأمراء أو الأعيان وكان يوماً مشهوراً، فلما حضرت الفرنسيس في العام القابل بعد تاريخه، جرى عليه ما جرى على غيره من الهدم والتخريب حتى أصبح بلقعاً أشوه مما كان.

---

(١) قال المحقق: أي الرث البالي.

بنى جامعاً لله من غير حله

فجاء بحمد الله غيرَ موفق

كمطعمة الأيتام من كد فرجها

فياليت لم تزني ولم تتصدق

[٣١٠] وهو كان من أعظم أسباب خراب الإقليم المصري، فلعل الهم يزول بزواله، وكانت صفته أشقر، كثّ اللحية، قصير القامة، غليظ الجسم والصوت، بوجهه أثر ضربة سيف، ظالماً غشوماً، متهوراً، مختالاً معجباً متكبراً، ولم يخلف ولداً ولا بنتاً[١].

[٣١١] ومات الأمير مصطفى بيك الكبير وهو أيضاً من مماليك محمد بيك، تولى الصعيد وإمارة الحاج عدة مرَار، وكان فظّاً غليظاً متمولاً بخيلاً شحيحاً، وفي إمارته على الحج ترك زيارة المدينة لخوفه من العرب، وشحه بعوائدهم، وقلة اعتنائه بشعار الدين، فانتُقد ذلك على المصريين من الدولة وغيرها، وكان ذلك من أعظم ما اجترموه من القبائح.

---

(١) العجيب أن هذا الذي كان أمير مصر كان قد انحاز إلى الفرنسيس علناً، وكوفىء هو وزوجه، وأصبح يتقاضى مرتباً ثابتاً من الخزانة الفرنسية، ويحكم باسمهم الصعيد، وعمل مع الفرنسيس ما يشبه معاهدة الدفاع المشترك، وكان قد اشترك في إخماد ثورة المصريين أيام كليبر، وبالغ في الولاء للفرنسيين، وبعث إلى معسكرهم بالهدايا والغلال والمؤن، وسلمهم بعض العثمانيين اللاجئين إليه، وأرسل إلى كليبر عدة مراكب محملة مواد ملتهبة لإخماد ثورة القاهرة، فلا عجب إذاً إن لم يستطع هذا الهالك أن يدافع عن القاهرة وهو أميرها وصاحبها، وانظر «ودخلت الخيل الأزهر»: ٢٩٤ ـ ٢٩٦.

واستهلت سنة ستة عشر ومائتين وألف بيوم الخميس، وباستهلالها خف الطاعون.

[٣١٢] وفيه قربت العساكر القادمة من الجهة الشرقية، وحضرت طوالعهم إلى القليوبية والمنبر والخانكة لأخذ الكُلَف، فتأهب قائمقام بليار للقائهم، وأمر العساكر بالخروج من أول الليل، ثم خرج هو في آخر الليل، فلما كان يوم الأحد رابعه رجع قائمقام بليار ومن معه منهزمين وكتموا أمرهم، ولم يذكروا شيئاً.

وفي خامسه رُفع الطلب عن الناس بباقي نصف المليون، وأظهروا الرفق بالناس والسرور بهم لعدم قيامهم عند خروجهم للحرب، وكانوا يظنون منهم ذلك.

وفيه أخذت جملة من عدد الطواحين وأصعدت إلى القلعة، وأكثروا من نقل الماء والدقيق والأقوات إليها، وكذلك البارود والكبريت والكلل والبنب، ولغوا ما في الأسوار والبيوت من الأمتعة والفرش والأسرة، وحملوه إليها ولم يبقوا بالقلاع الصغار إلا مهمات الحرب.

[٣١٣] وفي محرم عشرينه توكل رجل قبطي يقال له عبد الله من طرف يعقوب يجمع طائفة من الناس لعمل المتاريس، فتعدى حتى على بعض الأعيان وأنزلهم من على دوابهم وعسف وضرب بعضهم على وجهه حتى أسال دمه، فتشكى الناس من ذلك القبطي وأنهوا شكواهم إلى بليار قايمقام فأمر بالقبض على ذلك القبطي وحبسه بالقلعة.

[٣١٤] وفيه وردت الأخبار بأن الصدر الأعظم وصل ركابه إلى دجوة.

وفيه يوم الاثنين سمعت عدة مدافع على بعد وقت الضحوة.

[٣١٥] وفي ذلك اليوم قبل العصر طلبوا مشايخ الديوان فاجتمعوا بالديوان؛ وحضر الوكيل والترجمان وطلبهم للحضور إلى قائمقام؛ فلما حصلوا قال لهم على لسان الترجمان: نخبركم أن العدو قد قرب منا؛ ونرجوكم أن تكونوا على عهدكم مع الفرنساوية؛ وأن تنصحوا أهل البلد والرعية بأن يكونوا مستمرين على سكونهم وهدوئهم؛ ولايتداخلوا في الشغب؛ فإن الرعية بمنزلة الولد وأنتم بمنزلة الوالد والواجب على الوالد نصح ولده وتأديبه وتدريبه على الطريق المستقيم التى يكون فيها الخير والصلاح، فإنهم إن داموا على الهدوء حصل لهم الخير ونجوا من كل شر، وإن حصل منهم خلاف ذلك نزلت عليهم النار وأحرقت دورهم، ونهبت أموالهم ويتمت أولادهم، وسبيت نساؤهم والزموا بالأموال التي لا طاقة لهم بها؛ فقد رأيتم ما حصل في الوقائع السابقة، فاحذروا من ذلك فإنكم لا تدرون العاقبة، ولا نكلفكم المساعدة لنا ولا المعونة لحرب عدونا؛ وإنما نطلب منكم السكون والهدوء لا غير، فأجابوه بالسمع.

وأمروا الأغا وأصحاب الشرطة بالمناداة على الناس بذلك؛ وأنهم ربما سمعوا ضرب مدافع جهة الجيزة، فلا ينزعجون من ذلك فإنه عيد لبعض أكابرهم، وأن يجتمع من الغد بالديوان الأعيان والتجار وكبار الأخطاط ومشايخ الحارات، ويتلى عليهم ذلك، فلما كان ضحوة يوم

الثلاثاء، اجتمعوا كما ذكر وحصلت الوصية والتحذير وانتهى المجلس، وذهبوا إلى محلاتهم.

[٣١٦] وفي ذلك اليوم أشيع حضور الصدر الأعظم إلى شلقان، وكذلك العساكر الغربية حضرت إلى أول الوراريق[١].

[٣١٧] وفي يوم الجمعة غايته[٢] اجتمع المشايخ والوكيل بالديوان على العادة، وحضر استوف الخازندار وصحبته أبو ديف، فتكلم الخازندار وترجم عنه روفائيل بقوله:

اعلموا أن أرض مصر استقر ملكها للفرنسيس، فلازم من اعتقادكم لذلك وركوزه في أذهانكم كما تعتقدون وحدانية الله ـ تعالى ـ[٣] ولا يغرنكم هؤلاء القادمون وقربهم، فإنهم لايخرج من أيديهم شيء أبداً، وهؤلاء الإنكليزية ناس خوارج حرامية، وصناعتهم إلقاء العداوة والفتن، والعثمنلي مغتر بهم؛ فإن الفرنساوية كانت من الأحباب الخاص للعثمنلي؛ فلم يزالوا حتى أوقعوا بينه وبينهم العداوة والشرور، وإن بلادهم ضيقة وجزيرتهم صغيرة، ولو كان بينهم وبين الفرنساوية طريق سالك من البر لانمحى أثرهم، ونُسمي ذكرهم من زمان مديد، تأملوا في شأنهم، وأي شيء خرج من أيديهم؟ فإن لهم ثلاثة أشهر من حين طلوعهم إلى البر وإلى الآن لم يصلوا إلينا، والفرنسيس عند قدومهم وصلوا في ثمانية عشر يوماً، فلو كان فيهم همة أو شجاعة أو إقدام لوصلوا مثل وصولنا، وكلام كثير من الهوس والغفلة.

---

(١) قال المحقق: في البر الغربي قرب إنبابة.

(٢) أي نهاية محرم.

(٣) الحمد لله الذي خذلهم، وأخلف ظنهم واعتقادهم.

[٣١٨] استهل بيوم السبت. وفي ذلك اليوم مشى عبدالعال الأغا في شوارع المدينة وقدامه مناد يقول: الأمن والأمان على جميع الرعايا، وفي غد يُعمل شَنَّك[١] بمدافع من القلاع في الساعة الرابعة، فلا تخافوا ولا تنزعجوا فإنه حضرت بشارة بوصول بونابارته بعمارة عظيمة[٢] إلى الإسكندرية، وإن الإنكليز رجعوا القهقرى.

الصلح الثاني المعقود بين العثمانيين والفرنسيين

[٣١٩] فلما أصبح يوم الأحد في الساعة الرابعة من الشروق ضربت المدافع وتابعوا ضربها من جميع القلاع، وطلع ناس قبل ذلك إلى المنارات ونظروا بالنظارات فشاهدوا العساكر الغربية أبحرت ووصلت إلى آخر الوراريق وأول إنبابة، فنصبوا خيامهم أسفل إنبابة، وعند وصولهم إلى مضاربهم ضربوا عدة مدافع، فلما سمعها الفرنساوية ضرب الآخرون تلك المدافع التي ذكروا أنها شَنّك[٣]، وأما

(١) جاء في معجم «تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتيّ»: ١٣٧: «في التركية: شَنّ بمعنى: بهيج، وشَنْلك: البهجة والطرب، والشّنك العربية من الشنلك التركية قلبت لامها نوناً وأدغمت في النون الأصلية، وتطلق كلمة الشنك على الاحتفال تطلق فيه المدافع والنيران الملونة، وربما اقتصر في الشنك على إطلاق المدافع في الأوقات الخمسة».

(٢) أي بسفن ضخمة.

(٣) خداعاً للرعية.

العساكر الشرقية فوصلت أوائلهم إلى منية الأمراء المعروفة بمنية السيرج، والمراكب فيما بينهما من البرين كثيرة، فعند ذلك عزَّت الأقوات وشحت، وخصوصاً السمن والخبز والأشياء المجلوبة من الريف، ولم يبق طريق مسلوكة إلى المدينة إلا من جهة باب القرافة، وما يجلب من جهة البساتين من القمح والتين، وتزدحم عليه النساء والرجال بالمقاطف فيسمع لهم ضجة عظيمة، وشح اللحم أيضاً وغلا سعره لقلة المواشي والأغنام.

وفيه زحفت عساكر البر الغربي إلى تحت الجيزة، فحضر في صبحها يني وأخبر قايمقام، فركب من ساعته وعدى إلى بَرّ الجيزة، فسُمع الضرب أيضاً من ناحية الجيزة، وسمعت طبول الأمراء ونقاقيرهم، واستمر الأمر إلى يوم الثلاثاء حادي عشره، فبطل الضرب من وقت الزوال.

ولما حصلوا جهة الجيزة، انتشروا إلى قبلي منها، ومنعوا المعادي من تعدية البر الشرقي، فانقطع الجلب من الناحية القبلية أيضاً، وامتنع وصول الغلال والأقوات والبطيخ والعجور والخضروات والخيار والسمن والجبن والنعم فعزّت الأقوات وغلا سعر الموجود منها جداً.

وفي يوم الاثنين سابع عشره أطلقوا المحبوسين من القلقة من أسرى العثمانية وأعطوا كل شخص مقطع قماش وخمسة عشر غرشاً، وأرسلوهم إلى أورضي همايون[1]، وكانوا بلغ بهم الجهد من الخدمة وشيل التراب والأحجار وضيق الحبس والجوع، ومات الكثير منهم،

---

(١) أي إلى المعسكر العثماني، وقد سبقت الكلمة بلفظ عُرْضى.

وكذلك أفرجوا عن العربان والفلاحين.

[٣٢٠] وفي ليلة الاثنين المذكورة سمع صوت مدفع بعد الغروب عند قلعة جامع الظاهر خارج الحسينية ثم سمع منها أذان العشاء والفجر فلما أضاء النهار نظر الناس، فإذا البيرق العثمانيّ[(١)] بأعلاها والمسلمون على أسوارها، فعلم الناس بتسليمها، وكان ذلك المدفع إشارة إلى ذلك، ففرح الناس وتحققوا أمر المسالمة، وأشيع الإفراج عن الرهائن من المشايخ وغيرهم وباقي المحبوسين في الصباح، وأكثر الفرنساوية من النقل والبيع في أمتعتهم وخيولهم ونحاسهم وجواريهم وعبيدهم وقضاء أشغالهم، وفي ذلك اليوم أنزلوا عدة مدافع من القلعة وأمتعة وفرشاً وباروداً.

وفي يوم الثلاثاء عمل الديوان وحضر الوكيل وأعلن بوقوع الصلح والمسالمة ووعد أن في الجلسة الآتية يأتي إليهم بفرمان الصلح وما اشتمل عليه من الشروط ويسمعونه جهاراً، وفي ذلك اليوم كثر اهتمام الفرنساوية بنقل الأمتعة من القلعة الكبيرة وباقي القلاع.

وفي يوم الخميس عشرينه أفرجوا عن بقية المسجونين والمشايخ وهم الشيخ السادات والشرقاوي والشيخ الأمير والشيخ محمد المهدي

---

(١) أي العلم العثماني، وذلك أن العثمانيين والإنجليز لما هزما القائد الفرنسيّ مينو في أبي قير اتجها إلى القاهرة لمحاصرة من بقي فيها من الفرنسيين، فتحقق القائد بليار أن لا مناص له من التسليم، فأرسل إلى القائدين العثماني والإنجليزيّ يطلب منهما إخلاء مصر بشروط الصلح المنقوض السابق فأمضيا معه اتفاقاً بذلك، فأخلى المدينة في ٢٨ صفر سنة ١٢١٦، وخرج منها بجميع الأسلحة.
أما القائد مينو فبقي محصوراً في الإسكندرية، ووقعت بينه وبين العثمانيين والإنجليز معركة عظيمة قُتل فيها خلق من الجانبين، ثم سلّم المدينة في ٢٢ ربيع الأول سنة١٢١٦، وانتهت الحرب بذلك: انظر«تاريخ الدولة العلية»: ٣٧٨.

وحسن أغا المحتسب ورضوان كاشف الشعراوي وغيرهم، فنزلوا إلى بيت قائمقام وقابلوه، فقال للمشايخ: إن شئتم اذهبوا فسلموا على الوزير فإني كلمته ووصيته عليكم.

وفيه حضر الوزير الأعظم والعساكر إلى ناحية شبرا وكذلك قبطان باشا والإنكليز والعساكر الغربية قبالهم ونصبوا الجسر فيما بينهم على البحر، وهو من مراكب مرصوصة مثل جسر الجيزة بل يزيد عنه في الإتقان بكونه من ألواح في غاية الثخن وله درابزين من الجهتين أيضاً، وفيه لصقوا أوراقاً بالطرق مكتوبة بالعربي والفرنساوي، وفيها شرطان من شروط الصلح التي تتعلق بالعامة.

وفي يوم الجمعة عملوا الديوان وحضر المشايخ والوكيل، فقال الوكيل: هل بلغكم بقية الشروط الثلاثة عشر؟ فقالوا: لا، فأبرز ورقة من كمه بالقلم الفرنساويّ، فشرع يقرؤها والترجمان يفسرها وهي تتضمن الإحدى عشر شرطاً الباقية[1].

وفيه كثر خروج الناس ودخولهم من الأتباع والباعة والمتنكرين، فصار الحرس من الفرنساوية يأخذون من الداخل والخارج دراهم ولا يمنعونهم، فلما علم الناس بذلك كثر زحامهم فلما أصبحوا منعوهم فدخلوا وخرجوا من باب القرافة، فلم يمنعهم الواقفون به من الفرنسيس بل كانوا يفتشون البعض ويمنعون البعض، وقد دخل بعض أكابر الإنكليز وصحبتهم فرنساوية يفرجونهم على البلدة والأسواق، وكذلك دخل بعض أكابر العثمانية فزاروا قبر الإمام الشافعيّ وسيدنا

---

(١) كل الشروط تتعلق بتسهيل خروجهم من مصر بأمان وراحة ويسر، وتتعلق بتأمين من تعامل معهم أو أحبهم فأراد مصاحبتهم، والعياذ بالله.

الحسين والشيخ عبد الوهاب الشعراني[1]، والفرنساوية ينتظرونهم بالباب.

[٣٢١] وفي ليلة الاثنين رابع عشرينه نادوا في الأسواق برمي مدافع في صبحه وذلك لنقل رمة كلبر، فلا يرتاع الناس من ذلك، فلما كان في صبح ذلك اليوم أطلقوا مدافع كثيرة ساعة نبش قبر اللعين بالقرب من القصر العيني، وأخرجوا الصندوق الرصاص الموضوع فيه رمته لينقلوه إلى بلادهم.

وفيه أرسلوا أوراقاً ورسلاً للاجتماع بالديوان وهو آخر دواوينهم، فاجتمع المشايخ والتجار وبعض الأوجاقلية واستوف الخازندار والوكيل والتراجمون، فلما استقر بهم الجلوس أخرج الوكيل كتاباً مختوماً وأخبر أن ذلك الكتاب من صاري عسكر منو بعث به إلى مشايخ الديوان، ثم ناوله لرئيس الديوان ففضه وناوله للترجمان فقرأه والحاضرون يسمعون، ومضمونها حصول الصلح وتمويهات وخرافات ليس في ذكرها فائدة، وانفض الديوان وركب المشايخ للسلام على حضرة الصدر الأعظم والقادمين، فخرجوا عن طريق بولاق، فسلموا وباتوا تلك الليلة بأورضي همايون.

[٣٢٢] وفيه أرسل إبراهيم بيك أماناً لأكابر القبط فخرجوا أيضاً وسلموا ورجعوا إلى دورهم، وأما يعقوب اللعين فإنه خرج بمقامه، وعدى إلى الروضة، وكذلك جمع إليه عسكر القبط ، وهرب الكثير

---

(١) عبد الوهّاب بن أحمد بن علي الشعرانيّ ـ نسبة إلى قرية أبي شعرة بمصر ـ المصري الشافعي الصوفيّ. ينتهي نسبه إلى محمد ابن الحنفية رضي الله تعالى عنه. درس على مشايخ كثيرين، وكان عالماً فاهماً له مصنفات كثيرة. توفي سنة ٩٧٣ رحمه الله تعالى. انظر «الكواكب السائرة»: ٣/ ١٧٦ـ١٧٧.

منهم واختفى، واجتمعت نساؤهم وأهلهم وذهبوا إلى قائمقام وبكوا وولولوا وترجوه في إبقائهم عند عيالهم وأولادهم؛ فإنهم فقراء وأصحاب صنايع ما بين نجار وبناء وغير ذلك، فوعدهم أنه يرسل إلى يعقوب أنه لا يقهر منهم من لا يريد الذهاب والسفر معه.

وفيه قابلوا حضرة الصدر الأعظم فخلع عليهم وكساهم ورجعوا.

خروج الفرنسيين من مصر

[٣٢٣] وفي يوم الأربعاء تاسع عشره خرج المسافرون مع الفرنساوية إلى الروضة والجيزة بمتاعهم وحريمهم، وهم جماعة كثيرة من القبط وتجار الإفرنج والتراجمين وبعض المسلمين ممن تداخل معهم في المظالم وخشي على نفسه، ومن ترأس في أيامهم من نصارى الشوام والأروام، مثل يوسف الحموي ويني وبرطلمين، وعبد العال الأغا أيضاً طلق زوجته وصنع له برنيطة، وخرج إلى الروضة بعد ما باع متاعه وفراشه، وما ثقل عليه حمله من طقم وسلاح وغيره فكان يرسل خلف الذي باعه شيئاً من ذلك ويلزمه بإحضار ثمنه قهراً، ولم يصحب معه إلا ماخف حمله وغلا ثمنه[١].

---

(١) بلغ عدد الذين خرجوا مع الفرنسيين ٧٦٠ شخصاً من الأقباط والروم والمماليك الذين فضلوا أن يصاحبوا الفرنسيين إلى بلادهم، وعاشوا هناك عيشة ضنكاً برواتب ضئيلة، وسلك بعضهم في جيش الفرنسيين.
أما هذا الضّال عبد العال فقد تنصر هنالك ـ والعياذ بالله ـ ثم قيل إنه أسلم على فراش الموت، ذكر ذلك الأستاذ محمد جلال كشك في كتابه «ودخلت الخيل الأزهر»: ٥٠٤ نقلاً عن الطهطاوي في كتابه الذي صنفه في رحلته إلى باريس.

[٣٢٤] وفي ذلك اليوم أيضاً فتحوا باب جامع الأزهر، وشرعوا في كنسه وتنظيفه.

[٣٢٥] وأشيع في ذلك اليوم ارتحال الفرنساوية ونزولهم من القلاع وتسليمهم الحصون من الغد وقت الزوال، فلما أصبح يوم الخميس ومضى وقت الزوال لم يحصل ذلك، فاختلفت الروايات، فمن الناس من يقول: ينزلون يوم الجمعة، ومنهم من يقول: إنهم أخذوا مهلة ليوم الاثنين، وبات الناس على ذلك، فلما كان آخر الليل وإذا الناس يسمعون لغط العساكر العثمانية وكلامهم ووطء نعالهم، فنظروا فإذا الفرنساوية قد خرجوا ليلاً بأجمعهم، وأخلوا القلعة الكبيرة وباقي القلاع والحصون والمتاريس، وذهبوا إلى الجيزة والروضة وقصر العيني، ولم يبق منهم شبح يلوح في المدينة وبولاق مصر العتيقة والأزبكية، ففرح الناس وهنأ بعضهم بعضاً، وأظهروا الفرح والسرور بدخول المسلمين وخروج الكافرين، وصاروا يتلقونهم ويسلمون عليهم ويباركون لقدومهم، والنساء يلقلقن بألسنتهن عند رؤيتهم في الأسواق ومن الطيقان، وقام في الناس جلبة وصياح، وتجمع الصغار والأطفال كعادتهم، ورفعوا أصواتهم بقولهم: نصر الله السلطان، ونحو ذلك.

ومنذ ذلك كثر الخبز واللحم والسمن بالأسواق وكذلك الغلال، وانحلت الأسعار وكثرت الفاكهة مثل العنب والخوخ والبرقوق والبطيخ وتعاطى بيع غالبها الأتراكُ والأرناؤوط، وكذلك كثر وجود البميش من البندق واللوز والجوز والزبيب والتين والزيتون الرومي.

فلما كان قبيل صلاة الجمعة، وإذا بجاويشية وعساكر وأغوات، وتلا ذلك حضرة الصدر الأعظم فشق من وسط المدينة وتوجه إلى

المسجد الحسينيّ فصلى به الجمعة وزار المشهد، ودعاه حضرة الشيخ السادات إلى داره المجاورة للمشهد، فأجابه ودخل معه وجلس ساعة ثم توجه إلى الجامع الأزهر، فطاف بمقصورته وأروقته، وجلس ساعة لطيفة، وأنعم على الكناسين والخدمة بسراهم، وكذلك خدمة المسجد الحسينيّ ثم ركب إلى وِطاقه، وعملوا في ذلك الوقت شَنَّك وضربوا مدافع كثيرة من الأورضي والقلعة.

وكان ذلك اليوم يوم تهنئة وسرور وزوال هم وشرور.

[٣٢٦] وفي يوم الأربعاء رابعه ارتحل الفرنساوية وأخلوا قصر العيني والروضة والجيزة، وارتحل معهم قبطان باشا ومعظم الإنكليز ونحو خمسة آلاف من عسكر الأرناؤوط، ومن الأمراء المصرية عثمان بيك الأشقر ومراد بيك الصغير وأحمد بيك الكلارجي وأحمد بيك حسن.

فكانت مدة الفرنساوية وتحكمهم بالديار المصرية ثلاث سنوات وإحدى وعشرين يوماً؛ فإنهم ملكوا بر إنبابة والجيزة وكسروا الأمراء المصرية يوم السبت سابع شهر صفر من سنة ١٢١٣، وكان انتقالهم ونزولهم من القلاع، وخلو المدينة منهم وانخلاعهم عن التصرف والتحكم ليلة الجمعة الحادي والعشرين من شهر صفر سنة ست عشرة ومائتين وألف، فسبحان من لا يزول ملكه ولا يتحول سلطانه.

دخول العثمانيين إلى مصر

[٣٢٧] وفيه نبهوا على موكب حضرة الصدر الأعظم من الغد،

فلما أصبح يوم الخميس خامسه اجتمع الناس من جميع الطوائف وسائر الأجناس وهرع الناس للفرجة، وخرجت البنت من خدْرها، واكتروا الدور المطلة على الشارع بأغلى الأثمان، وجلس الناس على السقايف والحوانيت صفوفاً، وانجر الموكب من أول النهار إلى قريب الظهر، ودخل من باب النصر، وشق من وسط المدينة، وأمامه العساكر الشامية والأمراء المصرية والمغاربة والغليونجية والباشوات، والكتبة ورؤساء الكتاب وأرباب الديوان والأغوات الكبار بالطبول والزمور، وكذلك قاضي العساكر المنصورة والعلماء المصرية ومشايخ التكايا والدراويش، وأقبل حضرة الصدر الأعظم وأمامه الملازمون بالبراقع والجاويشية[1] والسعاة والجوخدارية[2] ويبدون[3] الدراهم عن اليمين والشمال على المتفرجين من الرجال والنساء، وخلفه أيضاً العدة الوافرة من أكابر أتباعه، وبعدهم الكثير من عسكر الأرناؤوط.

وموكب الخزندار وخلفه النوبة التركية المختصة به، ثم المدافع وعربات الجنجانه، وعملوا وقت الموكب شَنّك ضربوا فيه مدافع كثيرة، وكان ذلك اليوم يوماً عظيماً مشهوداً وموسماً وبهجة وعيداً عمت المسلمين فيه المسرات، ونزلت في قلوب الكافرين الحسرات، ودقت البشائر وقرت النواظر، وأوقدت المنارات سبع ليال متواليات.

فلله الحمد والمنة على هذه النعمة، ونرجو من فضله أن يصلح

---

(١) الجاويش منصب عسكريّ، عمله أن يسعى بين يدي الحاكم ويصيح ليُفسح له الطريق، وانظر «تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتيّ»: ٦٠.

(٢) الجوخدار «موظف غير عسكري يناط به النظر في شؤون ملابس السلطان في العصر العثمانيّ»: المصدر السابق: ٧١.

(٣) كذا في الأصل ولعلها: ويبددون، أو يبذرون، أو نحوها، والله أعلم.

منا فساد القلوب، ويوفق أولي الأمر للخير والعدل المرغوب والمطلوب، ويلهمهم سلوك سواء السبيل القويم، ويهديهم الصراط المستقيم. ووقع الاختيار بأن يكون الباب الأكرم وسكن الصدر الأعظم بحارة عابدين، وكذلك أفردت أماكن لسكن الوزراء والأعيان تليق بهم، ومساكن لأمرائهم وأتباعهم بالقرب منهم في جهات مختلفة.

[٣٢٨] وفي يوم الأحد سافر هجان إلى جهة الحجاز وصحبته فرمان بخبر الفتح والنصر وارتحال الفرنسيس وجلائهم من أرض مصر، ومكاتبات من التجار لشركائهم بإرسال البن والبضائع والمتاجر إلى مصر.

[٣٢٩] وفيه نودي بعدم التعرض بالإيذاء لنصرانيّ أو يهوديّ سواء أكان قبطياً أو رومياً أو شامياً، فإنهم من رعايا السلطان، والماضي لا يعاد.

[٣٣٠] والعجب أن بعض نصارى الأروام الذين كانوا بعسكر الفرنسيس، تزيوا بزيّ العثمانية وتسلحوا بالأسلحة، ودخلوا فيهم وشمخوا بآنافهم وتعرضوا بالإيذاء للمسلمين في الطرقات بالضرب والسب باللغة التركية، ويقولون في ضمن سبهم للمسلم: فرنسيس كافر، ولا يميزهم إلا الفطن الحاذق، أو يكون له بهم معرفة سابقة.

[٣٣١] وفي يوم الاثنين قتل شخصان وهما حجاج وأخوه كانا متوليين الأحكام ببولاق أيام الفرنسيس، ووقع منهما جور وظلم وعسف وكثر التشكي منهما، فقتلا.

وفيه ركب حضرة الصدر بثياب التخفيف، وشق المدينة وتأمل في الأسواق، وأمر بمنع العسكر من الجلوس على حوانيت الباعة وأرباب الصنايع ومشاركتهم في أرزاقهم.

[٣٣٢] وفي يوم الثلاثاء نودي بتزيين الأسواق من الغد تعظيماً ليوم المولد النبويّ الشريف، فلما أصبح يوم الأربعاء كررت المناداة والأمر بالكنس والرش، فحصل الاعتناء وبذلوا الناس جهدهم وزينوا حوانيتهم بالشقق الحرير والزردخان والتفاصيل الهندية، وركب حضرة المشار إليه عصر ذلك اليوم، وشق المدينة وشاهد الشوارع، وعند المساء أوقدوا المصابيح والشموع ومنارات المساجد، وحصل الجميع بتكية الشكلين على العادة وتردد الناس ليلاً للفرجة، وعملوا مغاني ومزامير وقراءة قرآن، وضجت الأولاد في الأسواق وعم ذلك سائر أخطاط المدينة العامرة ومصر وبولاق، وكان من المعتاد القديم أن لا يعتني بذلك إلا بجهة الأزبكية حيث سكن الشيخ البكري؛ لأن عمل المولد من وظائفه وبولاق فقط.

[٣٣٣] وفي سادس عشرينه حضر عثمان بيك البرديسيّ وصحبته عدة من عسكر الإنكليز الذين حضروا من ناحية القلزم[١] على القصير[٢] فانحازوا مع أصحابهم بالجيزة وهم على أشكال مختلفة، وفيهم كثير من الجيوش والهنود المختلفة الأديان والملابس والصور والأوضاع حتى أن فيهم فرقة تركب الأثوار.

وفيه خلع علي محمد أغا تابع قاسم بيك موسقو[٣]، وتقلد والي مصر عوضاً عن علي أغا الشعراويّ.

---

(١) أي البحر الأحمر.

(٢) سبق أنه ميناء على البحر الأحمر.

(٣) الأمير قاسم بك المعروف بـ«الموسقو» كان من مماليك إبراهيم بك أمير مصر، وكان لين الجانب قليل الأذى إلا إنه كان شحيحاً لا يدفع حقاً توجّه عليه. مات بالشام سنة ١٢١٥ بعد دخول الفرنسيين: انظر«عجائب الآثار»: ٣/ ١٧٤.

استهل بيوم الخميس.

[٣٣٤] وفي يوم الاثنين نودي بالزينة ثلاثة أيام، أولها الأربعاء وآخرها الجمعة تاسعه، فزينت المدينة، وعملت الوقدات بالأسواق، والمغاني والآلات، والسهر بالليل في الحوانيت، وتردد الناس للفرجة ليلاً ونهاراً.

[٣٣٥] وفي ثاني عشره وقع من العساكر عربدة بالأسواق، وانزعجت الناس ورفعوا متاعهم من الحوانيت وأغلق بعض الجهات، فحضر أكابر العسكر فكفوهم وراق الحال من غير حصول ضرر كثير.

وفيه ورد الخبر بتولية محمد باشا خسرو باشاوية مصر وهو كَتْخُدا قبطان باشا، فألبس حضرة المشار إليه وكيله خلعة عوضاً عنه، وأشيع عزل محمد باشا الغزيّ وسفره.

[٣٣٦] في يوم السبت رابع عشرينه قتل رجل يسمى مصطفى الصيرفي بخطّ الصاغة، وسبب ذلك أنه كان يتداخل في النصارى، وتولى أمر فِرْدة[1] الصاغة والجواهرجية وسوق السلاح، وتجاهر بأمور نقمت عليه، فكثرت فيه الشكاوى، فحبس أياماً، ثم قتل بأمر حضرة المشار إليه عند حانوته، وبقى مرمياً ثلاث ليال، ثم دفن، وكان أصله إسرائيلياً وأسلم.

---

(١) أي الغرامة المحددة من قبل الفرنسيين كما شُرح من قبل.

واستهل شهر جمادى الثاني بيوم السبت، وفي ليلة الأحد ثانيه حصلت زلزلة في ثالث ساعة من الليل.

[٣٣٧] وفيه قطعوا رأس مصطفى المقدم المعروف بالطاراتي بباب الشعرية، وذلك بعد حبسه أياماً عديدة، وضربه وعقابه، وكان أولاً مقدماً عند قائد أغا، فلما تملكت الفرنسيس خدم عند بونابارته، ثم من بعده عند كلبر، ثم خدم يعقوب حين تولى أمر الفردة[١]، ووقع منه ما وقع في ذلك الوقت كما تقدم شرحه.

وفي يوم الثلاثاء رابعه وصل شمس الدين بيك أمير آخور[٢] كبير وحضرة مرجان أغا فأرسلت التنابيه[٣] وعملوا الديوان بالباب العالي فحضر الوزراء والأمراء والعلماء والأوجاقلية والأعيان، وحضر المذكوران ولاقاهما حضرة المشار إليه من المجلس الخارج، وسلماه الخطوط الشريفة والخلع المختصة بجنابه، والسيف والشَلَنْج[٤] والجوهر، وعمل في ذلك اليوم شنك ومدافع من القلعة، وخلع على الوزراء والأمراء خلعاً وشلنجات.

وفيه حضر القاضي الجديد وهو المولى مصطفى أفندي دباغ

---

(١) أي الغرامة، كما سبق مراراً.

(٢) هو الناظر في أمور الإسطبلات والمناخات السلطانية، ورئيس العاملين بها جميعاً: انظر «تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي»: ١١.

(٣) جمع تنبيه.

(٤) «حلية للرأس مرصعة بالأحجار الكريمة»: المصدر السابق: ١٣٧.

زاده، من فضلاء المحققين ونبلاء المدققين، وحضر إلى المحكمة في يوم السبت ثامنه بأهله وعياله، سدد الله أحكامه ورفع على منار الشريعة أعلامه.

[٣٣٨] وفي يوم الثلاثاء حادي عشره عمل حضرة المشار إليه[١] ديواناً، وحضر الأمراء المصرلية، فقبض عليهم وعوّقهم عنده، وكان سليم بيك أبو دياب بالبلدة المسماة بالمنيل، فسمع الخبر، ففر إلى الإنكليز بالجيزة، وأدركه الطلب فلم يجدوه، فأحضروا متاعه وجماله، ونودي في ذلك اليوم بالأمن والأمان على الأوجاقلية والرعية، واختفى بقية الأجناد المصرية والمماليك، وباتوا بليلة سوداء، وخاب أملهم وضاع تعبهم وطمعهم، وكان في ظنهم أن العثمنلي يرجع لبلاده ويترك لهم مصر وإقليمها ويعودون إلى حالتهم الأولى يتصرفون كيف شاءوا.

[٣٣٩] وفيه وردت الأخبار بأن حضرة حسين باشا القبطان[٢] أراد أن يقبض على الأمراء المصرلية، فحصل منهم عناد ومخالفة، فقتل منهم عثمان بيك المرادي الكبير وعثمان بيك الأشقر الإبراهيمي ومراد بيك الصغير ومحمد بيك المنفوخ وإبراهيم السناري وآخرين، وفر الباقون إلى الإنكليز بجهة إسكندرية، فلما ورد الخبر بذلك حصل بعض قلقلة وإرجاف، وأخذ الإنكليز المقيمون بالقلعة حذرهم[٣].

---

(١) أي شمس الدين بيك أمير آخور.

(٢) لم أعثر له على ترجمة، وإن كان واضحاً من السياق أنه مبعوث من الدولة العلية، وأن منصبه كبير.

(٣) بقي الإنجليز في القاهرة والإسكندرية حتى حصلت معاهدة بين نابليون والدولة العثمانية في ٢٣ صفر سنة ١٢١٧، فخرج على إثرها الإنجليز من مصر، لكنهم =

وفي يوم الاثنين رابع عشرينه حضر كبير الإنكليز الذي بالجيزة فقابل حضرة المشار إليه فألبسه خلعه، وفي ذلك اليوم خلع أيضاً على عثمان كَتْخُدا، وتقلد إمارة الحاج.

شهر شعبان

استهل بيوم الثلاثاء.

[٣٤٠] وفيه من الحوادث أنه تقيد بأبواب القاهرة بعضٌ من نصارى القبط، ومنهم بعض من العسكر، فصاروا يأخذون دراهم من كل من وجدوا معه شيئاً سواء أكان داخلاً أو خارجاً بحسب اجتهادهم، وعلى ما يجلب لمصر من الأرياف وزاد تعديهم، فعم الضرر وعظم الخطب، وغلت الأسعار.

وكل من ورد بشيء ليبيعه يشتط في ثمنه ويحتج بأنه دفع عليه كذا وكذا من دراهم المَكْس(١)، فلا يسع المشتري إلا التسليم لقوله والتصديق له؛ والسبب في ذلك أن الذين تقيدوا بديوان العشور بساحل بولاق دَسّ عليهم بعض المقيدين معهم من أقباط النصارى بأن كثيراً من المتاجر التي يؤخذ عليها العشور يذهب بها أربابها من طريق البر،

= رجعوا إليها بعد قرابة ثمانين عاماً وذلك سنة ١٨٨٢، ليمكثوا فيها قرابة سبعين سنة، حتى أجلوا سنة ١٩٥٤، ولله الأمر من قبل ومن بعد. وانظر «تاريخ الدولة العلية» الذي تحدث عن خروج الإنجليز من مصر سنة ١٢١٧ في صفحة ٣٧٩ وما بعدها.

(١) أي الضرائب.

ويدخلون بها في أوقات الغفلة تحاشياً عن دفع ماعليها، وبذلك لا يجتمع المال المقرر بالديوان، فيلزم أن نقيد من كل باب من يترقب لذلك، ويأخذ ما يخص الديوان من ذلك، فأذن كبير الديوان بذلك، فانفتح لهم بذلك باب فولجوه، ولم يحسبوا للعاقبة حساباً، وزادوا في الجور والفضائح وأظهروا مافي نفوسهم من القبائح، فساءت الظنون، واستغاث المستغيثون، وأكثر سخاف الأحلام مما لا طائل تحته من الكلام، كما قيل في المعنى:

وكنـــا نستطـــب إذا مـــرضنـــا

فصـار الـداء مـن قبـل الطبيـب

فلما أنهى هذا الأمر لحضرة الصدر بادر في إنكاره، وسرعة إزالته، ومحو آثاره، وأرسل لمن تولى كِبْرَ ذلك من أرباب الدواوين وسجنه، وانجلت ولله الحمد بمولانا هذه الغمة وابتهلت بالدعاء له بالبقاء والنصر سائر الأمة.

للخيـــر أهـــل لاتـــزال

وجـوههـم تـدعـو إليـه

طوبى لمن جرت الأمور

الصـالحـات علـى يـديـه

[٣٤٢] وفيه يوم الأربعاء تاسعه قبضوا على ثلاثة أشخاص من نصارى الأروام تزيوا بزي العساكر الانكشارية، وحصل منهم القبائح في الرعية، فرموا رقابهم في جهات مختلفة، ليعتبر بذلك غيرهم، وكذلك الرجل المفسد الذي يقال له راضي النجار، كان من أعظم

المفسدين بإقليم المنوفية، قبض عليه العسكر، وأحضروه إلى مصر، وقتل، فانسر الناس بترادف مثل هذه الأمور وما يترتب على ذلك من استئصال أصحاب الشرور.

خاتمة

لما كانت حوادث الأيام لا تقف على حد، واستقصاؤها لا يدخل تحت قدرة أحد، ناسب أن يجعل ختام هذا التاريخ شهر رمضان المعظم، تفاؤلاً بحصول الغفران، وترادف سوابغ الإحسان فإنه شهر عظيم البركات كثير المبرات وافر الخيرات، فيه تُضاعف الحسنات وتحط السيئات ويتوالى من الرحمن على عبيده رحماته، وتتعاقب عليهم نعمه وهباته.

ثم في الختم به إيمائة إلى من ألف الكتاب باسمه وحُلّيت ديباجته برسمه، وهو مولانا الوزير[1] دام علاه وتحلت الأيام بوجودها فيه وبقاه، وجوده في سائر الأنام كوجود شهر الصيام في الأعوام، به يزول الفساد، وتكثر العباد، وتنجبر القلوب، وتخلص النيات في كل مرغوب، وأيضاً ففيه ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر، يترقب حصولها في جميع لياليه ويبوء مترقبها بُنْجح[2] مقاصده وشكر مساعيه، فكذلك المشار إليه ـ أبقاه الله ـ ترقبت الأمة المحمدية من مُدَد متطاولة حلول ركابه السعيد بمصر ليزول عنهم بيمن قدومه، وإشراف طلعته، مالحقهم من عظائم النوائب والإصر، ويؤول الفساد للصلاح، والبأس للنجاح.

---

(١) أي يوسف باشا الذي ذكره قبل ذلك.

(٢) أي بنجاح.

وقد كان قدوم المشار إليه ـ نظر الله بعين الرعاية إليه ـ مفتاح أبواب المسرات التي طال انغلاقها، ومعيد بهجة مصر التي كسف بظلام الكفرة إشراقها، ثم لسدته التي هي مَلْثم شفاه الإقبال، ومحط رحال أفاضل الرجال، أهدي كاسد هذا التصنيف، وخامل هذا الترصيف، فإن لاحظه بعين القبول، وذاك هو المبتغى والمأمول، راج في معالم الأدب سوقه، وبطالع السعود لاح شروقه.

مهنئاً له بنعم الله العظام المترادفة عليه، بشهر الصيام، وتقبل أعماله الرفيعة، ومبراته الباهرة البديعة، واقتبال شهر العيد بتسامي رفيع طالعه السعيد.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، ووافق التمام سلخ شهر شعبان سنة ١٢١٦ من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام .

خاتمة المختصر

ثم إنه تولى بعد ذلك على مصر: «رجل كانت تركية بعثته مع ثلاثمائة من الجند في أواخر أيام الحملة الفرنسية وكان اسمه محمد علي سرْششْمة، وسرْششمَة درجة بسيطة يُلقب بها قائد عدد من الجنود في الدولة العثمانية، كَان ذلك في سنة ١٢١٦ ـ ١٨٠١ م.

كان محمد علي سِرْششمة هذا الذي أسند إليه أمرُ ولاية مصر في سنة ١٢٢٠ في الخامسةَ والَثلاثين من عمره، وكان جاهلاً لم يتعلم قط شيئاً من العلوم، وكان لا يقرأ ولا يكتب، وقضى أكثر عمره تاجراً يتاجر في الدخان، ثم انضم إلى الجند ولكنه كان ذكياً داهية عريقاً، يلبس لكل حالة لبوسها، وكان مغامراً لا يتورع عن كذب ولا نفاق ولا غدر. .

وفي أثناء مقامة مصر من سنة ١٨٠١ ـ ١٨٠٥ يراقب اضطراب أمورها واختلال إدارتها، وبنظره الثاقب وبذكائه خالط المشايخ والقادة والمماليك ـ الذين حاولوا العودة إلى ولاية الأمور في مصر ـ فنافقهم جميعاً، وأظهر لجميعهم المودة والنصح وسلامة الصدر حتى انخدع به المشايخ والقادة وآثروا ولايته على ولاية المماليك فنصبوه والياً على مصر، وعلى رأس من انخداع به السيد عمر مكرم ـ نقيب الأشراف ـ أكبر قائد للمشايخ والجماهير فبذل كل جهده في إسناد ولاية مصر إليه... فلما تمت ولاية محمد علي على الديار المصرية أحاطت به

قناصل المسيحية الشمالية إحاطة كاملة... يوغرون صدره على المشايخ والقادة الذين نصبوه والياً على مصر، ويخوفونه عاقبة سلطانهم على جماهير الأمة... فكانت أول غدرة غدرها محمد علي هذا بالذي نصبه والياً على مصر، وبذل له في ذلك كل جهد وهو قائد الأمة مشايخها وجماهيرها نقيب الأشراف السيد عمر مكرم؛ فإنه بمكره ودهائه [أي مكر محمد علي] أوقع بينه وبين بعض المشايخ، ثم انتهى الأمر بأن نزع عنه نقابة الأشراف ثم نفاه إلى دمياط... ثم استدار بعد ذلك على المشايخ يوقع بينهم ليوهي سلطانه على جماهير الأمة، ويفتت قوة الجماهير بعسفه وظلمه وإرهابه وجبروته بعد القضاء على قادتهم وتشتيت شملهم... وثبّت هذا الطاغية قواعد ملكه، وازداد إطباق القناصل والمستشرقين على عقله وقلبه وخاصة الفرنسيين منهم...» «رسالة في الطريق إلى ثقافتنا»: الأستاذ محمود شاكر: ١٣٥ ـ ١٣٧.

ثم أخذ الأستاذ في بيان كيف حطم محمد علي الصحوة الوهابية العظيمة في جزيرة العرب، وكيف حطم الأزهر، وأرسل كثيراً من أبنائه إلى بعثات في فرنسا ليضلهم، ثم ذكر كيف عمل أولاده الحكام بعده عملهم وأفسدوا مصر وكثيراً من أهلها، حتى أتى على زمان الاستخراب البريطاني في أوائل القرن العشرين، وكيف وطد أقدامه في مصر، وماذا عمل دنلوب في مصر من فساد إلى آخر ما أورده رحمه الله تعالى.

وإنما ختمت الكتاب بهذه الخاتمة لأبين أن الاتعاظ والاعتبار بالحملة الفرنسية كان محدوداً؛ إذ سرعان ما دخلت البلاد في دوامة الظلم والاضطهاد في عهد محمد علي وخلفائه، ثم بغتها الاستخراب البريطاني سبعين سنة أخرى من الزمان.

فما أجدرنا اليوم أن نعتبر ونتعظ بالأحداث السالفة حتى نقيم أمتنا وحضارتنا الإسلامية على دعائم من اليقظة والجد والاستبصار، وألا نغفل عن دروس الزمان وهي كثيرة، ولا نكون ممن يلدغ من جحر مرتين بل من جحر مرات وكرات، فنسأل الله أن يمن علينا بالتوفيق والنظر الصحيح، وأن يعيد لنا مجدنا وعزنا من جديد.

هذا والله تعالى أعلم وأحكم، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

فهرست الفهارس

فهرست الأعلام المترجم لهم.

فهرست المصطلحات العثمانية والمملوكية.

فهرست الفوائد.

فهرست المصادر والمراجع.

فهرست الموضوعات.

فهرست الأعلام المترجم لهم

فهرست المصطلحات العثمانية والمملوكية

فهرست الفوائد

الحملة الفرنسية

اسبابها:

- انظر المقدمة.

- مصر كانت دولة إسلامية مرهوبة الجانب: [١].

- محاسن مصر وجمالها: [٤]، [٦]، [٢٠]، [٩٥].

الضعف الذي لحق بمصر بعد ذلك وسببه تغلب الفرنسيين عليها:

أ ـ انظر المقدمة.

ب ـ حكامها المماليك لم يكونوا يقظين، بل كانوا إلى اللهو واللعب والباطل مائلين: [٢]، [٣١٠]، [٣١١].

ومن أوضح الأمثلة على ذلك ترجمة مراد بيك: [٢٩٩] ـ [٣١٠].

ج ـ ظلم الشعب ومصادرة ماله: [٣]، [١٥]، [٢٤]، [٣٠٠]، [٣٠٨]، [٣١١].

د ـ تقاعس العساكر وضعفهم وعدم استعدادهم: [٥]، [١٥]، [٤٣]، [٤٤].

هـ ـ سقوط همتهم وركونهم إلى الدنيا: [٤٣]، [٤٤].

و ـ غرورهم: [١٢]، [٤٤]، [٣٠١].

ز ـ عزلتهم عن الناس: [٣٠١]، [٣٠٧].

ح ـ عدم حفظهم للثغور: [١٣].

ط ـ ضعف السلاح أو عدمه: [٤١] : إذا وجد فهو كعدمه لسقوط الهمة: [٣٠٢].

ـ استيلاء الفرنسيين على الموجود: [٣٠٤].

ـ تولية بعض النصارى على آلات السلاح: [٣٠٣]

ي ـ سيطرة بعض النصارى على أمير البلد: [٣٠٥].

ك ـ استيزار وتولية من لايصلح: [٣٠٦].

ل ـ كثرة البدع في الشعب، وأمثلة على أعظمها وأشدها: [١٤٣]، [١٥٠]، [٢٠٢]، [٢٥٠].

شرح أحوال الحملة الفرنسية:

نصيحة إنجليزية لم يأخذ بها أهل الإسكندرية: [١٠].

الحالة النفسية للناس وقت الاحتلال: [١١]، [١٤]، [١٦]، [٣٧]، [٤٧]، [١٥٠]، [١٥١].

نزول الفرنسيين على الإسكندرية: [١٠]، [١٣].

لم يقف أمام الفرنسيين كبير أحد حتى وصلوا القاهرة: [١٧].

هزيمتهم عسكر المماليك في القاهرة: [٤٨]، [٤٩]، [٦٥].

استغلال اللصوص وأوباش الناس والأعراب الحملة الفرنسية

وانشغال الناس بها، وإقدامهم بسبب ذلك على النهب والقتل في القاهرة والأرياف: [٤٢]،[٤٩]،[٥١]،[٥٤]،[٦٧]،[٦٨]،[١٧٣]، [٢٤٥]،[٢٤٨].

توهم الناس من الأعراب المفسدين: [١٦٢]

نزول الفرنسيين على القاهرة: [٤٣]،[٤٤]،[٥٢]،[٥٧].

تخذيل المماليك عامة الشعب بتصرفات غير مسؤولة: [٣٨].

بذل عامة الشعب المصري ما في وسعه لصد الفرنسيين، لكن كان كل ما قدمه من تضحيات ـ على كثرته ـ ضعيف الأثر: [٣٩]،[٤١].

كان بعض المصريين الشجعان والأرناؤوط والمماليك قد تصدى للحملة الفرنسية بقوة: [٣٥]،[٤٥]،[٤٦].

تتبع الفرنسيين أموال المماليك وأشخاصهم للفتك بهم: [٢٢]، [٥٠]،[٥٤]،[٧٤].

كان عدد من كبار العلماء قد اجتمع في الأزهر لقراءة البخاري وغيره، وكان عدد من الصوفية يصيح بالذكر والدعاء، ظناً منهم أن فعلهم هذا دافع للعدوّ الصائل: [٣٦]،[٤٠].

استخدم الفرنسيون أسلوب الرسائل والمنشورات لتطمين المصريين وخداعهم: [١٨]،[٥١]،[٩٥]،[١١٥]،[١٢١]،[١٣٥]، [١٣٦]، [١٤٨]،[١٦١] .

إنشاء رسائل على لسان العلماء لمكانتهم في قلوب العامة: [٩٣]، [١١٥]،[١٢١].

ابتكار الفرنسيين الحيل لإخضاع المصريين: [١٨]، [٢٥]، [٥٦]، [٧١]، [٧٦]، [٧٨]، [٨٠]، [٩٥]، [٢٨٧].

ادعاؤهم الإسلام لخداع المصريين: [١٩]، [٢٥]-[٢٨]، [١٣٦].

استخدام الفرنسيين الترهيب مع المصريين لإخافتهم وتحطيم روحهم المعنوية: [٢١]، [٦٦]، [٧٤]، [١٣٦].

دندنتهم حول ظلم المماليك - وهو حق - للتوصل إلى باطل: [٢٤].

غارات الفرنسيين الوحشية على بوادي مصر وقراها: هامش فقرة[٢١]، [١٧٥]، [١٧٦]، [١٩٧].

كان الفرنسيون يعاقبون بعض أفراد جيشهم إذا أفسدوا بغير إذنهم: [١٤٠]، [١٤٢].

جهاد المسلمين للفرنسيين

الاحتجاج الشعبي على بعض تصرفات الفرنسيين: [٩٢]، [٢٧٥]، [٢٧٦].

الثورات الشعبية الجهادية على المستعمر الفرنسي، وكان كل ما قام به المجاهدون غير مخطط له تخطيطاً مناسباً، ولايتوفر له العدد والعُدّة اللازمان، وكان عاقبة تلك الثورات وخيماً لعدم التبصر في العاقبة: [١٠٤]-[١٢١]، [١٧٧]، [٢١٢]، [٢١٣]، [٢١٦].

كان حب الجهاد هو المحرك لتلك الثورات: [٢١٣]، [٢١٩]، [٢٢٧].

مقتل عدد من قادة الفرنسيين وكبارهم أثناء تلك الثورات الجهادية: [١٠٤]، [٢٥٥].

شماتة المصريين بالفرنسيين وعدم حبهم لهم ولاقبولهم لاحتلالهم: [٨٨]، [١٠٤]، [٣٢٥].

لم يستطع الفرنسيون كتمان أنفاس الشعب المصري ومنعه من التنفيس: [١٦٦].

تحسس الفرنسيين من كل خبر حول قدوم العثمانيين أو الإنجليز أو جواسيسهما: [٨٢]، [٨٣]، [٩٤]، [١٢١]، [١٦٩]، [٢٧٤]، [١٨٣]، [٢٨٧]، [٣١٧].

مراسلة الفرنسيين العثمانيين على لسان المشايخ ليطمئنوهم ويثبتوا احتلالهم: [٩٣].

حجز بعض المشايخ رهينة لهم عند قدوم العثمانيين: [٢٨٣].

حزن المصريين عند هزيمة العثمانيين في بعض المواقع: [١٨٧]، [١٨٨].

حاول نابليون أن يخرب الشام [يستعمرها] لكنه لم يستطع:

خروجه إلى الشام: [١٤٧]، [١٥٤]، [١٥٥]، [١٥٦].

احتلال العريش: [١٦٠].

احتلال غزة: [١٦١].

احتلال يافا، والمذابح الفظيعة التي ارتبكت هنالك: [١٦٥].

احتلال حيفا: [١٧٠].

حاول احتلال عكا لكنه لم يُفلح: [٧٣]، [١٧٠]، [١٧٨]، [١٨١].

رجوعه من عكا لمصر وبيان سوء حال جنده: [١٨٢].

خروج نابليون مرة أخرى للقتال وعودته: [١٨٤] ـ [١٨٩].

هروبه من مصر: [١٩٢].

مجيء كليبر حاكماً عاماً بعد نابليون: [١٩٦].

صرامته وعبوسه: [١٩٨].

مقتله: [٢٥٥].

نقل جثته إلى فرنسا: [٣٢١].

تولي جاك مينو «عبد الله جاك مينو» بعده: [٢٥٦].

الصلح الأول بين العثمانيين والفرنسيين لكنه لم يتم: [٢٠٤] ومابعدها.

من أسباب عدم إتمام الصلح:

١ـ تعنت الإنجليز، وتعمدهم إهانة الفرنسيين: [٢١١].

٢ـ المشاجرة مع بعض العساكر العثمانيين: [٢١٠].

٣ـ حقد الفرنسيين على أهل مصر لما أظهروا من الشماتة بهم: [٢٠٧]، [٢٠٩].

هياج أهل مصر لما علموا نقض الصلح، ووقوع العذاب عليهم: [٢١٢] ومابعدها.

طلب الفرنسيين الصلح مع المصريين لكن بعض العامة المتهورين لم يقبلوا ذلك، وعاد عليهم بأسوأ العواقب: [٢٢٩]، [٢٣٠].

كان بعض النصارى من الأقباط وغيرهم يقتل أثناء الأحداث انتقاماً من قبل العامة: [٢١٣]، [٢٢١].

وكان المسلمون يؤمّنون بعضهم: [٢٢٣].

إتمام الصلح بعد ذلك: [٢٣٥].

الذل الذي لزم المصريين بعد الصلح: [٢٣٩] ـ [٢٤٣]، [٢٦٣]، [٢٦٥]، [٢٦٦]، [٢٦٨]، [٢٦٩].

معاقبة الفرنسيين لقليل من الأقباط: [١٢٠].

إهانتهم عدداً من المشايخ: [٢٤٠]، [٢٦٠].

وصف حال الأرياف المصرية بعد الصلح: [٢٤٩] ـ [٢٥٣].

الصلح الأخير بين العثمانيين والفرنسيين: [٣٢٠] ومابعدها.

خروج الفرنسيين في حراسة مشددة خوفاً من انتقام العامة، وخروجهم خفية كذلك: [٣٢٥]، [٣٢٦].

أخذ الفرنسيون عملاء معهم عندما غادروا البلاد: [٣٢٣].

فرح المصريين: [٣٢٧]، [٣٣٤].

مدة حكم الفرنسيين: [٣٢٧].

وصول التهاني إلى الحجاز: [٣٢٨].

تخريب الفرنسيين ديار مصر وإفسادهم فيها

١ ـ الفساد الاجتماعي:

أ ـ تخريب أخلاق بعض النساء وهتك حيائهن وتعويدهن الفواحش: [٢٩١]، [٢٩٣]، [٢٩٤].

ب ـ إشاعة الخلاعة والفواحش: [١٩٣]، [١٩٤].

ج ـ فتحهم بيوت الدعارة: [١٢٣]، [١٦٧].

د ـ إنشاؤهم المسرح: الفقرة التي تلي فقرة[٢٧٨].

هـ ـ إفساد النساء، وذلك بعدة طرق منها:

ـ جعل النساء متحكمات: [٢٩٢].

ـ ترغيبهم الجواري وإفسادهن: [٢٩٤].

و ـ فتح حانات الخمور وإفشاؤها بين الناس: [٥٨].

ـ تحويلهم مسجد إلى خمارة: [٢٩٠].

ز ـ حرصهم على إلهاء الناس، وذلك بطرق عديدة منها:

ـ إقامة الموالد والأفراح: [٧١]، [١٤٣]، [١٥٠]، [١٩٠]، [١٩٩]، [٢٠٢].

إقامة أعيادهم «وكان في بعضها احتقار للشعب المصري والمماليك»: [٨١]، [٨٤].

٢ـ الفساد المعماري:

أ ـ هدم المساجد أو الجوامع أوتخريبها: [١١٢]، [١٢٤]، [١٢٦]، [١٣٠]، [٢٩٠].

إهانة الجامع الأزهر: [١٠٧]

قفل الجامع الأزهر: [٢٥٧].

ب ـ هدم الدور والمعالم الأثرية:

هدم الدور: [٢٦٨]، [٢٨٩].

هدم عدد من المعالم الأثرية المصرية: [٨٩].

ج ـ قطع الأشجار وتخريب الحدائق: [٢٩٦].

٣ـ الإفساد المالي:

أ ـ طلبهم الأموال العظيمة من الشعب، ومصادرتهم: [٦٠]، [٦١]، [٦٣]، [٦٤]، [٦٦]، [٦٩]، [٧٤]، [٧٧]، [٨٧]، [١٣٧]، [١٣٨]، [١٤١]، [٢٠٠]، [٢٣٩]، [٢٥٩]، [٢٦٥]، [٢٦٦]، [٢٧٥].

ب ـ تكسير المراكب والسفن: [٢٩٧].

٤ـ الظلم:

بالإضافة لبعض ماسبق هناك بعض الصور: [٧٠]، [١٠٩]، [١١٠]، [١١٢]، [١٣٣]، [١٣٧]، [١٣٨]، [١٤١]، [٢٥٩]، [٢٦١]، [٢٦٣]، [٢٦٧]، [٢٦٩]، [٢٧٤]، [٢٧٥].

٥ـ إيقاد الفتن بين المسلمين ونصارى العرب:

تسليط النصارى من الأقباط أو غيرهم من أجناس نصارى المصريين والشاميين على المسلمين: [٥٥]، [٦٢]، [٧٢]، [٧٧]، [١٠١]، [١١٠]، [١٥١]، [٢٢٤]، [٢٤٠]، [٢٤١]، [٢٦٥]، [٢٦٦]، [٢٧٠]، [٢٧٥]، [٢٩٥]، [٣١٣].

أخبار المعلم يعقوب اللعين القبطيّ وتسلطه البالغ على المسلمين: [٧٢]، [٢٢٤]، [٢٤٠]، [٢٤١]، [٢٧٥]، [٢٩٥]، [٣١٣].

مغادرته مصر إلى فرنسا لما طُردت الحملة الفرنسية: [٣٢٢].

تعدي عدد من النصارى والأقباط على المسلمين: [٩٧]، [١٥١]، [١٥٧]، [١٨٠]، [١٨٥]، [٢٤٤]، [٢٥٢]، [٢٥٣]، [٢٥٨]، [٢٦٥].

فرح عدد من النصارى بالغزو الفرنسي: [٨٤]، [١٦٧].

شماتة النصارى بالمسلمين وإظهارهم الفرح لكل مايسوؤهم: [١٦٠]، [٢٤٤].

كثرة شكايتهم المسلمين للفرنسيين: [١٠٨]، [١٨٠]، [١٨٥].

٦ـ احتقارهم القرآن العظيم: [٢٨]، [١٠٧].

عقائد الفرنسيين وأخلاقهم

عقائدهم:

عقائدهم مشوشة جداً: [٢٣]، [٢٥] ـ [٢٧]، [٢٩]، [٣٠].

أخلاقهم:

كشف العورات هين عندهم: [٣١].

شيوع الزنافيهم: [٣٢]، [١٢٣]، [١٦٧]، [١٩٣]، [٢٩١]ـ[٢٩٤].

سيطرة النساء عليهم على وجه مُخْز: [٢٩١].

قذارتهم وقلة تنزههم: [٣١]، [٣٣]، [٨٥].

أعمال علمية وحضارية

قام بها الفرنسيون تحقيقاً لأغراضهم الخاصة

ـ أعمال علمية قام بها الفرنسيون في مصر، وكان أكثرها لمصلحتهم الخاصة:

ـ بعض آلات الغطس: [١٣٩].

تجربة المنطاد: [١٢٢]، [١٤٤].

عمل طواحين تدور بقوة الهواء: [١٢٥].

الإحصاء: [٢٧٩].

ـ أعمال ظاهرها حضاري وباطنها لفرض حماية الفرنسيين:

إقامة الديوان «البرلمان» أو مجلس الشعب، وكان ذلك ذريعة للظلم وتغيير بعض أمور الشرع: [٥٣]، [٦٠]، [٨٧]، [٩٥]، [٩٦]، [٩٨]، [٩٩]، [١٠٤]، [١٣٤]، [٢٧١].

توسيع الطرقات: [١٢٧]، [١٢٨].

إضاءتها: [١٤١].

ـ إنشاء أبنية خاصة في بعض الأزقة لعلماء الحملة الفرنسية كي يزاولوا فيها نشاطهم العلمي، الذي هو مشبوه في أكثره: [١٣٢].

ـ آلات هندسية وفلكية متقدمة أتى بها الفرنسيون معهم لتحقيق أغراضهم الخاصة، ودُمر كثير منها أثناء الثورات الجهادية: [١١٨].

ـ أعمال صحية وقائية:

إنشاؤهم رسالة في مرض الجدريّ: [٢٧٨].

إقامة المحجر الصحي «الكرنتينة»: [٢٨٠]، [٢٨١]، [٢٨٢].

إظهار الاهتمام بالنظافة خوفاً من الطاعون الذي كان يفتك فيهم لاحُبّاً في المصريين: [٩٠]، [٩١]، [١٠٠]، [١٦٨]، [١٧١]، [٢٨٠] ـ [٢٨٢]، [٢٨٦]، [٢٩٨].

منع الزنا أيام الوباء فقط: [١٧١].

بعض أفعال وأحوال الفرنسيين التي تحمد

وإن كانوا أقدموا عليها لمصلحتهم أو مراعاةً -في الظاهر- للمصريين

١- إقامتهم أعياد المسلمين: [٧١].

٢- تلقيهم المواريث الشرعية بالقبول: [١٠٢]، [١٠٣].

٣- إقامتهم القضاء الشرعيّ: [١٤٦]، [١٤٩]، [٢٥٤].

٤- قمع بعض النصارى وإيقاف تعدياتهم: [١٥٨]، [١٥٩].

٥- تعظيم موكب الكسوة الشريفة: [١٦٤].

٦- تعظيم شهر رمضان المبارك: [١٥٩].

٧- معاقبة بعض المفسدين: [١٦٣].

٨ - منع الشحاذين من السؤال: [٢٧٢].

٩- ضبط الأوقاف: [٢٧٣].

١٠- منع المجذوبين ومدعي الولاية من كشف العورات والصياح بالأسواق: [٢٧٧].

بعض العبر والعظات المستفادة من الحملة الفرنسية

١- المسلمون أمة واحدة:

المسلمون أمة واحدة يحزنون لمصاب إخوانهم ويساعدونهم: [٤٦]، [١٥٣]، [١٦٠]، [١٦٥]، [١٧٤]، [٢١٢]، [٢١٦]، [٢٢٠]، [٢٥٥].

٢- أحوال المشايخ والعلماء في مصر:

- عظم عقيدة الولاء والبراء لدى المشايخ: [٧٨]، [٨٠].

ـ كان الفرنسيون يعظمون المشايخ إلى الغاية؛ وذلك لعلمهم أنهم موطن القوة الوحيد في البلاد: [٧٨]، [٧٩]، [٨٣]، [٢٠١]، [٢٤٢].

ـ كان المشايخ هم القائمين بأمر البلد لما دخل الفرنسيون، وكانوا أصحاب الشفاعة والمكانة: [٥٠]، [٥٣]، [٥٩]، [٦٤]، [٧٩]، [٩٥]، [٩٦]، [١٠٦]، [١١١]، [١١٤]، [١١٥]، [١٢١]، [١٨٥]، [١٨٩]، [١٩٥]، [٢٢٩]، [٢٣٨]، [٢٧١]، [٢٨٧]، [٣١٥].

ـ حجز بعض المشايخ رهينة عند قدوم العثمانيين: [٢٨٣].

٣ـ أحوال المماليك حكام مصر بعد دخول الفرنسيين:

سوء أحوالهم: [٥٩].

استفادة الفرنسيين من قصور المماليك التي بُنيت بظلم الشعب ومصادرته: [٥٢]، [٥٦]، [١٣١]، [١٣٢].

أحوال مصر بعد دخول العثمانيين وخروج الفرنسيين

رجوع العثمانيين بالمصريين إلى عوايدهم قبل دخول الفرنسيين: [٣٣٢].

تحول بعض النصارى من الولاء للفرنسيين إلى التظاهر بالولاء للعثمانيين: [٣٣٠].

إيقاف بعض مظاهر الفساد من بعض الأقباط: [٣٤٠].

قتل بعض المفسدين من النصارى والمسلمين: [٣٣١]، [٣٣٦]، [٣٣٧]، [٣٤١].

مسامحة العثمانيين النصارى واليهود عما اقترفوه أثناء الحملة الفرنسية: [٣٢٩].

إفساد بعض العساكر العثمانيين في مصر: [٣٣٥].

إمساك الحاكم العثماني بعض أمراء المماليك وقتلهم: [٣٣٨]، [٣٣٩].

عادت مصر إلى دوامة الظلم والطغيان والفساد بعد رحيل الفرنسيين وذلك بظهور محمد علي والياً عليها: انظر خاتمة المختصر.

متفرقات

شارك الأديب حسن العطار الجبرتيّ في تصنيف بعض مباحث الكتاب: [٩].

- نادرة في التاريخ المصريّ: [٨].

- حب الفرنسيين الظهور والتبختر: [١٨٢]، [١٨٣]، [٢٠١]، [٢٦٣].

- كان بعض القادة الفرنسيين عجيبة أحوالهم: [١١٧]، [١٧٨].

انقطاع الحج أثناء الحملة الفرنسية: [٢٤٧].

وقوع الطاعون بمصر والشام: [٩٠]، [٩١]، [١٠٠]، [١٦٨]، [١٧١]، [٢٨٠] - [٢٨٢]، [٢٨٦]، [٢٩٨].

فهرست المصادر والمراجع

* القرآن الكريم.

١ـ «الأعلام»: خير الدين الزركلي.

نشر دار العلم للملايين. بيروت. الطبعة الخامسة. سنة١٩٨٠.

٢ـ «تأصيل ماورد في تاريخ الجبرتيّ من الدخيل»: د. أحمد السعيد سليمان نشر دار المعارف. القاهرة.

٣ـ «تاريخ الدولة العلية العثمانية»: الأستاذ محمد فريد بك المحامي.

تحقيق الدكتور إحسان حقي.

نشر دار النفائس. بيروت. الطبعة الثانية. سنة١٤٠٣.

٤ـ «الجبرتي ومعاصروه من أمراء المماليك»: الدكتور محمود حلمي مصطفى.

مطبوعة ضمن كتاب أعمال الندوة التي أقامتها الجمعية المصرية للدراسات التاريخية. نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب. سنة١٩٧٦.

٥ـ «رسالة في الطريق إلى ثقافتنا»: الأستاذ محمود شاكر.

نشر دار المدني بجدة. سنة١٤٠٧ «مطبوعة في صدر كتاب المتنبي، للمصنف المذكور نفسه».

٦ـ «عجائب الآثار في التراجم والأخبار» الشيخ الجبرتي= عبد الرحمن بن حسن (ت١٢٤٠).

طبعة حجرية مصرية قديمة بدون تاريخ.

٧ـ «عجائب الآثار ومظهر التقديس» دراسة مقارنة: الدكتور محمد السروجي.

طبع ضمن مجموعة بحوث لندوة أقامتها الجمعية المصرية للدراسات التاريخية. نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب. سنة ١٩٧٦.

٨ ـ «فتح الباري شرح صحيح البخاري»: الحافظ ابن حجر العسقلاني= أحمد بن علي (ت٨٥٢).

تحقيق مجموعة من الأساتذة.

نشر مكتبة الكليات الأزهرية. القاهرة. الطبعة الأولى. سنة ١٣٩٨.

٩ـ «الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة»: الشيخ نجم الدين الغَزِيّ= محمد بن محمد(ت١٠٦٧).

تحقيق د. جبرائيل جبور.

نشر دار الآفاق الجديدة. بيروت. الطبعة الثانية. سنة١٩٧٩م.

١٠ـ «مؤرخو مصر الإسلامية ومصادر التاريخ المصري»: الأستاذ محمد عبد الله عنان.

نشر مؤسسة مختار للنشر والتوزيع. القاهرة. سنة١٩٩١م.

١١ـ «المعجم الوسيط»: تأليف مجموعة من الأساتذة.

نشر مجمع اللغة العربية. القاهرة. الطبعة الثالثة.

١٢ـ «النقود المتداولة في عصر الجبرتيّ»: للدكتور عبد الرحمن فهمي.

دراسة مطبوعة ضمن مجموعة بحوث لندوة أقامتها الجمعية المصرية للدراسات التاريخية. نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب. سنة١٩٧٦.

١٣ـ «ودخلت الخيل الأزهر»: الأستاذ محمد جلال كشك.

نشر دار المعارف. القاهرة.

فهرس الموضوعات